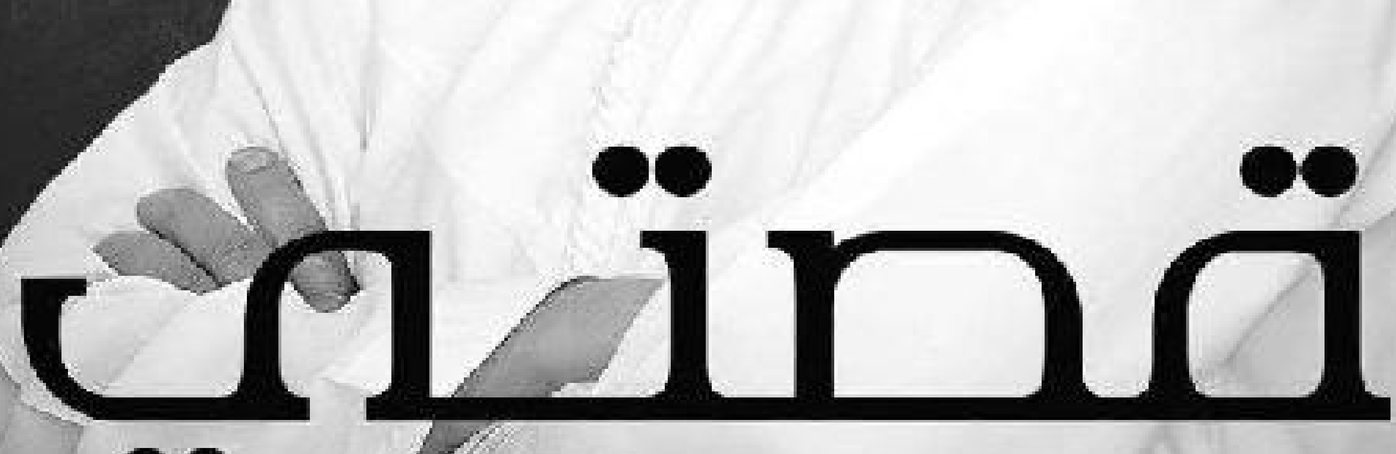
50

قصة

في خمسين عاماً

قصتي



محمد بن راشد آل مكتوم

قصتي

محمد بن راشد آل مكتوم

50
قصة
في خمسين عاما

قصتي

الطبعة الأولى - ديسمبر 2018



explorer

الناشر إكسبلورر للنشر والتوزيع
ص.ب. 34275، دبي، دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف 8805 340 (4-971+)
info@ask**explorer**.com
ask**explorer**.com

المجلس الوطني للإعلام موافقة رقم MC-02-01-5727624

الرقم الدولي 978-1-78596-505-0

مراجع الصور
Cover: Za'abeel Studio; A. Abbas/Magnum Photos; Explorer Publishing; Harry Todd/Fox Photos/Getty Images; Tim Peake / ESA/NASA via Getty Images; Rustam Azmi/Getty Images; LOUAI BECHARA/AFP/Getty Images; RABIH MOGHRABI/AFP/Getty Images; MYCHELE DANIAU/AFP/Getty Images.

”

سيقولون بعد زمن طويل: هنا كانوا، هنا عملوا، هنا أنجزوا. هنا ولدوا، وهنا تربّوا. هنا أحبّوا، وأحبَّهم الناس

“

محمد بن راشد آل مكتوم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة لا بدّ منها

بسم الله، والحمد لله..

الحمد لله على نعمه الكثيرة علي، وعلى وطني، وعلى شعبي.

الحمد لله الذي سخَّرني لعمل أحبُّه؛ ألا وهو خدمة شعبي.

الحمد لله على حبِّ الوطن.

أحبُّ لأبناء شعبي الخير، وهم يحبّون لي النجاح.

أحبُّ لهم السعادةَ والرضا والأمان، وأراهم يحبّون لي ولأبنائي ما يحبّونه لأهلهم وأبنائهم.

أحبُّ أبناءَ شعبي، ولهم أكتبُ هذه المحطّات.

محطّات من حياتي..

أكتبُ ما يُسعفني به ازدحامُ الأوقات بالواجبات، وما تُسعفني به الذاكرةُ من سنواتٍ وذكريات.

أكتبُ سيرةً غير مكتملة، لعلّها تكون بدايةً لكتابة جزءٍ من تاريخ دولتنا، نُخلِّده للأجيال القادمة.

سيقولون بعد زمن طويل: هنا كانوا، هنا عملوا، هنا أنجزوا.

هنا ولدوا، وهنا تربّوا.

هنا أحبّوا، وأحبَّهم الناس.

هنا أطلقوا ذلك المشروع، وهنا احتفلوا بإتمامه.

من هنا بدأوا، وهناك وصلوا في سنوات معدودات.

ولا نريدُ من الأجيال الجديدة إلا أن يقولوا فينا خيراً؛ فالله في عليائه يعلمُ نيَّتنا في صنع الخير لشعبنا وأمَّتنا.

والله يعلمُ أنّنا عملنا، واجتهدنا بما استطعنا.

بدأنا عمَلنا قبل خمسين عاماً، واضعين أمامنا كلامَ الله: "وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُوؤْمِنُونَ".

وما زالت الطريقُ أمامنا طويلة، وما زالت أحلامُنا لشعبنا وأمَّتنا في بدايتها.

أكتبُ هذه المحطّات في عُجالة، لأن الوقتَ قليل، والطموحَ كثير.

أكتبُها لأنني أريدُ أن يستمرَّ العطاءُ للوطن بنفس الروح، وبنفس القيم، وبنفس المبادئ التي قامت عليها بلادُنا.

نفتِّشُ دائماً عن الإنسان في الإنسان، ونبنيه.

ونزرعُ الخيرَ دائماً للناس، كلّ الناس، وننفعهم.

لا تُوقفنا أزمات، ولا تُبطئنا عقبات.

ولا نلتفتُ لمشكِّك، ولا نستمعُ لمتردِّد.

هذه طريقتُنا في بناء بلادنا، كما سترون من خلال هذه المحطّات.

في هذه المحطات كلماتٌ بسيطة، أودعتها قليلاً من حكمة، وكثيراً من محبَّة، لعلَّها تفيد، أو تلهم، أو تعلّم، أو تسهمُ في بناء الإنسان ورفعة الأوطان.

أخوكم محمد بن راشد بن سعيد آل مكتوم

المحتـــوى

01

من هناك بدأنا
وهنا وصلنا

اليوم هو السادس من ديسمبر 2017. لم أتناول إفطاري حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً؛ كنتُ مشغولاً بإطلاق مشروع جديد. تعوّدتُ على إطلاق الكثير من المشاريع، لكن هذه المرّة المشروع مختلف، لأنه سيكسرُ حاجزاً جديداً أمامنا كشعبٍ ودولة. أعشقُ تحطيمَ حواجز جديدة أمام شعبي، أحبُّ الوصول إلى قممٍ غير متوقَّعة، وأؤمن بأن ما يقود الشعوبَ نحو التطور ليس الوفرة المادية فقط بل الطموح، الطموح العظيم. نحن بشر، يحرّكنا الإلهامُ والطموحُ أكثر من أي شيء آخر، لذلك كنتُ حريصاً على إطلاق المشروع بطريقة مناسبة وملهمة.

نعملُ على المشروع منذ أعوام بهدوء. تأكدتُ من إتمام كافة الاتفاقيات الدولية في هذا الخصوص، وأن الفريق مهيّأ للبدء في إجراء الاختبارات في أقرب فرصة. تأكدتُ أيضاً بأن المشروع يحملُ الرسالة التي أريدُ إيصالها، وهي: لا مستحيل أمام دولة الإمارات، ولا قوّة يمكن أن تقفَ أمام إرادة شعبها.



أعلنتُ المشروعَ عبر وسائل التواصل الاجتماعي لأكثر من 15 مليون متابع: نريد إرسال أربعة إماراتيين للفضاء؛ نعم إرسال روّاد فضاء من دولة الإمارات إلى الفضاء الخارجي، لنستكمل بذلك أكبرَ مشروعٍ عربيٍّ وإسلاميٍّ من نوعه، بحيث يشكِّل مع بقية المشاريع منظومةً فضاءٍ إماراتية متكاملة: رحلة للمريخ، وروّاد فضاء إماراتيون، وأول مدينة على الأرض تحاكي الظروف المناخية على الكوكب الأحمر، وأول مجمع عربي لتصنيع الأقمار الصناعية بالكامل، ومركز للفضاء، ووكالة اتحادية لتنظيم لقطاع. مشروعٌ يبعثُ على الفخر والسعادة.

بعد الإطلاق مباشرة، تابعتُ بعض ردود الأفعال، وخاصة من الشباب، عبر وسائل التواصل الاجتماعي. كانت المشاعر في أوجها فخراً واعتزازاً كانت مفاجأةً مفرحةً للجميع مع احتفالاتنا باليوم الوطني. وكنتُ أقرأُ تعليقات الشباب الحماسية، وأقول: محطة جديدة بلغناها، وقمة جديدة ارتقيناها، ولن نتوقّف.

كان صباحاً جميلاً على وطني الإمارات، وصلنا فيه إلى مرحلة جديدة من التنمية، ونتطلع للوصول إلى مراحل أعظم وأكبر. لا أدري ما الذي دفعني يومها للتّفكير في البدايات المتواضعة والجميلة أيضاً.

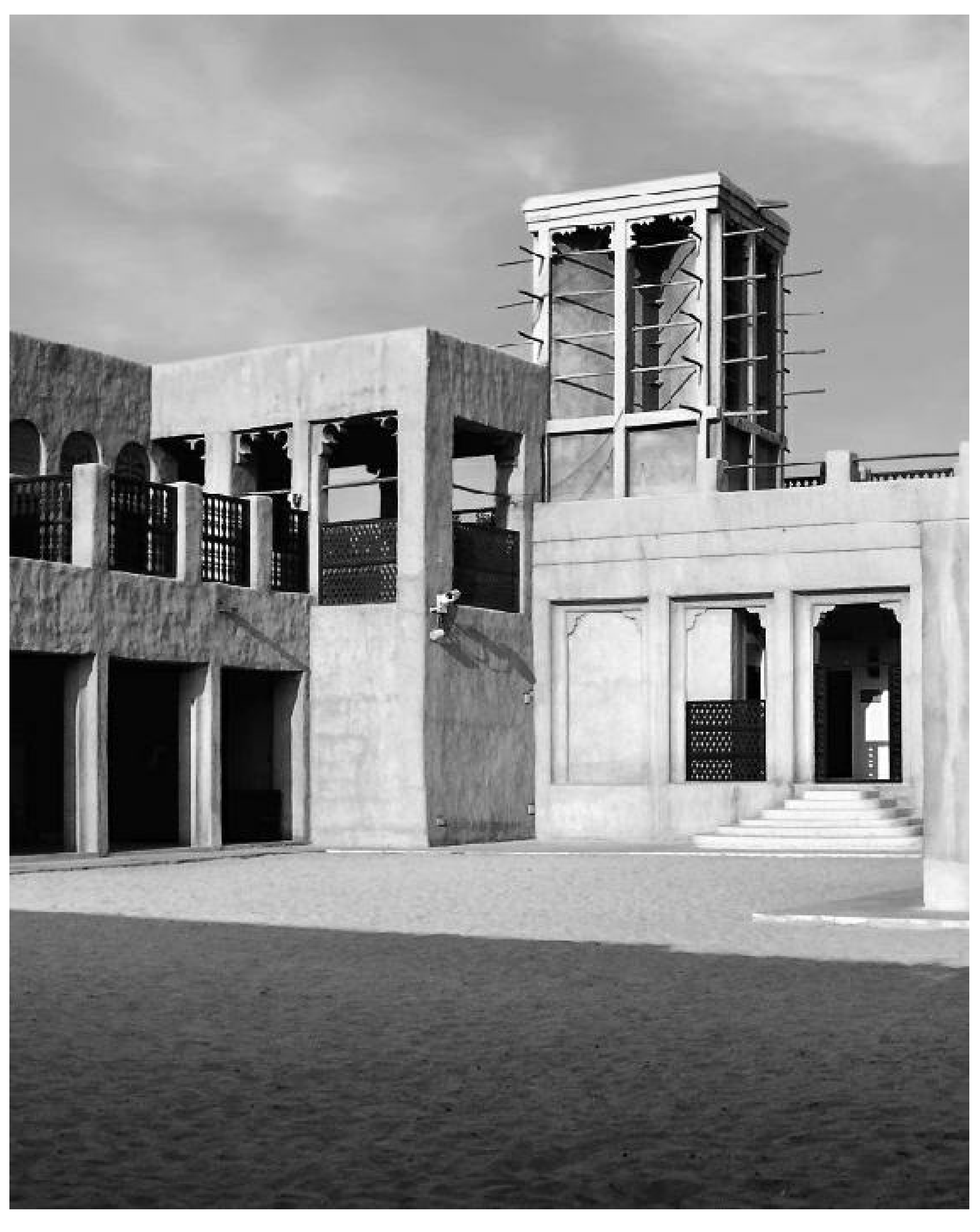
بيت جدّي الشيخ سعيد في الشندغة، الجدران الطينية التي تتخلّلها الحجارة المرجانية للسماح لنسمات الهواء بأن تمرّ الغرف ذات السقوف المنخفضة، الساحة التي كنتُ ألعبُ فيها أمام البيت، غرفة أبي وأمي، وغرف إخوتي وأخواتي، جدّي.. نعم، تذكّرتُ جدّي الشيخ سعيد بلحيته البيضاء ووجهه المتلألئ نوراً.

إن ما يقود الشعوب نحو التطور ليس الوفرة المادية بل الطموح، الطموح العظيم. نحن بشر، يحرِّكنا الإلهامُ والطموحُ أكثر من أي شيء آخر

“



حفل إطلاق رحلة الإمارات لاستكشاف المريخ | عام 2015



بيت الشيخ سعيد بن مكتوم آل مكتوم في منطقة الشندغة

تذكّرتُ جدّي وطيبته وإيمانه الكبير. جال في نفسي أن جدّي عمل من أجل هذه اللحظة أيضاً، وشارك معنا في صناعتها. وسّع آفاق التجارة في دبي، وفتح الأبواب للجميع، وأدخل الكهرباء، وتضاعف عدد السكان في عهده ثلاث مرات.

غير أن أعظم إنجازاته كانت سيرته وعلاقته مع شعبه. كان يحبّهم ويحبّونه. يروون عنه أنه كان يقوم قبل صلاة الفجر، يذهب إلى بئر بعيدة، يملأ دلواً كبيراً بالماء، ويأتي به للمسجد، ليتوضأ المصلون لصلاة الفجر. أي إنسان كنت يا جدّي! أي قوّة وأي طيبة ورحمة!

لم يحكم جدّي بالخوف، بل بالمحبة والرحمة. ربما لذلك تذكرتُه يومها. الرحمة والمحبة لا ينساهما الإنسان، ولا تمحوهما الأيام.

أذكرُ يوم وفاته. كنتُ في التاسعة تقريباً. أسلم الروحَ بعد صلاة الفجر بقليل. كان والدي بجانبه. أذكرُ انتحابَ النساء، وبكاءَ رجال لم أحسب أنهم يبكون. أذكرُ تنكيسَ الأعلام، وأذكرُ جموعاً غفيرةً ودّعته إلى مثواه الأخير. أذكرُ الصورة التي انطبعت في ذهني عنه، قبل صلاة الفجر، بمائه وطهوره، عند المسجد ينتظر أبناء شعبه. علّمتنا خدمةَ الناس يا أبا راشد. رحمك الله، وجعل الفردوس مثواك.

02
زيارة إلى ملك الملوك



حفل مرور 2500 عام على تأسيس الإمبراطورية الفارسية | عام 1971

بعد تولّي والدي الشيخ راشد مقاليد الحكم في دبي، بدأتُ معه أولى زياراتي الخارجية، حيث رافقته في زيارة إلى محمد رضا بهلوي شاه إيران، أو كما سمّى نفسه لاحقاً الإمبراطور، أو ملك الملوك (شاهنشاه)، وعرشه هو عرش الطاووس.

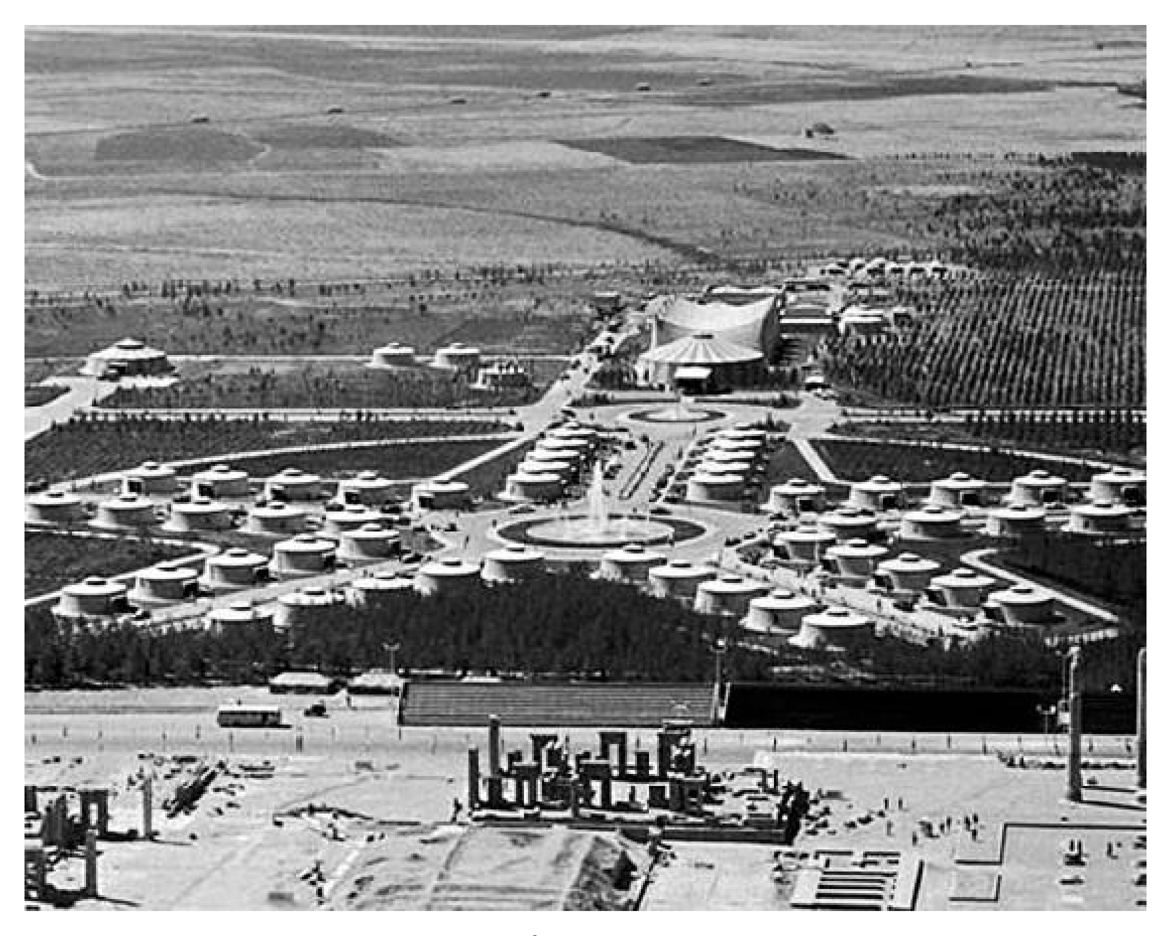
كنتُ في الحادية عشرة من عمري. لم أستوعب كثيراً هذه العظمة أو الهالة التي يفرضها الملوك على أنفسهم ليميِّزوا أنفسهم عن الرعيّة، وليغرسوا في شعوبهم الوهم بأنهم طبقة مصطفاة، ودماؤهم منتقاة، فابتعدوا عن شعوبهم حتى أبعدتهم.

لم أستوعب ذلك إلا عندما حضرتُ في عام 1971 الحفلَ الذي أقامه ملك الملوك نفسه للاحتفال بمرور 2500 عام على تأسيس الإمبراطورية الفارسية. 100 مليون دولار تقريباً – وهو مبلغٌ ضخمٌ جداً في ذلك الوقت – تم إنفاقها على حفلٍ أسطوريٍّ في مدينة برسبوليس الأثرية الإيرانية. دُعي إلى الحفل الرؤساء والملوك من كل بقاع الأرض. غطّت 59 خيمةً أكثر من 160 فداناً، تتوسّطها ثلاث خيمٍ ملكية ضخمةٍ في حديقةٍ لا مثيل لها، تمّ إنشاؤها خصّيصاً للحفل. أعدَّ الطهاة الفرنسيون لنا صدور طواويس، تناولناها في أوانٍ مصنوعة من خزف "ليموج"، وشربنا في كؤوس بلّورية من كريستال "باكارا". آلاف الجنود ارتدوا الأزياء التاريخية الفارسية ليرسّخوا مظاهر الفخامة والأبَّهة الملكية.

استمتعتُ بالحفل، واستمتعتُ بالعروض والتعرُّف على الضيوف.

شكّل لي ذلك الحفلُ الأسطوريُّ في سنّي الصغيرة وقفةً مهمّةً مع نفسي، ودرساً لن أنساه ما حييت. أكبرُ درسٍ هو المقارنة بين طريقة الشاه في الحكم وطريقتنا في دبي والإمارات، على اختلاف حجم البلدين. لقد شاهدتُ في الطريق عشرات القرى الإيرانية الفقيرة والمتواضعة، التي لا توجد فيها حتى الكهرباء، وشاهدتُ هذا البذخ الأسطوري؛ صورتان متناقضتان تجتمعان في المكان ذاته.

شاهدتُ لمحةً عن أسلوب ملك الملوك، وابتعاده الشديد بحياته وقصوره الضخمة عن عموم شعبه. وكنتُ أشاهدُ والدي يبدأ يومه في الصباح الباكر بجولته الصباحية مع الناس ومتابعة المشاريع بنفسه مع العمّال والمهندسين، واستقباله عامّة الناس في مجلسه المفتوح وتناوله غداءه اليومي مع ضيوفه، وقد خصَّص لنفسه مكتباً متواضعاً عند نقطة جمارك خور دبي يطل على رصيف المرفأ كي يتمكن من مشاهدة النشاط في الخارج. وكان متواضعاً جدّاً في سلوكه لدرجة أن الزوار في المكتب كانوا يظنون أنه مجرد موظف، حتى إن مهندسي المشاريع كانوا يسمّونه "الفورمن" (مراقب العمّال) من كثرة تردّده عليهم، ومتابعته اليومية لعملهم وأحوالهم. هناك تناقض صارخ في الحياتين.



الحفل الأسطوري بمناسبة مرور 2500 عام على تأسيس الإمبراطورية الفارسية | عام 1971

"المُلك لله وحده، والعظمة لله وحده؛ هو ملك الملوك وهو الباقي والكلّ فان، ولا يدوم ملكٌ لمتكبِّر، لأن الكبر لله وحده"

بطبيعة الحال، كانت علاقة والدي مع الشاه جيدة، وزاره في مناسبات عديدة. وقد عاد علينا ذلك بنفع كبير؛ لكن المفارقة التي لم تغِب عن فكري بعد الحفل هي أنني لم أكن لأتخيّل أبداً الشيخ راشد يجلسُ على عرش طاووس ويضع تاجاً على رأسه، لأنه أبعد ما يكون عن ذلك، وهو أقرب للفطرة والبساطة، وأقرب للناس. نعم، السرّ في القرب من الناس، هذا هو أكبر درس.

تمنيتُ لو نظر الشاه حوله بقليل من الحكمة؛ ففي آخر عشرين سنة، هوت عروشٌ وأُسقِطت ملكيات عدّة من حوله؛ كنّا نخالها مستقرّة؛ فقد أزاح الجيش المصري الملك فاروق في العام 1952، وتم قتل الملك فيصل في العراق بطريقة فظيعة مع مجموعةٍ من أفراد أسرته في العام 1958، وتم خلع الإمام محمد البدر في اليمن عام 1962. وفي العام 1969 خُلِع الملك إدريس، ملك المملكة الليبية، في انقلاب عسكري قاده معمر القذافي. تغيراتٌ سريعةٌ مرّت بها الشعوب لم ينتبه لها "ملك الملوك"، معتمداً على الدعم البريطاني والأمريكي له وليس على دعم شعبه وتأييد الناس له، لأنه كان بعيداً عنهم، مشغولاً بقصوره ومتابعة أسلوب حياته.

بعد هذا الاحتفال الضخم بثماني سنين فقط، سقط "ملك الملوك" عن عرش الطاووس باضطراباتٍ وتظاهرات في بلده انتهت إلى ثورة ركبها الملالي وسمّوها ثورةً إسلامية. غادر الشاه بلاده، ليحلّ ضيفاً ثقيلاً على بعض الدول فيما رفضت العديد من الدول الأخرى – بما فيها معظم دول أوروبا – استقباله، قبل أن ينتهي به المطاف في مصر.

حتى الدول التي اجتاحتها ثورات أصبح الثوار فيها ملوكاً بأثواب جديدة؛ سمّوها جمهوريات وليست ملكيات، وشيَّدوا لأنفسهم فيها قصوراً عظيمةً، ابتعدوا فيها عن شعوبهم، وجمعوا حول أنفسهم دوائر من

المدّاحين والمعظِّمين لإنجازاتهم. حدّثتُهم في عام 2004؛ قلتُ لهم: جئتم بثوراتٍ لشعوبكم، فأكملوا ثوراتكم في الاقتصاد والبناء والتعمير وتوفير الحياة الكريمة لهم؛ أرجوكم تغيَّروا وإلا فسوف تُغيَّرون، فقد رأيتُ ذلك من قبل، وأعلم سُنَّة الحياة في ذلك. للأسف لم يستمعوا، حتى غرقت دولهم في ثوراتٍ واضطراباتٍ وفوضى لم تؤدِّ إلا إلى المزيد من الخراب. أين دولة الإمارات اليوم وأين هذه الدول؟ وأين زايد وراشد في القلوب وأين "ملك الملوك" وغيره في التاريخ؟

هناك فرق جوهري بين طريقتنا في الحكم وبين هذه الدول؛ اسمه القرب من الناس، والتواضع لهم، وخدمتهم، والعمل من أجل إسعادهم. وهذا هو الفرق بين الازدهار والانهيار.

المُلك لله وحده، والعظمة لله وحده؛ هو ملك الملوك وهو الباقي والكلّ فان، ولا يدوم ملكٌ لمتكبّرٍ، لأن الكبر لله وحده. وكما قال الشاعر:

أين الملوكُ ذوو التيجان من يمنٍ
وأين منهــم أكاليـــــلٌ وتيجـــــانُ؟

وأين ما شاده شدَّادُ في إرمٍ
وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ؟

وأين ما حازه قارون من ذهبٍ
وأين عـــــادٌ وشـــدادٌ وقحطان؟

يقال إنّ ملوك الأرض أربعة؛ النمرود، وبختنصر، وذو القرنين، وسليمان عليه السلام وهو أعظمهم ملكاً على الإنس والجان.

ويُحكى أن رجلاً اعترض موكب ملكٍ ليكلِّمه، فمنعه الحراس. فصاح به: أيها الملك! إن نبيَّ الله سليمان استوقفته نملةٌ، فوقف ليكلمها؛ فما أنا عند الله بأحقر من نملة، وما أنت عند الله بأعز من سليمان. فقفز الملك من على حصانه وذهب إليه وكلمه.

03

النــوم مـع العقــارب

كنتُ في السابعة أو الثامنة من عمري عندما بدأ والدي يأخذني لأحد شيوخ المناصير في الصحراء، واسمه حميد بن عمهي، لأتعلَّم منه الصيد. وحميد لم يكن يسكن قرب الماء مثل بقية البدو، بل كان بعيداً في الصحراء؛ مع زوجته وإبله وصقره وكلبٍ للصيد ومضارب خيم. ما زلتُ أذكر زوجته وقوّتها في حمل الحطب وحلب النوق وذبح الغنم وطبخها لوحدها، بالإضافة إلى مهاراتها في الصيد بالصقور والكلاب. ما زلتُ أذكرُ وجبتها التي كانت تعدُّها عندما لا يكون هناك صيد؛ وهي عبارة عن خبز بدو غليظ أو "قرص"، مطبوخاً تحت الفحم والرماد، ومطحوناً بـ"الرشاد" بعد تنظيفه، ومضافاً إليه الدهن والعسل، حيث كنّا نشرب معها حليب النوق. كانت وجبةً فاخرةً في برد الصحراء.

كان أبي يتركني مع حميد بالأيام. تعلّمتُ منه الصيد بالصقور والكلاب، وحركة الحيوانات وعاداتها وخدعها الكثيرة للاختفاء، وكيف يصيدُ المفترسُ منها، وكيف يُصاد الضعيف فيها. فمثلاً، لا جدوى من محاولة صيد الأرنب عندما يرعى، لأنه يكون سريعاً، وإنما في أول النهار أو في آخره عندما تأوي الأرانب إلى بيوتها. وتحفر الأرانب في الصيف لنفسها جحوراً عميقة؛ أما في الشتاء، وهو موسم الصيد، فإنها تدفن نفسها بين الشجيرات وسط الرمل. وأفضل طريقة لصيدها هي تعقُّب حركتها حتى بيوتها، لكنها تتغلّب على ذلك بالقفز بخفّةٍ شديدة نحو أماكن نومها، كي لا تترك آثاراً، لأنها تعرف أنها ستدلُّ أعداءها عليها؛ كأن أقدامها قطعٌ من القطن الخفيف على الرمل، ولا يرى تلك الآثار إلا الخبير بها وبعاداتها وبالصحراء وحركة الرمال فيها.



تعلّمتُ من حميد الكثيرَ عن الصقر وعاداته، وكلب الصيد وطبائعه. يمكنك أن تدرِّب كلباً لصيد الغزلان البرية، وتدرِّبه في الوقت نفسه على التأقلم والتكيُّف مع الغزال الذي تربيه في بيتك. كذلك، يمكنك أن تدرِّب غزالاً على التأقلم مع الرعي مع الأغنام والتكيف مع كلب الصيد الخاص بك.

كثيرون، مثلاً، لا يعرفون لماذا يضع البدويُّ الصقر على يده ويرفعه دائماً عند مستوى نظره؛ لأن الصقر يحسُّ بالخطر إذا كان على علُوٍّ أقل من الذي بجانبه. عدوّ الصقر هو النسر، ودائماً يحذر ممَّن علا ارتفاعه عنه، وقد يهاجمه.

بعد يوم مليء بالصيد ودروسه، كنّا نجتمع حول النار للعشاء والحديث الذي لا يُمل. ذكريات ما زالت محفورةً في ذاكرتي بجمالها وشغفها، وحتى بآلامها. نعم آلامها؛ لا يعادلُ دفءَ الفراش في الصحراء الباردة بالليل أي شيء. لكنني كنتُ أستيقظ عدة مرات على لدغات عقارب صغيرة، يبدو أنها كانت تبحث عن الدفء أيضاً في فراشي. أقوم متألماً بشدة. يأخذني حميد إلى النار، ويضع الرماد على أماكن اللدغات لينحسر السمُّ ويسهل امتصاصه. كانت حرارة الرماد تخفِّف ألم اللدغات، حتى إذا برد الرماد عاودتني الآلام. ولك أن تتخيّل أنني كنتُ أقوم من نومي ثلاث أو أربع مرات، متألماً من لدغاتها الشديدة. وكنتُ أستغربُ أنني الوحيد الذي تلدغه العقارب!

> ليس كل ما يؤلمك هو شر.. أحياناً فيه الخير، وفيه الحماية لك

نعم الوحيد، وذلك لسببين؛ الأول لأنني لم أستمع للنُّصح بالتحقق من الفراش قبل النوم في الصحراء وما يضمّه، والثاني لأن حميد كان يجمع ما بين 10 إلى 12 من صغار العقارب ويضعها في فراشي متعمداً!

أدركتُ ذلك متأخراً. كان حميد يريد أن يبني مناعتي ضد لدغات عقارب الصحراء المميتة عن طريق هذه الجرعات من العقارب الصغيرة ولدغاتها. ولليوم، لا تزال لدي مناعة ضد سم العقارب.

نعم، ليس كلُّ ما يؤلمك هو شرّ؛ أحياناً فيه الخير، وفيه الحماية لك.

قبل سنوات قليلة، كنتُ أطارد عقرباً كبيرة في الصحراء، حتى دخلت بين بعض الشجيرات الصغيرة والتفّت على نفسها. لم أكن حريصاً لألتفت وأنا أرجع بخطواتي للوراء، فلدغتني بكلّ قوَّتها. عصبتُ ساقي، ووضعتُ بعض الرماد والماء الساخن عليها، ونجوتُ منها بفضل مناعتي وحكمة حميد ورحمة الله بي.

> لا أحبُّ الوشاة والنمامين.. يفسدون قلبك، ويوغرون صدرك على الناس، ويحطِّمون المعنويات في المؤسسات، ويركِّزون فقط على السلبيات، ولا يذكرون خير الناس ولا الحسنات

عقاربُ الصحراء أهون من عقارب البشر. بالمناسبة، عقارب الصحراء تبحث في الليل عن الدفء فقط ولا تلدغ، بل تغادر الفراش مع انحسار برد الليل. لا تلدغ العقارب إلا إذا أحسَّت بالخطر.

ولكن هناك عقارب من البشر تحبُّ أن تلدغ وتؤذي. تقول العرب: "كَثُرتِ العقاربُ بينهم"، أي النّمائم والوشايات. نعم، النمائم والوشايات تؤذي النفوس، وتدمِّر العلاقات، وتخرِّب روح الفريق. لا أحبُّ الوشاة والنمامين؛ يفسدون قلبك، ويوغرون صدرك على الناس، ويحطِّمون المعنويات في المؤسسات، ويقلِّلون من حجم الإنجازات، ويركِّزون فقط على السلبيات، ولا يذكرون خير الناس ولا الحسنات، هم أصحاب وجهين؛ لا يدفعهم للنميمة إلا الحسد.

تقول العرب: "السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة".

خاطب أحد الملوك أحدَ جلسائه المخلصين: بلغني عنك كذا وكذا. قال: والله ما فعلتُ ولا قلت. قال الملك: الذي جاءني بالخبر لا يكذب. فردَّ عليه: لا يكون النَّمامُ صادقاً أيها الملك. قال صدقت.

يقول الشاعر:

من قال في الناسِ قالوا فيه ما فيه
وحسْـــــبُهُ ذاك من خِزْيٍ ويكفـــيه

من نمَّ في الناسِ لم تُؤمَنْ عقاربُهُ
عن الصديقِ ولم تُؤمَنْ أفاعـــيهِ

كالسَّيْل يجري ولا يَدْري به أحدٌ
من أيـــن ولا من أيـــنَ يأتـــــيهِ

وأقول: أحياناً النوم مع العقارب أسهل من الحياة معها!

رحمك الله يا حميد!

04

علّمني والدي عندما كنتُ ص يراً



الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم

راشد بن سعيد، معلّمي الأول. كان فارع الطول؛ ترتسم التجاعيد على ملامحه لكثرة التبسُّم، أما الخطوط المحيطة بعينيه فأضفت هيبةً وجدِّيةً على وجهه. كان صوته هادئاً ودافئاً وقريباً من النفس. وعلى الرغم من ذلك، كان الصمتُ يخيّمُ على الجميع عندما يبدأ الكلام.

من اللحظات الأولى التي لا أنساها معه عندما كان يردفني معه على خيله. كنتُ في الثالثة من عمري تقريباً؛ يردفني معه على خيله في جولاته الصباحية.

أبي والخيل ودبي، هي ذكرياتي الأولى عن طفولتي؛ أبي والخيل ودبي، هي ذاكرتي التي ستبقى معي حتى النهاية.

الخيل تجمع العزَّة والأنفة والرقة والقوة في نفس الوقت؛ وكذلك أبي، وكذلك دبي.

أرسلني للمدرسة لأتعلَّم القراءة والكتابة واللغة والعلوم، وأخذني معه في مجالسه وجولاته ورحلاته لأتعلَّم الحياة.

ما بين الرابعة والثامنة من عمري، علَّمني أبي الكثير عن الصحراء، وكيف يمكن أن تعيش حياةً كاملة فيها، رغم ما يظهر عليها من قسوة المظهر وقلة الموارد واتساع قد يخيفُ الكثير من الناس.

بين الرابعة والثامنة، علّمني والدي كيفية تعقُّب الأثر أو قراءة الرمال كما لو أنك تتصفّح كتاباً. كان يُريني آثار الإبل، ويقول: كلّ بدوي يمكنه تمييز إبله من آثار أقدامها، ولو كان عددها بالمئات!

عرّفني عندما كنتُ صغيراً على آثار الغزلان، والحبارى، وطيور الكروان، والعقارب، والأفاعي، والذئاب، والثعالب، وكلّ حيوان يسكن الصحراء، كان يقول: لا يمكن أن تفهم حيواناً دون فهم البيئة التي يعيش فيها بالكامل، وموقعه فيها. وكذلك الإنسان، قد تجعله البيئة التي يعيش فيها ملاكاً أو شيطاناً. لا بدَّ أن تعرف البيئة التي نشأ فيها.

عندما أراد تعليمي ترويض الصقور، بدأ بما يتناوله الصقر من طعامٍ، كالحمام والجرابيع؛ وبالحيوانات التي تهدّده، كالذئاب والنسور؛ وبالأمراض التي تفتك به أيضاً. كي تتعرّف على حيوان معين، ينبغي أن تحيط بكل تفاصيله؛ كيفيّة صيده، وسلوكه، وما يحبّ، وما يكره.

كنا نقضي الليالي في الصحراء. كنا نشعل النار في المساء. وخلال الليل كان يصحبني لمشاهدة ما يدور حولنا؛ هناك عالم تدبُّ فيه الحياة ونحن نيام.

فترة الصباح هي الأجمل، إذ يمكنك أن ترى الموقع الذي تسلّلت منه

العقارب إلى فِراشك بخطواتها البطيئة. وقد تستيقظ الكلاب خلال الليل فور أن تسمع سليلَ غزالٍ أو تشتمّ رائحته، وتنطلق لاصطياده من دون إيقاظك! ومن شأنِ تعقُّب المواقع التي وصلت إليها الكلاب، والمسافة التي قطعتها، والوثبات التي قفزتها للإمساك بفريستها، أن يحدِّد ما إذا كنتَ ستصطاد في اليوم التالي أم لا.

علَّمني والدي عندما كنتُ صغيراً ردّ فعل الحيوانات عندما ترانا أو ترى بعضها بعضاً؛ على سبيل المثال، تطير الحبارى باتجاه أشعة الشمس لتُعمي الصياد، أما الأرنب فيبحث عن مخبأ، بينما يستغلّ الغزالُ المساحةَ المفتوحةَ لرؤية مهاجِمه. أما قيام الحيوان بالقفز رافعاً قدميه الأماميتين بعد العدْو فينبئ بحركة افتراسية، كأنه بمثابة تحذير.



لا بدَّ من تكتيك وخطة للحصول على الطعام في الصحراء. كان والدي يقول: عندما تمضي الليلة وأنت جائع، ستتعلَّم دروسك بتركيزٍ أكبر في صباح اليوم التالي.

تعلَّمتُ من والدي الرماية وإفراغ البندقية وتنظيفها قبل الثامنة من عمري. تعلّمتُ منه أنّ تركَ السلاح من دون مرافق جريمةٌ كبرى، لأنه قد يقع بين يدَيْ شخص آخر ويودي بحياته.

تعلَّمتُ كيفيّة سلْخ جِلْد الفريسة التي نصطادها، وكيفيّة طبخ لحمها أيضاً، والأهم من ذلك كيفيّة تقطيع اللحم إلى شرائح رفيعة وتجفيفه تحت الشمس للاحتفاظ به لفترات طويلة.

كنّا نذهب إلى الصيد ومعنا أدوات صغيرة فقط، ونصطاد معظم ما نحتاجه من طعام. اهتمّ والدي كثيراً بقدرتي على الملاحظة، وكان يختبرني مرّاتٍ عدّة إلى درجة أنني اعتدتُ الاستيقاظ من النوم لأتبيَّن موقعي وأجيبه في حال سألني عن ذلك. وأثناء وجودنا في السيارة كان يطلب مني وصف التضاريس، ثم يستمع إليّ ويصحّح ما أقوله مقدِّماً معلوماتٍ أكثر دقّة. وأثناء حديثه مع أصدقائه أو اجتياز السيارة الطريق الوعرة ليلاً، كان يلتفتُ وينظر إليَّ بحزم ليسألني في أيّ اتجاه نسير؛ شمالاً أم جنوباً، شرقاً أم غرباً.

اهتمّ والدي بتعريفي على تضاريس الأرض وعلاماتها، بالإضافة إلى علامات السماء؛ النجوم. النجوم هي بوصلة الصحراء. وفي الليالي الغائمة نستعين بالرياح وجهة شروق الشمس. كان يقول: الضياع في الصحراء أمر سهل جداً، ويعتمد الفريق دائماً على القائد ليحدّد الطريق.

”

أبي والخيل ودبي، هي ذكرياتي الأولى عن طفولتي. الخيل تجمع العزَّة والأنفة والرقة والقوة في نفس الوقت؛ وكذلك أبي، وكذلك



كانت هذه الغريزة تتأصّلُ في داخلي كل يوم، لتغدو عمليةً طبيعيةً وتلقائية؛ وقد تعلَّمتُ أن عليَّ البحثَ عن آثار أقدام الجِمال، أو حتى عن مخلّفاتها، في حال الضياع. من المدهش أن خُطى الحيوانات خلال سيرها في الصحراء أكثر ثباتاً من خُطانا نحن البشر. أحياناً، اتباع خُطى حيوان قد ينقذ حياتك وحياة من معك. الغرور والتكبُّر لا يصلح لمن يعيش في الصحراء.

وقد حدث أن ضعتُ أنا وإخوتي الكبار وأصدقاؤهم خلال رحلات الصيد، أو تعطّلت سيارتنا. أتذكّر المرات العديدة التي مشينا فيها فتراتٍ طويلة دون طعام أو شراب، وكان أخوايَ الأكبر مني، الشيخ مكتوم والشيخ حمدان، يثقان بي ثقةً عمياء عند السير بين الكثبان الرملية، لأنهما يعرفان ما تعلّمتُه من والدي.

قبل الثامنة، علَّمني والدي كيف أعيش في الصحراء مع هوامها ودوابها؛ مع ذئابها وغزلانها؛ مع بردها وحرِّها وتقلُّباتها. بعد الثامنة، علَّمني والدي كيف أعيش في المدينة، مع البشر.

ما أقسى البشر، وما أجمل الصحراء.

05
لطيفة 1

لطيفة في اللغة هي المرأة الناعمة، الرقيقة، الرفيقة، النادرة..
لطيفة في الاصطلاح هي المقولة التي تشرح الصدر..
لطيفة في الحياة هي أمّي وقلبي الذي في صدري، وأجمل وأنعم وأرقُّ وأرفق إنسانة في حياتي.
اسمها: لطيفة بنت حمدان بن زايد آل نهيان.
نسبها: ابنة حاكم أبوظبي من 1912 إلى 1922.
وظيفتها: رفيقة درب راشد بن سعيد آل مكتوم، حاكم دبي، على مدى أكثر من أربعة عقود. بعد وفاتها، تغير راشد بن سعيد، ولم يعُد كما كان حتى وفاته.



مع أخوَيْ الشيخ مكتوم والشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم

كلّ ابن يمكن أن يتحدّث عن السلام والسكينة في وجه أمه، لكن أمي ليست ككل الأمهات. كانت كلُّها سلاماً وسكينة.

بعد زواجها من الشيخ راشد بعام، أنجبت ابنتها الأولى الشيخة مريم، وبعد ثلاثة أعوام أنجبت الشيخ مكتوم بن راشد، وريث الحكم، وسميْ جدّنا الأكبر الذي حكم دبي مطلع القرن العشرين. كان لمقدم الشيخ مكتوم حفاوة كبيرة. بعده ببضع سنوات، رُزقت العائلة بابنها الثاني حمدان بن راشد، سميْ والدها حمدان بن زايد حاكم أبوظبي السابق. عاشت والدتي سنوات جميلة. رُزقت بابن آخر أيضاً أسمته مروان. توفي مروان بشكل مأساوي وهو صغير. لم يتحمّل قلبُ والدتي الرقيقة الرفيقة اللطيفة فقْدَ مروان. بقيت حزينةً جداً لوفاته عدة سنوات. يُقال بعدها إنها حلمت بأنها تنجب ابناً جديداً تسميه محمد. فرح والدي بالحلم وتفسيره، لأنه يجبّر قلبَ رفيقة دربه لطيفة. تحققّت الرؤيا، وأنجبت ولداً سمَّته محمد بن راشد آل مكتوم.

كانت محبّتها عظيمة لجميع أبنائها، لكنني كنتُ الأقرب إليها. لم أرَ حباً كحبّها، ولا قلباً كقلبها، ولا قرباً كقربها. عشتُ سنواتي الأولى في كنفها وكنف والدي. كان والدي يجلسني بعمر سنتين وثلاث أمامه على حصانه، ويأخذني معه أينما ذهب.

كنتُ أحبُّ الاستيقاظ مبكراً. كنتُ أصحو قبل جميع من في المنزل لأجد الشيخة لطيفة مستيقظةً قبلي، تعدُّ لنا الفطور رغم وجود من يخدمها في البيت. لا أزال أذكرُ رائحة خبز أمي، وأذكرُ حديثها معي في الصباحات الباكرة. كنتُ أستمتعُ بالحديث معها عن العلاجات الطبية بالأعشاب. كانت معروفةً بمهاراتها الطبّية. وكان الناس يجتازون مسافات بعيدة مع أطفالهم أو أقربائهم لتصفَ لهم أدويةً ومراهم من خلطات الأعشاب.

كلُّ ابن يمكن أن يتحدّث عن السلام والسكينة
في وجه أمه، لكن أمي ليست ككل الأمهات.
كانت كلُّها سلاماً وسكينة

كانت والدتي قادرةً على إطلاق النار أفضل من كثير من الرجال، وكان بإمكانها التحكّم بالحصان أو الجمل، كأنها وُلدت على سرج. كان لها مجلسها مع النساء، ولم تكن تتردّد في نقل كل همومهن للشيخ راشد. كانت شخصيتها قويةً ومحبوبةً في الوقت نفسه. كلُّ من عرفها أحبَّها.

كانت تعدُّ فطوري كل يوم قبل ذهابي للمدرسة. في الطريق كنتُ أقسمه نصفين؛ لي النصف ولمهرة كنت أحبُّها النصف الآخر. كنتُ صغيراً، وظننتُ أن خُبز الطحين مع البيض مفيدٌ للخيل. لاحظت أمي أن غدائي بعد عودتي من المدرسة لم يكن يكفيني من شدة الجوع. علمَت أن فطوري كان يُقسَم على اثنين، فزادته لي من الغد ضعفين. اعتقدتُ أن هذا الأمر صدفةً سعيدة، حتى أدركتُ بعد أن كبرتُ أنها كانت تراقبني، وتعرف أن الفطور لا يكفيني.



في مطلع الستينات

هكذا هي الأم؛ لا تشبع حتى ترانا نأكل، ولا ترتاح إلا بعد أن ننام، ولا تفرح إلا إذا زالت عنا الأحزان.

مهـــــما اللـــيالي تــــــدور

حبّــك ترا في الصــدور

إنــــــتِ يا بــــــــدر البــــــدور
لك كل حــــــبّ وشــــــعور

يتبع...

06

لطيفة 2



في صباي

يقول نزار قباني في رثاء شريكة حياته بلقيس:

بلقيسُ..
كانت أجملَ الملكاتِ في تاريخ بابِلْ

بلقيسُ..
كانت أطولَ النّخْلاتِ في أرضِ العراقْ
كانت إذا تَمشي..
ترافقُها طواويسُ..
وتتبعُها أيائِلْ

ذكّرتني هذه الأبيات بأمي الشيخة لطيفة. كنتُ أراها وأنا صغير. أذكرُها تمشي وخلفها مجموعة من الغزلان التي اعتنت بها منذ صغرها، ترافقها وتتابعها أينما ذهبت. كانت أمي أميرةً وجميلة. كانت أمي أجمل الملكات. كانت أمي أطول النخلات. كانت إذا تمشي يرافقها غزال، وتتبعها عناية الرحمن.

أول هديّة أهديتُها لأمي كنتُ في حوالي السابعة. كنتُ في رحلة عند حميد بن عمهي؛ يعلِّمني فنونَ الصيد ومهارات البقاء في الصحراء. في إحدى المرات، رأيتُ غزالاً صغيراً رضيعاً كانت أمّه قد ولدته قبل قليل وانفصلت عنه. في العادة، تنفصل أنثى الغزال عن القطيع لتضع وليدها. لكنها تُصاب أحياناً بالهلع حين تودُّ العودة إلى القطيع، فتتركه يتيماً. كنتُ مع زوجة حميد نرقبه. ذهبتُ إليه واحتضنتُه، وانتظرنا عودة أمّه إليه. لم تعُد الأم. انتظرنا حتى اقترب المغيب. لم تعُد الأم. بقيتُ محتضناً الغزال، وعرفتُ من سيعوِّضه عن فَقْدِ أمّه، إنها أمي. أمي تحبُّ الغزلان. أمي أعطتني الحياة، وستعطيه.

”
أمي.. ابتسامتها كانت حياة.. كانت أجمل ما في الحياة
“

جاء والدي مع مجموعة من الرجال، وبعد أن أعطى حميد الهدايا التي أعدّتها أمي لعائلته، أخذني والغزال في حضني. أخبرتُ الرجال بقصته، وأخبرتُهم أنه هدية.

وصلتُ البيت بعد طول انقطاع عن أمي. وبعد السلام والأحضان، أعطيتُها الغزال. فرحت به كثيراً. كان فرحي أكبر. عندما تعطي هديةً غير متوقَّعة لمن تحبّ فيفرح بها تكون فرحتك أكبر. ابتسامتها كانت حياة؛ كانت أجمل ما في الحياة.

من يشبهك يا أمي؟ من مثل أمي؟
هناك مواقف كثيرة لا أنساها مع أمي..

ما زلتُ أذكر وأنا جالسٌ في حضنها، تحدِّثُني عن أول رحلة لي إلى لندن؛ تحدِّثني عن بلاد غريبة ومغامرة تنتظرني للسفر إلى هناك، في بطن طائر كبير سيقطع بي محيطاً يمتدُّ على مدى النظر. كنتُ أنظر إليها بدهشة وهي تخبرني بأننا سننام في مبنى شاهق، لأن الجوّ في تلك البلاد يناسب النوم في الداخل، وليس كما نفعل في دبي، عندما ننام على السطح في فصل الصيف.

أوّلُ دهشة لا يمكن أن تنساها. أوّلُ معلومة لا يمكن أن تنساها. لحظات التعرُّف على أشياء جديدة لا تُنسى. لحظات حديث أمي الجميل لا أنساها أيضاً.

لا أنسى أنني لم أنم في الليلة التي أخبرتني أمي فيها بأنني سأذهبُ إلى لندن. كان ذلك في العام 1959، بعد تولي والدي الحكم بعام تقريباً.

اشترت لي أمي كندورتين جديدتين، وسترةً أنيقةً من أجل السفر. كنتُ سعيداً. أصبح لدي أربع كنادير. اقترحتُ على أمي أن نقصَّ الكندورتين القديمتين لأستخدمهما عند ركوب الخيل والإبل. قصَّتهما لي وهي مسرورة. كانت تفرحُ بكلِّ شيء يفرحني.

من مثلك يا أمي؟ من يشبهك يا أمي؟

يتبع...

07

لطيفة 3



في جنازة والدتي الشيخة لطيفة بنت حمدان آل نهيان | عام 1983

أمي، لطيفة بنت حمدان، كنتُ أحبُّها، وكانت تحبُّني. وأزعم مثل أيّ طفل أنني كنتُ الأحبَّ إليها. ومن عظمة الأم أن كلَّ طفل يحسُّ بأنه الأقرب إليها. عندما كبرتُ، كنتُ حريصاً على إسعادها. كنتُ حريصاً مع كل سَفرة على إهدائها ما تحبّ. كان فرحُها يسعدني، وابتسامتُها تصنع يومي، وحديثُها أكثر ما يؤنسني في هذه الحياة.

من لم يذُق حُبَّ الأم وحنانَها لم يذُق طعمَ الحياة. الأم تعبُها يؤلمنا، وحزنُها يكسرنا، ومرضُها يرهقنا. نخاف عليها من نسمة الهواء؛ فكيف إذا فقدناها؟ كيف إذا رحلت وتركتنا؟ ألمٌ رهيب، وفراغٌ عظيم، وإحساسٌ باليتم وأنت كبير؛ هذا ما تشعر به عندما تفقدها.

في مايو من عام 1983، فقدتُ أمي. فقدتُ حبيبة قلبي. فقدتُ نظر عيني، وفقد أبي شريكةَ حياته، وسندَه وحبَّه وصديقتَه ورفيقتَه وحبيبتَه بعد أكثر من أربعين عاماً معها. فقد أبي أمي التي كانت ترفض أن يُعدَّ فطورَه أحدٌ غيرها. كان يتفقّد المشاريع بعد الفجر، ثم يعود ليفطر مع أمي ويحدِّثها. من سيعدُّ فطورَه؟ من سيحدِّثه بعدها؟

كان أبي قد استعاد صحّته وعافيته للتوّ بعد مرض ألم به؛ فجاءت هذه الصدمة لتعصف به من جديد، وهو القويُّ الراسخ الوقور، الجبل الذي لم يكن يتزعزع أمامنا. عصف به فقدُ لطيفة فلم تعُد حياته كما كانت.

كنتُ خائفاً جداً على والدي عند رحيلها. لم نكن نتركه دقيقةً واحدة خوفاً عليه أثناء تلك الصدمة التي تلقّتها دبي، وتلقّاها شعب دبي الذين أحبّوا بصدق أم دبي، الشيخة لطيفة بنت حمدان. كانت تعالج مريضهم، وتداوي صغيرهم، وتواسي فقيرهم، وتسمع لنسائهم، وتشاركهم أفراحهم وأترحاهم. كنتُ أراها عندما تشرف على إعداد الطعام تأبى إلا أن تشارك الجيرانَ والأقاربَ والضيوفَ طعامَنا.

من مثل أمي؟ من مثل لطيفة؟

ما زلتُ أذكرها وهي تبحثُ عني ليلاً إذا تأخرت، لتجدني أغطُّ في نومي عند خيلي في الإسطبل. ما زلتُ أذكرُ علاجها واهتمامها بأول فرس لي، "أم حلَج". ما زلتُ أذكر هوايتنا التي كنا نشترك فيها معاً، ونتحدّث فيها بالساعات؛ العلاج بالأعشاب. ما زلتُ أذكرُ استيقاظي في الصباح الباكر قبل إخوتي، وقبل جميع من في المنزل، لأذهب وأجلس معها وهي تُعدُّ الفطور، وأحدِّثها وتحدثني. ما زلتُ أذكر دفاترَ صغيرةً كانت تعطيها لي وأنا صغير، لأدوّن فيها الكثير عن الخيل والصحراء والحيوانات. ما زلتُ أذكرُ

عطرَها. ما زلتُ أشمُّ بخورَها. ما زلتُ أعشقُ خبزَها.

من مثل أمي؟ من مثل لطيفة؟

ما زلتُ أذكرُ آخر لقاء لي معها قبل سفرها إلى إنجلترا للعلاج. قبّلتُها؛ لثمتُها؛ ضممتُها؛ احتضنتُ يدَها. نظرت إليَّ وقالت: من مثلك؟ أبدت إعجابَها بأناقتي، ثم أبدت إعجابَها بساعة يدي، ثم رحلت. بعد سفرها، فكّرتُ في هديّتي لها بعد عودتها. فكّرتُ كثيراً، ثم قرّرتُ أن أعطيها ساعتي. أحسستُ أنها تريد شيئاً مني معها. سأعطيها ساعتي التي أعجبتها. لكنها لم تعُدْ. أمي لم تعد، وساعتي في يدي لم أخلعها.

كانت جنازتها مهيبة. حضرها الآلاف، وبكى فيها الآلاف على أم دبي؛ الشيخة لطيفة بنت حمدان بن زايد آل نهيان. نزلتُ معها في قبرها. كان أبي وأخي يتابعانني من فوق القبر. سجَّيتُها في مثواها الأخير ودموعي لا تتوقّف، ثم خرجتُ من القبر. عند خروجي سقطت ساعتي بجانبها. انعقد لساني من هول اللحظة. لم أستطع الكلام. نظرتُ إليها، ونظرتُ إلى ساعتي بجوارها؛ وألم فظيع يعتصر قلبي، وصوت ما يهمسُ في داخلي: شيء مني معها.

"الأم تعبُها يؤلمنا، وحزنُها يكسرنا، ومرضُها يرهقنا. فكيف إذا فقدناها؟ كيف إذا رحلت وتركتنا؟"



جنازة والدتي الشيخة لطيفة بنت حمدان آل نهيان | عام 1983

"عندما يرحلون، ينطفئ شيءٌ ما في حياتنا وفي بيوتنا. عندما يرحلون، تتغير ملامح الطرقاتِ والبيوتات والوجوه؛ حتى الطعام يتغيّر طعمُه"

من مثل أمي؟ من مثل لطيفة؟

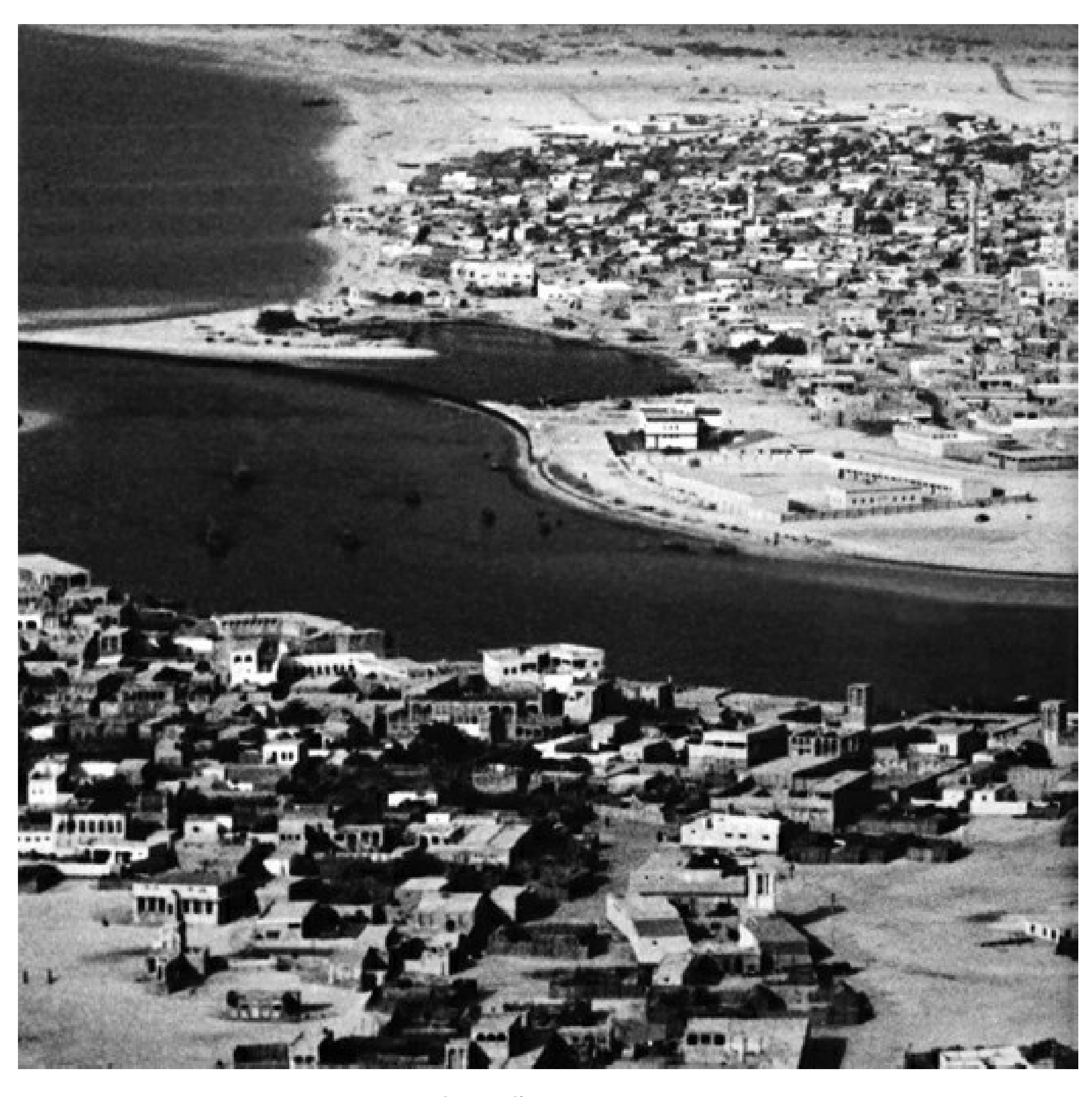
تغير بيتُنا بعد رحيل أمي. تغيرت حياتُنا بعد رحيل الشيخة لطيفة بنت حمدان. عندما يرحلون، ينطفئ شيءٌ ما في حياتنا وفي بيوتنا. عندما يرحلون، تتغيّر ملامحُ الطرقات والبيوتات والوجوه؛ حتى الطعام يتغيّر طعمُه. عندما يرحلون، يرحل شيءٌ منّا معهم، وتبقى ذكراهم لتُقوّينا على مواجهة الحياة من بعدهم.

كان أبي قوياً، نبيلاً، شامخاً بعد وفاتها، صابراً متصبِّراً، رابطاً على نفسه وقلبه. استدعى بعد عدة أيام السيد كمال حمزة، مدير بلدية دبي آنذاك، إلى منزلنا. جاء كمال على عجلٍ واختلى به. طلب والدي قلماً وكراساً من خادمه سلوم. كانت نظراته تجمع بين العمق والحزن والكبرياء. قال لحمزة: اكتُب! سأملي عليك وصيةَ المرحومة. ثم انفجر باكياً بكاءً مُرّاً أليماً. أجهش بدموع حارة حارقة. عقدت المفاجأة لسان كمال. كان أبي أمام الناس الفارس القويّ العنيد، القائد المحاور المناور، المهندس الذي صنع دبي؛ بنى، وأقام نهضةً، وقاد مشاريع، ونال إعجابَ العالم. لم يكن أحد يتوقّع هذه اللحظة؛ أن ينهار هذا الجبلُ الشامخ. لم يتصوّر أحد كلَّ هذا الألم الذي بداخله. أعطوه كوبَ ماء وذكّروه بالله، حتى هدأ. ثم طلب منهم أن يكتبوا الوصية. وما إن بدأ، حتى انفجر ثانيةً بالبكاء، بحرقةٍ أكبر وهو يردِّد: وصية المرحومة، وصية المرحومة، وصية المرحومة.

من مثل أمي؟ من مثل لطيفة؟

08

185 عاماً من البحث عن "دبـي"



خور دبي في الستينات

دبي ليست صدفة. دبي هي ثمرةُ رحلة استمرت أكثر من 185 عاماً. دبي هي قصةٌ طويلةٌ من الكفاح والتغلُّب على مخاطر هدّدت وجودَها واستمراريَّتها. دبي اليوم دانةُ الدنيا، وستبقى بإذن الله.

بدأت رحلة دبي مع الشيخ مكتوم بن بطي في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وهو الحاكم الذي رسّخ الإرث الحالي للعائلة ووضع حجرَ الأساس لإمارة دبي. وكان هدفه الأول جعل دبي مكاناً آمناً لكلّ سكانها. ثم خلفه شقيقه سعيد بن بطي الذي أرسى عدالةً مطلقةً في الإمارة الناشئة. عاملٌ رئيسيٌّ في استمرارية دبي عدالتها مع القريب والبعيد، وجزءٌ أساسيٌّ من إرث الأسرة الحاكمة في دبي هو العدالة. لا نَظلِم ولا نُظلَم. العدالةُ التامة هي الدرس الأول في دستور دبي غير المكتوب.

وجاءت سنونٌ شداد في عهد سعيد بن بطي، انتشرت فيها الحروب بين القبائل، بين أبناء الدم وأبناء العم. رسّخ الشيخ سعيد الأمن الداخلي بقوة، واستطاع إبرام تحالفات مع أبوظبي وبقية الإمارات الأخرى المجاورة، واستطاع أيضاً التعاملَ مع البريطانيين الذين حكمت علاقتنا معهم معاهدة. حفظنا حقّنا بالسيادة الفردية تحت بنود المعاهدة. وكانت لندن تشرفُ على الشؤون الخارجية والدفاع. العلاقات المتوازنة مع الجميع والتحالفات المستمرة هي الدرس الثاني في دستور دبي غير المكتوب. لا نعادي أحداً ولا عذر لأحدٍ أن يعادينا.

ثم جاء الشيخ حشر بن مكتوم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث استمر حكمه سبعة وعشرين عاماً شهدت خلالها دبي مزيداً من الاستقرار والتمكين، وعُرف بحكمته وحزمه، مولياً أهمية قصوى للالتزام بالمعاهدات التي أبرمتها دبي مع البريطانيين ومع الإمارات المجاورة. في العام 1886، خلفه الشيخ راشد بن مكتوم الذي حكم دبي ثماني سنوات، عمد خلالها إلى تعزيز استقرار دبي، أمنياً واقتصادياً. ومن بعده جاء مكتوم بن حشر الذي استلم مقاليد الحكم أواخر القرن التاسع عشر. وكان مكتوم صاحب نظرة اقتصادية عبقرية، حيث حقّقت دبي في عهده ازدهاراً اقتصادياً لافتاً، مرسياً قواعد التجارة والاستثمار فيها.

في العام 1902، على إثر زيادة في فرض الضرائب عبر أرجاء الخليج عند ميناء لنجة، ألغى الشيخ مكتوم بن حشر جميع الرسوم الجمركية على الواردات، وفتح ميناء دبي للجميع، ورحّب بجميع التجار.

ونتيجة لسياسته التحريرية هذه، تدفّقت البضائع الهندية إلى ميناء المدينة، وباتت دبي خلال فترة وجيزة مركز الخليج لإعادة التصدير إلى الموانئ والأسواق المجاورة. وسرعان ما انتقل عددٌ كبير من تجار الخليج الرئيسيين إلى دبي، واتّخذوها مقرّاً إقليمياً لهم. وهذا هو الدرس الثالث في دستور دبي غير المكتوب؛ الانفتاح على الجميع، وتحرير التجارة أمام الجميع، والترحيب بكل من يريد أن يضيف شيئاً لاقتصادنا.

بعد وفاة الشيخ مكتوم بن حشر في العام 1906، حكم الشيخ بطي بن سهيل دبي ست سنوات، قبل أن يخلفه سعيد بن مكتوم، الذي انتقلت دبي في عهده إلى مرحلة جديدة تماماً أرست خلالها نواة المدينة الحديثة.

بدأ جدّي الشيخ سعيد بن مكتوم فترة حكمه التي استمرت نحو خمسة عقود في العام 1912. فشهد عدد سكان دبي في عهده زيادةً كبيرة، وازدهرت التجارة البحرية في مجال الأقمشة والأعشاب والبخور وغيرها، واستمر الشيخ سعيد في تبنّي سياسات الاقتصاد المفتوح وتحرير التجارة من جميع أشكال الرسوم، بما في ذلك الرسوم الجمركية المفروضة مسبقاً على تصدير اللؤلؤ الذي كان يشكّل أكبر قطاع للتجارة حتى ذلك الوقت، إلى أن حلّت الكارثة في ثلاثينات القرن العشرين بانهيار تجارة اللؤلؤ. توقفت حركة الحياة الاقتصادية، لكن دبي لم تتوقف عن البحث عن مستقبلها. تعمَّقت أزمتنا الاقتصادية مع الحرب العالمية الثانية، وتعمَّق معها الإصرار لدينا للبحث عن بدائل. وقّع الشيخ سعيد في مايو من العام 1937 اتفاقيةً للتنقيب عن النفط مع شركة الامتيازات النفطية البريطانية، حيث تم تحويل الامتياز إلى شركة تطوير نفط الساحل المتصالح، وهي فرع من شركة نفط العراق. واستغرقت الاتفاقية 20 شهراً من المفاوضات، ونصّت على منح الشركة حقوق التنقيب لمدة 75 عاماً لقاء رسوم امتياز سنوية بقيمة 30 ألف روبية هندية. علّقت دبي آمالاً كبيرة على اكتشاف النفط في مناطقها، خاصة عندما وعدت الشركة بدفع 200 ألف روبية لحكومة دبي خلال شهرين من اكتشاف كميات تجارية من النفط، فضلاً عن ثلاث روبيات عن كل برميل مصدَّر من النفط. بيد أن الشركة أخفقت في العثور على النفط، ولكن دبي استمرت في البحث عن البدائل.

تنويع المصادر هو وصيّةٌ تتوارثها الأسرة الحاكمة، هو الضمان أن ما وصلنا إليه بعد رحلة الكفاح لا يمكن أن نتخلّى عنه بالاعتماد على مصدر واحد فقط للحياة

❝

واصلت دبي رحلة كفاحها ورحلة البحث عن مستقبلها. واصلنا التركيز على ما نجيد فعله أكثر من أي شيء آخر: التجارة بشكل عام، وإعادة التصدير على وجه الخصوص. اعتاد التجّار أن يستوردوا بضائع من مختلف الأسواق إلى دبي بكميات كبيرة وبأسعار منافسة، وإعادة تصديرها من دون ضريبة إلى أسواق المنطقة. وكان الذهب أهم سلعة يُعاد تصديرها من دبي، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية. لكن هذه التجارة توقفت فجأة عندما منعت العديدُ من دول المنطقة استيرادَ الذهب لأسباب اقتصادية. جلبت إعادة تصدير الذهب معها شائعاتٍ لا أساس لها، تقول إن حكومة دبي كانت تُشجّع تهريب الذهب إلى شبه القارة الهندية. بيد أن الذهب كان يتم استيراده إلى دبي بشكل قانوني تام، ووفق الاتفاقيات المبرمة بين البنوك والشركات التي تبيع الذهب إلى التجار المحليين، وكان يُعاد تصديره بشكل قانوني كذلك. أمّا ما يحدث للذهب بعد مغادرته حدود الإمارة فهو ليس من مسؤوليتها. تحرّكت بريطانيا ضد دبي في موضوع الذهب، وبدأت في إجراء تحقيقات كثيرة حول شكاوى تهريب الذهب، لكنها لم تجد أيّ حجّة لوقف تجارته لأنها تأكدت من قانونيّتها. لعب الذهب دوراً حيوياً في إنعاش تجارة إعادة التصدير بدبي في الخمسينات والستينات، لكنه لم يكن البضاعة الوحيدة التي يُعاد تصديرها، فقد شُحنت مئات الأنواع من السلع والبضائع الأخرى إلى دول الخليج وإيران والعراق وشبه القارة الهندية وشرق أفريقيا.



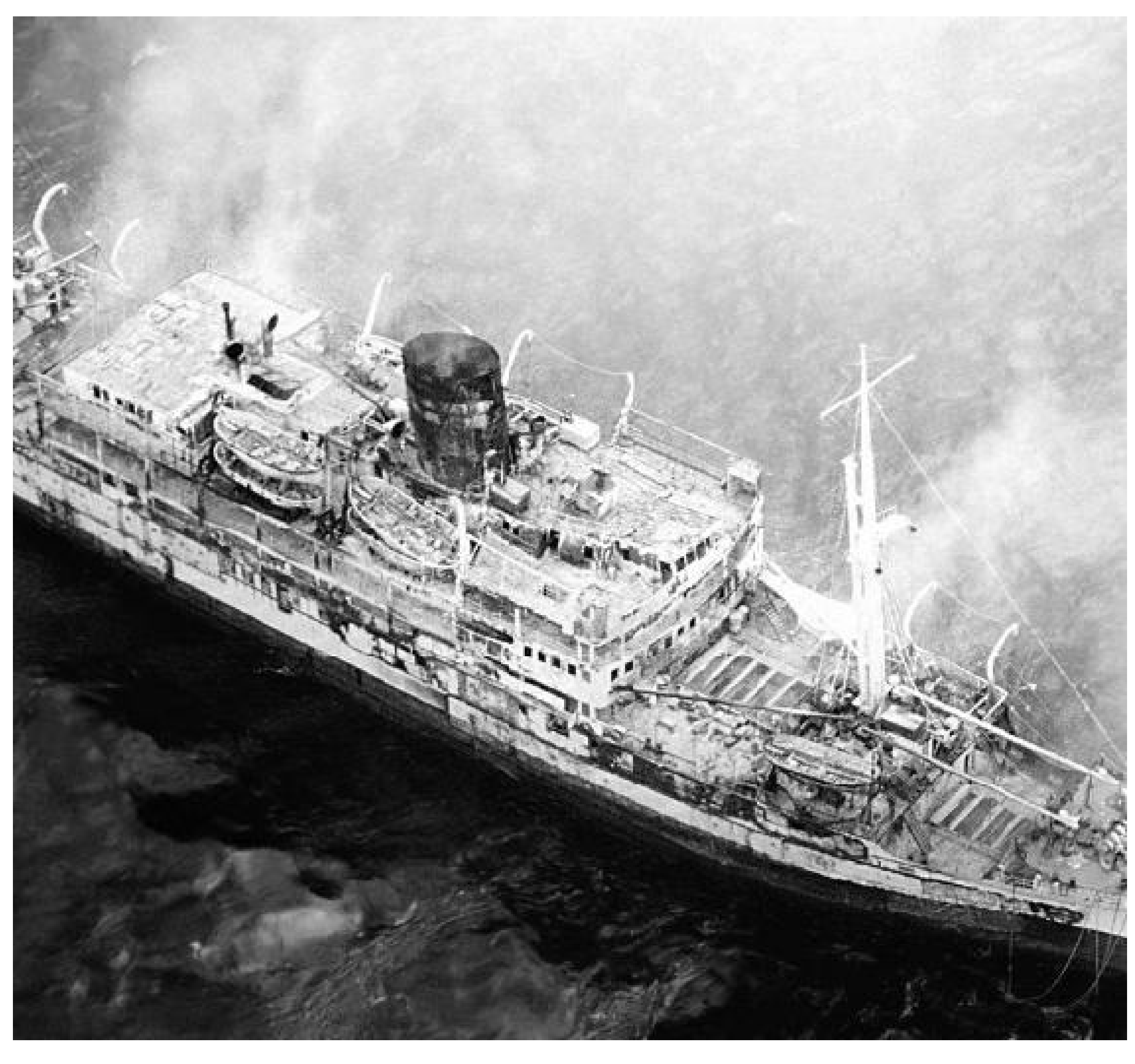
وسط دبي

وصيّةُ جدي لنا هي التنوع الاقتصادي وعدم الاعتماد على مصدر واحد؛ وهو ما سار عليه أبي الشيخ راشد من خلال بناء الموانئ، وتوسيع الخور، وتطوير المناطق الحرة والمطار، وإطلاق الشركات الكبرى.

كثيراً ما يسألني الناس بانبهار لماذا تطلق دبي باستمرار مشاريعَ جديدةً ومختلفة؟ مناطق للإعلام، ومدينة للإنترنت، ومسرعات للتقنية، وموانئ في كافة أنحاء العالم، ومطارات جديدة، وشركات في قطاع الطيران والألمنيوم والعقارات والتقنيات المتقدمة والصيرفة الإسلامية والتقليدية وغيرها؟ لماذا كل هذا؟

الإجابة هي في دستور دبي غير المكتوب؛ تنويع المصادر هو القاعدة الرابعة لنجاح دبي، هو وصيّةٌ تتوارثها الأسرة الحاكمة، هو الضمان أن ما وصلنا إليه بعد رحلة كفاح استمرّت أكثر من 185 عاماً لا يمكن أن نتخلّى عنه بالاعتماد على مصدر واحد للدخل، ومصدر واحد فقط للحياة.

09
عاصفة مثل "يوم القيامة"



السفينة "دارا" | عام 1961

متى كانت آخر مرة تقوم فيها بشيء لأول مرة؟ كان هذا سؤالاً لأحد الإعلانات الخاصة بشركة "طيران الإمارات". وبعد السؤال يبدأ الثلج في

النزول عبر نافذة أحد الفنادق، ثم يخرج مسافران للاستمتاع بالثلج لأول مرة في حياتهما. رأيتُ الإعلان، فتذكرتُ أول مرة رأيتُ فيها الثلج. كنتُ في السابعة، وكنت أرى بعض تجمُّعاته في صحراء دبي الباردة في فصل الشتاء في ذلك الوقت.

أذكرُ وأنا في العاشرة من عمري حديثَ كبار السن ممن شهدوا زمن جدّي الشيخ سعيد عن تغير البحر وأحواله، وعن عودة الصيادين بقصصٍ من البحر لا تحدث عندنا، وعن مجيء أسماك غريبة من أعماق البحر للشاطئ، وعن انتشار الطحالب في مناطق لا تناسب معيشتها، وتحليق طيور النورس في سماء دبي بصورة غير مسبوقة وغير مفهومة. تحدّث كبارُ السنّ عن طائر الحبارى، وأرنب الصحراء، وتغيُّر بعض عاداتهما، وتحدّثوا عن صخب الرياح و هياجها بغير ما تعوّدنا عليه، وتحدّثوا عن علاماتٍ وإشاراتٍ بهبوب عاصفةٍ عاتيةٍ شديدةٍ على دبي، قالوا بأنها ستكون مثل "يوم القيامة". لكنني كنتُ أراقب هدوءَ البحر وزرقتَه وصفاءه، فلا ألتفتُ كثيراً لكلامهم.

كنتُ أغطُّ في نومي في غرفتي بالبيت في ليلة 8 إبريل عام 1961، عندما أحسستُ بضجّةٍ كبيرة مفاجئة اشتدّت على أثرها ضرباتُ قلبي بتسارع كبير لأجد سريري في وسط عاصفة، والنوافذ تغلق وتفتح بقوة كأنها تريد أن تطير من شدّة الرياح في جميع أنحاء البيت الكبير. سمعتُ صوت والدي يصيحُ بقوة: حمدان .. محمد .. أيديكما! قفزتُ وركضتُ باتجاه الصوت، ثم سمعتُ صوت حمدان: محمد أحضِرْ فرشتك! نريدُ أن نسدَّ الباب. ركضنا جميعاً. تدافعت أمي وأخواتي بحثاً عن أية ألواح، لنضع كلَّ ثقلها على الأبواب لمنع الرياح من تكسيرها وتدمير كل ما بدا لي في ذلك الوقت نهاية العالم من حولي. كانت بداية ليلةٍ طويلةٍ لن تنتهي. بدأ الناس بعدها بالوصول أفواجاً للقصر فزعين للشيخ راشد، مستنجدين به. كنا نفتح لهم الباب بالقدر الذي يسمح لهم بالدخول فقط من شدة الريح التي كانت ترمي كلَّ شيء أمامها. وكلما صفق الباب اهتزّ ما تبقى من سكينة في نفوسنا. كانت ريحاً مخيفة؛ عاصفة كما أخبرنا كبارُ السنّ كأنها "يوم القيامة". بدأ الناس بالوصول فرادى وجماعات، يحملون معهم قصصاً أليمةً ودموعاً كثيرة.

ما زلتُ أذكرُ منظر والدتي وهي تطمئن امرأةً ترتعشُ من الخوف ولا تقدر على الكلام. مزّقت أخواتي وأمي شراشفَ البيت لمداواة بعض المصابين الذين التجأوا إلينا. بدأ والدي يستفسر عن الأضرار بصوت منخفض كي لا يخاف مَن في البيت، ومع كل إجابة كنتُ أرى الامتعاض على وجهه؛

البيوت لحقها دمارٌ شديد، أشجار النخيل طارت في الهواء مثل ألعاب الصبيان، زوارق وقوارب الصيد قذفتها الريح في شوارع بعيدة داخل المدينة، كان هناك قتلى وجرحى. لم ينتظر والدي سماعَ كل التفاصيل. خلال دقائق قسَّم الرجال إلى مجموعات، وأسند إليهم مهماتهم. فكان على الفرقة الأولى أن تنقل الأدوية واللوازم الطبية بأي وسيلة، ولا بدّ من العمل على تخزينها لأننا سنحتاجها قريباً. كان هناك الكثير من الجرحى في المستشفى.

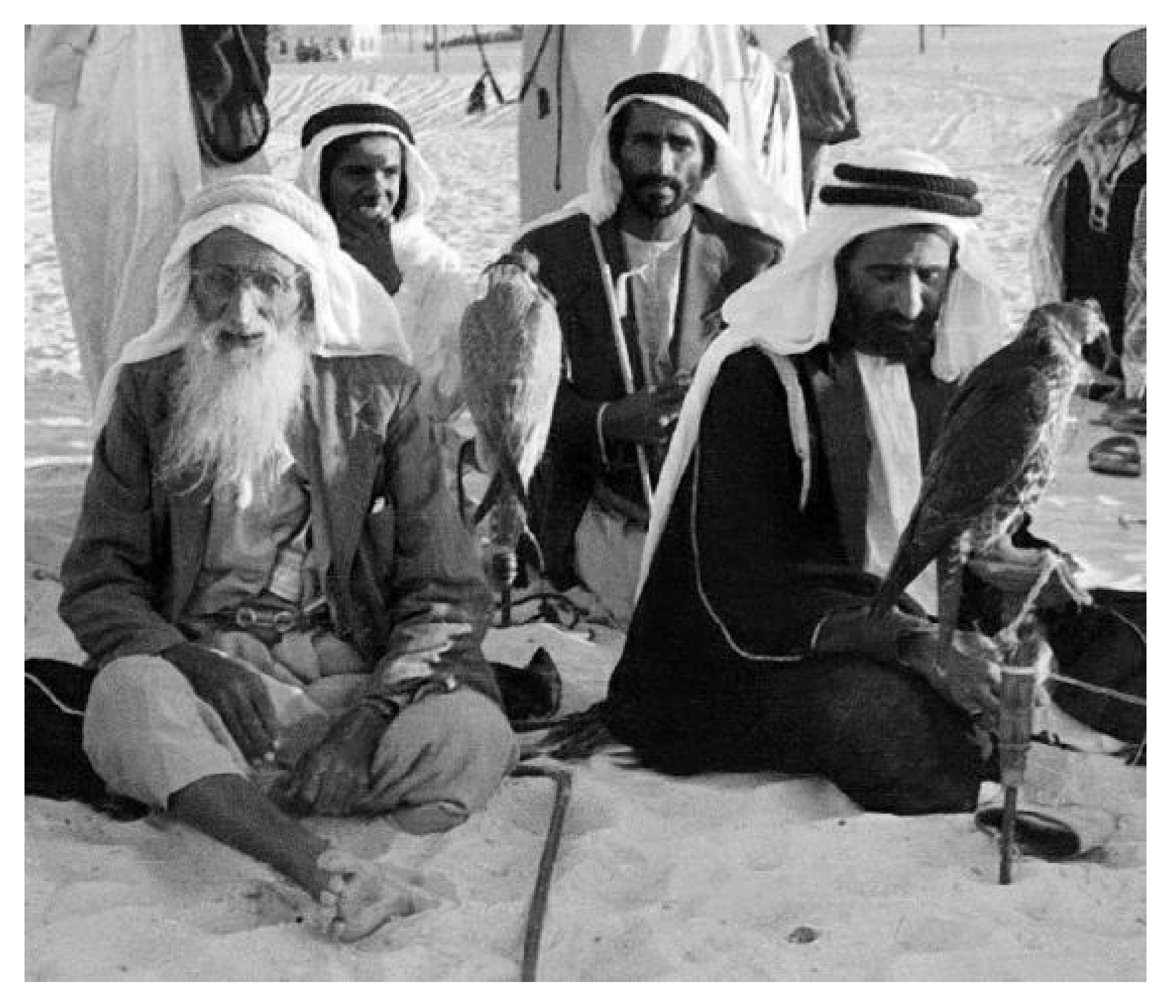
ثم وصلت الأنباء التي جعلت والدي يتجمّد في مكانه. فقد اندفع عددٌ من الجنود البريطانيين مجتازين الباب، وهم بالكاد يستطيعون التقاط أنفاسهم: سموك، دارا! سفينة دارا يا سيدي! ثمة حريق في دارا سموك! عندها، بدا وكأن العالم قد توقّف عن الدوران. كانت دارا "MV Dara" سفينة تابعة لشركة ملاحة بريطانية. وعلى مدى 13 عاماً، كانت السفينة تنقل الركاب والبضائع من مومباي وموانئ الخليج. وعند هبوب العاصفة حدث انفجار قويّ في أسفلها تبعه حريقٌ ضخم. وكان على متنها وقت وقوع حادث الغرق أكثر من 800 راكب. قال الجنود إن الكثيرين قُتلوا جرّاء ما حدث، لكن المفجع أن الموت لم يتوقف بعد، فهناك المزيد من الركاب الذين كانوا يلقون حتفهم كل دقيقة بسبب تدافعهم أو غرقهم في المياه الهائجة. كانت قوارب النجاة تنقلب وسط البحر لأن حمولتها أكثر من طاقتها. وما زالت الرياح تعبث بتلك القوارب وتطيح بها يمنةً ويسرة.

جمعنا أبناء عمّي وعدداً كبيراً من سكان دبي في بيتنا. أرسل والدي جميع أفراد الأسرة بلا استثناء مع قوارب النجاة لإنقاذ من يمكن إنقاذهم. أنقذنا قرابة 500 شخص في تلك الليلة التي بدا لي أنها لن تنتهي. استمر هذا الوضع المربك لبضعة أيام لم يعرف والدي فيها طعم النوم أبداً. ومع أنّ الرياح هدأت، إلا أن تداعياتها السيئة لم تتوقف، وظلت تخيِّم كسحابة ثقيلة الوطء فوق دبي لأسابيع. حصيلة الضحايا كانت مهولة، ولم يسْلَم أي بيت من الخسائر. وتم تحويل المباني الفارغة إلى بيوت بديلة وملاجئ. ما زلتُ أذكر بكثيرٍ من الألم مشهدَ النساء اللواتي ترمّلن بسبب العاصفة وهن يتدافعن عبر أبوابنا المفتوحة، طلباً للعون والمساعدة، ولم يكن لوالدي ووالدتي إلا أن يقدّما كلّ ما لديهما لأجلهن.

تعلّمتُ ألا أستهين بالطبيعة أبداً، وتعلمتُ بعدها أن نكون مستعدين دائماً لأي طارئ. رغم قسوة العاصفة، إلا أنها أظهرت أنبل ما في أهل دبي، من تعاونٍ وتعاضدٍ ووقفةٍ واحدة وقت الشدة. وعلى الرغم من كثرة

الخسائر، إلا أنني تعلّمتُ كيف يديرُ القائد أزمةً مفاجئة. وأكثر شيء استوقفني، وما زال، أن أبي بدأ بنا نحن أبناءه وأبناء عمّي لإرسالنا لإنقاذ الغرقى في البحر الهائج قبل أن يرسل أحداً من عموم الناس. حقاً إن الأزمات تظهرُ معادن الرجال.

10
أطيب رجل عرفته في حياتي



جدي الشيخ سعيد بن مكتوم ووالدي الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم

من الذكريات التي لا أنساها أبداً وقت طفولتي، ذكرياتي عن وفاة أطيب رجل عرفته في حياتي؛ جدّي الشيخ سعيد بن مكتوم، رحمه الله.

لم يكن أحد يستطيع تخيُّل دبي دون الشيخ سعيد، الذي قضى 46 عاماً

في حكم الإمارة، وهو الذي بدأ رحلة تحديث دبي التي لم تنته حتى اليوم. توفي جدّي في العاشر من سبتمبر من العام 1958.

ما زلتُ أذكر ذلك اليوم، وقد فاضت روحه إلى بارئها بعد صلاة الفجر بقليل. قضى أبي الأيام الأخيرة بجانب جدي، وكان لا يأكل خلالها إلا قليلاً، لحزنه الشديد عليه. كنتُ متشبِّثاً بثوب أمي، وقد غالبتها دمعة أبت إلا أن تفرَّ منها. صوت النساء وهنّ ينتحبن كان يطغى على المكان. لم يكن مسموحاً للنساء البكاء علناً، لأن ذلك قد يبدو اعتراضاً على قدر الله ومشيئته.

تجمَّع الرجال حول بيته رغم حرارة الجو. احتشدوا بكثرة وقد غلبهم صمتٌ ووجومٌ رهيب، بينما دخل أبي وبعض أقربائه لتغسيل جدي رحمه الله.

كان وقع خبر وفاة الشيخ سعيد على أهل دبي شديداً؛ فقد أحبّوه وأحبّوا لطفه وودَّه. كان رجلاً صالحاً ورعاً، فائق الكرم والطيب، ما في يده لغيره. يغلب على تعاملاته العطف وروح الأبوة. لم يكن يرضى بالظلم أبداً، وكان مع الحقّ حتى وإن كان ذلك على حساب أقرب الناس إليه.

عُرف الشيخ سعيد بسعة صدره، متعاملاً مع الشدائد بحكمة وصبر ورزانة. على الرغم من الصعوبات التي مرّت بها فترة حكمه، نجح جدّي في الحفاظ على مكانة دبي، كإمارة حيوية، ومحطةٍ تجاريةٍ مهمة لما حولها.

مع بدايات استلام الشيخ سعيد الحكم في العام 1912، كانت إمارة دبي قد بنت سمعتها بحركتها التجارية النشطة.

شهدت تجارة اللؤلؤ في عهد الشيخ سعيد ازدهاراً كبيراً، عزَّزتها التسهيلاتُ التجارية والجمركية التي كانت دبي تقدّمها. بيد أن ما جعل دبي المكان المفضل للعديد من تجار اللؤلؤ يومها مناخها الاجتماعي الذي كان يتسم بالانفتاح. ولعلّي لا أبالغ في القول بأن التنوع الثقافي والإنساني الذي نحظى به اليوم، إنما زرع بذوره الأولى الشيخ سعيد. كان الانفتاح على الجميع، والتسامح مع الجميع، والفرص مفتوحة أمام الجميع.

مرّت دبي في عهد الشيخ سعيد بالكثير من الأزمات، وكانت في كل مرّة كطائر الفينيق الأسطوري، كلما استحال رماداً، نهض أكثر قوةً وحياةً.

فمع الكساد الاقتصادي الكبير الذي ضرب العالم في ثلاثينات القرن العشرين وانهيار مكانة دبي بوصفها أحد أهم مراكز تجارة اللؤلؤ، وجد الشيخ سعيد نفسه أمام تحدٍّ غير مسبوق. ليس هذا فحسب، بل إن دبي كان ينتظرها المزيد من المآسي؛ ففي أحد أيام فبراير من العام 1939، اندلع حريقٌ هائل في منطقة ديرة التهم نحو 300 بيت ومحل، ناهيك عن الخسائر البشرية. ولم تكد دبي تطوي صفحة الأحزان، حتى وجدت نفسها بعد عام فقط على موعد مع كارثة أشد إيلاماً، ففي فبراير 1940 شبَّ حريق في بر دبي، دمّر أكثر من 400 منزل ومحل تجاري.

هذه الكوارث وغيرها، وما ترتّب عليها من نتائج، كانت اختباراً حقيقياً كشفت المعدن الحقيقي للشيخ سعيد، كقائد ذي عزيمة لا تُقهر، مظهراً ثباتاً وتماسكاً لا نظير لهما.

"لا أعرف لماذا كانت يد والدي تمسك بي بشدّة في ذلك اليوم، أهو الحزن الذي أصابه أم هي لحظة أرادها أن تبقى في ذاكرتي طويلاً"

ووجد الشيخ سعيد البديل، بل البدائل لتجارة اللؤلؤ. وسرعان ما استعادت الحركة التجارية في دبي نشاطها، لتحقّق الإمارة في الأربعينات استقراراً اقتصادياً عبر تنويع مصادر الدخل، وتحسين الخدمات، وتطوير الميناء والنقل البري. وفي كل ذلك، كان للشيخ راشد، الابن، دورٌ كبير في إعادة الانتعاش للحياة الاقتصادية في دبي؛ فوليّ العهد الشاب كان الساعد الأيمن للشيخ سعيد، ورافقه في شتى مراحل بناء دبي، وإعادة ابتكار نفسها والانطلاق من جديد لتوفير حياة أفضل لشعبها ولكل من جاء لها طالباً رزقه فيها.

في العام 1944، ابتُليت دبي وعدد من إمارات الساحل بوباء الجدري الذي حصد عدداً كبيراً من الأرواح. سخَّر الشيخ سعيد كل موارده لتوفير اللقاح لآلاف السكان. لم يكن هناك وقتها سوى مستوصف صغير بالكاد

يفي باحتياجات السكان الذين كانت أعدادهم في ازدياد مضطرد، إلى جانب عدد محدود من العيادات التي لا تقدّم خدماتٍ علاجية متكاملة. قرّر الشيخ سعيد توسيع المستوصف وتحويله إلى مستشفى، وتحمّل من ماله الخاص الجزء الأكبر من كلفة إنشاء المستشفى الذي تم افتتاحه في العام 1951. وواصل تطوير وتوسيع مرافق المستشفى الذي حمل اسم "آل مكتوم"، منفقاً عليه بسخاء، من خلال إضافة أقسام جديدة له، واستقدام كفاءات طبية للعمل فيه، وتزويده بأحدث المعدات والأجهزة الطبية، حتى أضحى أحد أهم المرافق الطبية في المنطقة في خمسينات القرن الماضي.

وفي التعليم، أعلن الشيخ سعيد إنشاء دار للمعارف في دبي عام 1938، تولّت منذ ذلك الوقت الإشراف على التعليم والإنفاق عليه، قبل أن تشهد الخدمات التعليمية قفزةً نوعيةً في الخمسينات.

تتناقل الروايات والأخبار أنّ من أكثر الأشياء التي كانت تزرع البهجة في قلب الشيخ سعيد هي رؤية الطلبة في الصباح الباكر وهم يتوجّهون إلى مدارسهم. فكان يتعمَّد أن يتبعهم بسيارته يومياً، وهو يراقبهم يحملون حقائبهم المدرسية. وكثيراً ما كان يمدُّ يده من النافذة لتحيتهم، مستقبِلاً وإياهم يومهم الدراسي الجديد.

عندما حملوا جثمان جدّي من البيت، أمسك والدي يدي بشدّة وهو يسير خلف النعش وسط الجموع. لا أعرف لماذا كانت يده تمسك بي بشدّة في ذلك اليوم، أهو الحزن الذي أصابه أم هي لحظة أرادها والدي أن تبقى في ذاكرتي طويلاً ولا أنساها؟ لا أعرف حتى اليوم. لكن ما أعرفه هو أن هذا الطريق كلنا سنمشي فيه مهما طال البقاء. وتبقى للإنسان أعماله الطيبة التي تخلد ذكراه بين الناس وترفع منزلته عند خالقه الذي أقبل عليه.

كان الكثير من الشباب والرجال يتدافعون ليحصلوا على شرف حمل النعش الذي سُجّي فيه جدي، نظرتُ إلى الخلف لأرى والدتي التي كانت تقف عند الباب بصمت مطبق، في حين كانت النساء من حولها ينتحبن شعوراً بالفجيعة. مشيتُ بجانب والدي وهو ممسكٌ بيدي، وكنتُ ما زلتُ صغيراً جداً ليتجاوز نظري ما فوق رؤوس الرجال، ولكن الفراغات بين صفوفهم مكّنتني من رؤية النساء اللواتي يقفن على أبواب المحلات يبكين من وراء البراقع، وكانت هناك مجموعة أخرى من النساء يواصلن السير إلى جانب الموكب تحت سياط الشمس اللاهبة من دون أن

يتوقفن عن البكاء. توقفت الجنازة عند بيت ابنته الكبرى الشيخة موزة بنت سعيد، التي كانت تحبّه وتجاوره في مرضه لتلقي عليه النظرة الأخيرة.

وصلنا بسرعة إلى المقبرة التي تبعد ثلاثة كيلومترات عن القصر. بدأ والدي وأعمامي وبعناية شديدة بإنزال نعش جدي، أطيب رجل عرفتُه في حياتي، في حين وقفتُ إلى جانب القبر حابساً دموعي. صلّينا بعد ذلك شاكرين الله على الحياة التي عاشها معنا.

كان جدّي محورَ حياتي، فقد أمضيتُ معه معظم أيام طفولتي. كنتُ أتساءل وأنا أرى الجموع تتوافد إلى بيتنا من كل حدب وصوب لتقديم التعازي، ما يعنيه كل ذلك، وبدأت أشتاق لجدّي.

الآن سيحكم والدي دبي. خطر في بالي حينها بأنه بعد وفاة الحاكم، لن يكون لدى خليفته الوقت الكافي ليفكر بنفسه وأسرته، فالإجراءات الرسمية والمسؤوليات تبدأ على الفور، تماماً مثلما حدث عندما بدأ الرجال الذين انتظموا في صفوف طويلة بتقبيل أنف والدي وتقديم التعازي له.

11
راشد بن سعيد..
دروس لا تنتهي



مع والدي وأخي الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم | عام 1963

دروس راشد بن سعيد لا تنتهي. كان مدرسة، وكان معلِّماً، وكان حاكماً، وكان أباً للجميع.

يبدأ يومه مع صلاة الفجر، ومنه تعلمتُ هذا الدرس، وما زال استيقاظي حتى اليوم يبدأ مع صلاة الفجر.

كان يستيقظ قبل الفجر ليؤدّي الصلاة، ثم يبدأ جولته الميدانية لتفقُّد

المشاريع قبل أن يعود لتناول الفطور الذي تعدُّه أمي – كانت أمي تحرص على إعداد فطوره بنفسها رغم وجود الخدم. قبل الإفطار كان يجلس أمام القصر لاستقبال المسؤولين ثم ينتقل إلى مكتبه في الخور لمقابلة المشرفين على المشاريع، وكنت أستمتع كثيراً عندما يسألهم عن التطور في تنفيذ المشاريع؟ وأين وصلت؟ فيتفاجؤون حين يناقشونه بأنه يعرف عن مشاريعهم أكثر مما يعرفونه – لأنه زارها بعد الفجر. لم يكن أبي يقابل الناس لمرّة واحدة فقط في اليوم (أو ما يُسمّى اليوم "دوام رسمي")، بل يلتقي بهم مرة أخرى بين العصر والمغرب.

ثلاث فوائد كان أبي يجنيها من جولاته على المشاريع بعد الفجر؛ الفائدة الأولى أن المشرفين عندما كانوا يعرفون اهتمام الحاكم المباشر بأدقّ تفاصيل المشروع، فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون هناك أي تقصير أو إهمال؛ والثانية كانت تصبح لديهم طاقة كبيرة للعمل في مشاريع الشيخ راشد لأنهم كانوا يلتقونه يومياً، ويشعرون بفخر كبير عندما يتحدث معهم الحاكم في مشروعهم بشكل تفصيلي. أما الفائدة الثالثة فهي تحقيق كفاءة مالية كبيرة جداً للمشاريع؛ فلم يكن يتجرّأ أي مقاول أو موظف حكومي على ارتكاب ممارسات فساد مالي في مشاريع دبي. لم تكن تُصرف أي دفعة مالية قبل أوانها، ولم تكن تُصرف أي دفعة إلا بعد إنجاز العمل بالجودة التي يريدها حاكم دبي، لأنه كان يعرف كل التفاصيل. كانت جولاته رسالةً للموظفين ودرساً للإداريين والقياديين. كان الشيخ راشد أحرص الناس على سمعة دبي؛ بأنها تسدّد دفعاتها للمقاولين وأصحاب المشاريع بشكل منتظم، وكان يقول إنّ رأس مالنا الحقيقي هو سمعتنا مع التجار. وفي المقابل، لم يكن يقبل أبداً أي ممارسات للتلاعب بالقوانين أو تجاوز القواعد المعمول بها.

كان له حصان اسمه "الصقلاوي"، ربّاه صغيراً. وكان يرضعه من زجاجة الحليب بيده، وقد روَّضه ودرَّبه بنفسه. كبر الحصان، وأحبَّ الشيخ راشد، وأحبَّه الشيخ راشد. كان يمتطي حصانه "الصقلاوي" في المساء، ويقوم بجولته على المشاريع. كان الحصان يجول بحرية في الإسطبل وحوله وصولاً إلى باب القصر. وعندما كان والدي يرفع يديه، كان "الصقلاوي" يرفع ساقه الأمامية وحافره في الهواء ليردّ التحية. كما علّمه والدي أن ينحني على ركبة واحدة عندما يطلب منه ذلك. لم يقُدْه والدي بالزمام أبداً. كان يذهب إلى موقع المشروع ويترجّل عنه بينما يكون الزمام مرخيّاً حول رقبته، وكان "الصقلاوي" يتبع والدي كخادم مطيع، ثم يقف خلفه عندما يتحدّث إلى المشرفين على المشروع، مظلِّلاً رأسه عادة خلف جسدِ والدي. كنت أحبُّ هذا الحصان، ووجدته يتمتّع بشخصية تشبه

شخصيتي في جوانب كثيرة، فضلاً عن تمتّعه بحسّ الفكاهة.

كان للشيخ راشد أيضاً مكتب عند خور دبي، يراقب من خلال زجاجه المظلَّل حركة السفن وحركة البضائع وتنزيلها وتحميلها. كان يعرف السفن ويعرف أصحابها ويعرف حتى حجم البضائع التي يتعاملون بها، حتى عندما كان بعض التجار الجدد يحاولون التهرُّب من دفع الرسوم الجمركية بزيارة الشيخ راشد والشكوى له، كان الشيخ يذكرهم بسفنهم الراسية وتجارتهم المزدهرة ويقول لهم: هذا حقٌّ الحكومة، فيتفاجأ التجار من معرفة الشيخ راشد بتفاصيل تجارتهم عبر الخور، فيزداد احترامهم وتقديرهم لهذا الحاكم.

بدأ والدي حكمه بالتركيز على خور دبي، وكان أهم مشروع بالنسبة له هو توسيع الخور وتعميقه وفتحه أمام السفن الكبيرة. أمرَ الشيخ راشد بتعميق الخور عبر الحفر داخل الرواسب الصخرية والرملية، والتي استُخدمت لاحقاً لاستعادة الأرض التي غمرتها مياه البحر. تم بيع هذه الأرض لتسديد تكاليف المشروع. وكنتيجة لذلك، أصبح الخور أكثر عمقاً، واستقطب عدداً متزايداً من السفن، وساهم في تعزيز التجارة. ومنذ ذلك الحين، بدأ شغفي بإنشاء المشاريع؛ فقد امتازت فترة حكم والدي بكثرة المشاريع التي تضمّنت خور دبي، وشركة هاتف دبي، وشركة الكهرباء، ومطار دبي، والتحسينات التي أجراها على مستشفى آل مكتوم، وغيرها من المشاريع. وهذه هي فكرتي عن الحاكم؛ هو شخصٌ يتحرك، ويبتكر، ويبني، ويخدم الآخرين.

تعلمتُ من راشد منذ نعومة أظفاري بأن القائد هو الشخص الأكثر نشاطاً والأقدر على تنفيذ المشاريع بكل كفاءة. تعلمتُ من راشد بأن كلَّ درهم في دبي له قيمة كبرى ولا يتم صرفه إلا في مكانه الصحيح. ثقافة الحكم التي رسّخها راشد بن سعيد هي ثقافة تقوم على صرف المال بحكمة والابتعاد عن التبذير الحكومي أياً كان شكله.

أحد أهم أسرار تفوق دبي هي القيم التي أرساها الشيخ راشد في منظومة الحكم.

فعلاً، الحكمُ الصالح فيه صلاحُ البلاد والعباد.

12
ثلاثة دروس
مع بداية حكم راشد



مع والدي الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم

بدأ الشيخ راشد حكمه بطاقة كبيرة وحماسة عالية وروح متَّقدة. كل يوم في حكم راشد كان مدرسةً بالنسبة لي. في كل يوم فكرة، ومشروع، وحكمة.

أذكر أنه من القرارات الأولى التي اتخذها راشد بعد توليه مسؤولية الحكم تأسيس مجالس للبلدية والتجار وغيرهم من الأشخاص الموهوبين في مجتمعنا، من بناة ومهندسين وتجّار ومثقّفين. وعندما سألته عن سبب دعوته كلّ هذه الوجوه الجديدة، نظر إليَّ بجدية وقال: الإنسان لا يتوقّف عن التعلُّم. نريد منهم أن يخبرونا كيف يريدون أن نبني دبي، ونريدهم أن يعلّموك كيف تكون قائداً، فقد بدأ تدريبك كذلك.

كان ذلك أول درس تلقيته على يد راشد. كان الكلام عميقاً وبسيطاً، وكنت أدرك عمقه وأهميته وعظمته كلما كبرت، وكلما زادت مسؤولياتي. نعم الإنسان لا يولد كاملاً؛ هو بحاجة لعقل غيره لاستكمال عقله ورأيه، وهو بحاجة لتعلُّم مستمر لا يتوقّف مهما بلغ من منزلة. القائد بحاجة لمشورة من حوله أيضاً، لكسب تأييدهم لخططه ومشاريعه؛ فلا يتكبَّر على النصيحة والمشورة إلا جاهل.

كبرتُ وتعلّمتُ بأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان يستشير أصحابه؛ وهو المعصوم من الخطأ، وهو الذي يأتيه الوحيُ من السماء. كبرتُ وتعلّمتُ بأن أصعب ما يمكن أن يفعله الحاكم هو تجاهل نصيحة صادقة. كبرتُ ورأيتُ حكاماً وحكومات عربية لم يهتموا بالاستماع لرأي شعوبهم وتطلّعاتهم بشأن الكيفية التي يريدون بها أن تُبنى دولهم. كبرتُ وشاهدتُ قادةً كباراً لدول عظيمة كان خطؤهم التاريخي الأكبر الذي أطاح بهم هو مستشاروهم المنافقون. نعم، أحاطوا أنفسهم بمن يُسمِعهم فقط ما يحبّون سماعه؛ وما زلتُ أرى الخطأ ذاته يتكرّر حتى يومنا هذا. إنّ أسوأ ما يمكن أن يفعله القائد أو الحاكم هو الاختيار السيئ للمستشارين. كبرتُ وما زالت نصيحة الشيخ راشد صحيحة في كل يوم، ومع كل موقف.

في يوم آخر من أيام الشيخ راشد، وفي مجلس آخر من مجالسه، تعلّمتُ أيضاً شيئاً عظيماً ما زلت أطبِّقه حتى اليوم. كان الشيخ راشد يحدّث أحد الرجال في المجلس ويقول له: أعتقد أنك نشيط ولديك قدرات قيادية، هل تستطيع إطلاقَ المشروع الفلاني ومتابعته حتى النهاية؟ كنت أبدي تبرّمي لاحقاً وأهمس له: لماذا قلتَ لفلان إنه قائد.. هو قليل الكفاءة ولا يستحق هذه الكلمة؛ فيأخذ نفساً عميقاً ويرد عليّ بأن من أهم صفات الحاكم الناجح أن يحيط نفسه بقادة أقوياء، ونحن نبحث عنهم دائماً، ولكن عندما لا نجدهم نصنع نحن القادة. مسؤوليتنا أن نصنع قادة، نعطيهم المسؤولية، ونشجّعهم حتى يصبحوا قادةً حقيقيين.

لقد كانت حقاً كلمات من ذهب. قالها بكل بساطة، ولكنها سر عظيم من أسرار نجاح الدول وتفوُّقها. صناعة القادة هي صناعة التنمية. هذا هو الدرس الثاني. طبَّقتُ هذا المبدأ على مدى خمسين عاماً من حياتي ومسيرتي القيادية حتى اليوم، وخصّصتُ برامج لإعداد القادة وصناعتهم، واستثمرتُ بشكل شخصي في الشباب الطموحين الذين أحطتُ نفسي بهم في كافة المناصب التي تقلّدتها. واليوم أراهم قادةً عالميين في مجالاتهم، وأفتخر بهم. المشورة تضيف عقولاً إلى عقلك، وصناعة القادة تضيف أيادي كثيرةً وعظيمةً إلى يدك. القادة الذين نصنعهم يكونون عيوننا التي نرى من خلالها، وأيدينا التي نبني بها، وطاقات خلّاقة تُضاف إلى طاقتنا لتحقيق رؤيتنا التي نحلم بها.

الدرس الثالث الذي أودّ أن أرويه في هذا الفصل هو سؤال سألته للشيخ راشد عندما كنت صغيراً أيضاً، وهو عن القيادة أيضاً. سألته: من هم القادة الحقيقيون في هذا العالم؟ أجاب: القادة الحقيقيون اليوم ليسوا كالماضي. لقد تغير العالم. القادة الحقيقيون هم العمالقة الصامتون الذين يمتلكون الأموال، وليسوا الساسة الذين يصدرون الكثير من الضوضاء.

"كبرتُ وشاهدتُ قادةً كباراً لدول عظيمة كان خطؤهم التاريخي الأكبر الذي أطاح بهم هو مستشاروهم المنافقون"



مع والدي الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم

> ”
> كان الشيخ راشد يفضل دائماً الابتعاد عن ضوضاء السياسة وتشابكاتها ومعاركها الصغرية، ويقول إنها لم تصنع لنا نحن العرب شيئاً
> “

هذه الإجابة ما زالت تذهلني حتى اليوم؛ لأنني كل يوم أراها حقيقةً ماثلةً أمامي. إنّ الاقتصاد دائماً هو ما يحرك السياسة. الكثير من المحللين اليوم يقولون قبل تحليل أي ظاهرة سياسية: ابحث عن المال! حتى في الدول الغربية والديمقراطيات الكبرى، المال والاقتصاد هما اللذان يحركان السياسة. أرى دولةً كبيرة، كالصين مثلاً، تتحدّى العالم كلّه بقوة اقتصادها، وتكسب الدول والولاءات والقوة الجيوسياسية بسبب وفرة أموالها وقوة اقتصادها. الدولة العظمى اليوم، الولايات المتحدة الأمريكية، هي الأولى عالمياً ليس بسبب قوتها العسكرية فقط، بل بسبب قوتها الاقتصادية.

تختصر هذه الإجابةُ الكثيرَ من فكر دبي وفلسفتها، والكثير الكثير من مواقف الشيخ راشد. كان يفضل دائماً الابتعاد عن ضوضاء السياسة وتشابكاتها ومعاركها الصفرية، ويقول إنها لم تصنع لنا نحن العرب شيئاً.



مع والدي الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم

كان كلُّ تركيزه وطاقته ووقته منصبّاً على المشاريع والاقتصاد، وكان يتجنّب أي شيء يمكن أن يجر بلادنا إلى مستنقعات السياسة. اعتمدتُ هذه الفلسفة وهذه النصيحة عن قناعة وإيمان وتجربة أيضاً عبر مسيرتي الطويلة. واليوم، الكثير من العرب يرون بلادنا تعدُّ التجربة

التنموية الأنجح في المنطقة، ويصوّت آلاف الشباب العربي في استطلاعات سنوية لبلادنا بوصفها النموذج الذي يتمنّون لدولهم أن تحذو حذوه، ويرون فيها الأمل للمنطقة، ويتمنّون الانتقال والعيش فيها لتحقيق ذواتهم وأحلامهم. وأصبحت بلادنا اليوم أيقونةً اقتصادية عالمية بسبب فلسفة الحكم هذه التي أرساها الشيخ راشد فينا منذ نعومة أظفارنا.

ثلاث نصائح من حكيم ومعلِّم، أصبحت منهجَ حياةٍ لي، وفلسفةَ حكمٍ مع شعبي.

13
كهفي
الصـــــير

يميلُ الكثير من الرجال إلى أن يكون لديهم "كهف" خاص بهم، يلجؤون إليه، بحيث يسعون من خلاله إلى ممارسة هواياتهم، أو الابتعاد عن ضجيج البيت، أو الاسترخاء بعد عناء يوم طويل.

نمت هذه الرغبة في أن يكون لدي كهفي الخاص عندما كنتُ صغيراً.

كانت لدينا غرفة صغيرة، أرضها رملية، في الجزء الغربي من قصر زعبيل. وكان والدي يحتفظ في تلك الغرفة بصقور الصيد. وبعد أن كثرت مشاغل والدي، طلب مني الاهتمام بالغرفة. اهتممتُ بها، ولكن على طريقتي.

أذكر أنه جاء ليراني بعد ظهر أحد الأيام. كنتُ جالساً على الأرض الرملية في الغرفة الصغيرة، أتأمّل بفخرٍ جنّتي الجديدة وكلّي رغبةٌ أن يشاهدها والدي، حين اجتاز البابَ ظلٌّ طويل. التفتُّ فرأيتُ وجهه وملامحه الجادة التي سرعان ما اجتاحتها ضحكةٌ عميقة وهو ينادي والدتي.

تحولت الغرفة من غرفة للصقور إلى غرفة مكتظة بمختلف أنواع الحيوانات، إذ كنتُ قد أمسكتُ بالكثير من العقارب، ووضعتُ صناديق مملوءةً بالأفاعي من كل نوع فوق بعضها بعضاً. أما المساحة الصغيرة المتبقية، فقد ملأتُها بالأصداف وهياكل الأسماك التي جمعتُها خلال رحلاتي إلى الشاطئ وحملتُها برفق إلى الغرفة.

وقف والدي ووالدتي عند المدخل، وعلت ضحكاتهما إلى درجة أنني لم أستطع فهم ما الذي كانا يقولانه. وعندما تمكّنت أمي من تمالك نفسها، مسحت دموعها بعد نوبة الضحك التي أصابتها وهي تقول: إذن، لم يكن هناك لصّ متخصص بسرقة الجرار من المطبخ! على الأقلّ أعِدْ لي يا حبيبي زجاجة مستحضر التجميل؛ فالعُود الذي فيها قيمته أكبر بكثير من ريش تلك الطيور التي تحتفظ بها هناك!

بعد ذلك الموقف، أصبحت الغرفة أول مكان يتم البحث فيه عند فَقْد أيّ جرّة أو عبوة زجاجية من البيت. وبسبب نوبة الغضب التي انتابتني بعد أن اضطُررتُ للتخلّي عن بعض أدواتي الثمينة، قرر والدي ووالدتي إثراء فضولي بالعلوم، وأعطتني أمي دفاتر صغيرة أدوّنُ فيها اكتشافاتي عن الطيور والحيوانات والأصداف والهياكل التي كنت أجمعها.

امتلأت تلك الدفاتر الصغيرة بالكثير من الملاحظات التي كنتُ أدوِّنها والرسومات التي كنتُ أضعها فيها. كانت تلك الدفاتر متعتي التعليمية، وكانت تلك الغرفة "كهفي" الصغير الذي أمارس فيه هواياتي في التعرف على الطبيعة من خلال جمع مختلف الكائنات الصغيرة فيه.

ما تعلّمتُه من هذا الكهف الصغير هو أنّ التعليم بالتجربة يظل راسخاً معك مدى حياتك.

14
الخيل الأولى



هل تعرف ما هو الفرق بين الحبّ الأول والخيل الأولى؟

لا يوجد فرق. الخيل الأولى والحبّ الأول وجهان لعملة واحدة بالنسبة لي.

أحبُّ الخيل منذ الصغر. تربيتُ في بيت كان والدي يجول بحصانه الصقلاوي في أرجاء دبي، ويقوده من غير زمام. تربيتُ في بيت كان أخي الأكبر مكتوم له حصان يستطيع أن يمتطيه بالركض خلفه؛ فإذا حاول غيره ركوبه انتفض وأسقطه أرضاً. لم يكن حصان مكتوم يرضى بغير مكتوم، رحمه الله.

كيف لا أحبُّ الخيل وأمي كانت تستطيع ركوبَ الخيل دون سرج؟ وما زلتُ وأنا صغير أذكر أخي حمدان الذي كان يمتلك حصاناً، يقال له من سرعته "الكروان".

نشأتُ في بيئة تحبُّ الخيل. نشأتُ في بيئة كانت تتناقل الكثير من المأثورات، يحكيها لنا الآباء ونحن صغار عند اجتماعنا بالليل حول النار في الليالي الباردة. جاء في إحداها بأن الله تعالى لمّا أراد أن يخلق الفرس قال لريح الجنوب: إني خالقٌ منك خلقاً، أجعله عزاً لأوليائي، ومذلةً لأعدائي، وحمىً لأهل طاعتي، فقالت: افعل ما تشاء، فقبض من الريح قبضةً فخلق فرساً، فقال: سميتك فرساً، وجعلتك عربياً، الخير معقود بناصيتك.. والغنى معك حيث كنت.. وجعلتك تطير بلا جناحين..

نعم، كنا نتوارث هذا الأثر، فأحسُّ بعظمة الخيل حين أراها. كانت النساء عندنا في البيوت يتناقلن بأن الجنّ أو الأرواح الشريرة لا تتجرّأ على دخول خيمة توجد فيها خيلٌ عربيةٌ أصيلة. هذه بيئتي التي نشأت فيها، فكيف لا أحبُّ الخيل!

"

تعلّمتُ من خيلي أنه عندما تحبُّ شيئاً واصل فيه حتى النهاية. عندما ترِيد إنجازاً أعطِه كلَّك، لا تُعطِه بعضك، إلا إذا كنت تريدُ نصفَ إنجَاز، أو نصف انتصار!

❝

حلف بها ربُّ العزّة في القرآن الكريم فقال "والعاديات ضبحا"، وقال عنها رسوله المعصوم بأن "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة"؛ ولا يكرمها إلا كريم.

كيف لا أحبُّها بعد كل هذا!

يقولون إنني اليوم من أكبر مُلّاك الخيول في العالم. لكن لا يعرف الكثيرون أنه في طفولتي عندما كانت أمي تبحث عني ليلاً في فراشي ولا تجدني، تعرف أنني أكون نائماً عند فرسي في الإسطبل. أحبُّ فرسي وأحبُّ قربها، تفهمني وأفهمها، وإذا غبتُ سألت عني، وإذا كنتُ معها كلّمتني وكلّمتها.

حبْ الرِّمَكْ يجري بشراييني آحبِها وآحبْ طاريها
أقْسَمْ بها الرَّحْمنْ ف كتابهْ سبحانهْ إبعلمهْ مِسَوِّيها

العادياتْ الإسمْ للسُّورهْ حَلَفْ بِها وهذا مِغَلِّيها
وفي الغاشيهْ آيهْ لمنْ فَكَّرْ والهينْ مذكورَهْ بتاليها

ومايِنحلفْ إلاَّ ترىَ بغالي هوُ لي ذكرها وهوُ مِسَميِّها
إظهورها عِزْ وشرَفْ تالدْ وبطونها كَنْزْ إلمِحبّيِها

ولي ما يعَرفْ الخيلْ يظلِمها وأهلْ الجَهَلْ لِصقورْ تشويها
والمورياتْ اللِّي حوافرها تجدحْ شرارْ النَّارْ تَوْريها

قضيتْ عمري في مِوَدَّتها أحبِّها ولا أقدَرْ أخَلِّيها
ياكَمْ منْ صَحرا ومنْ غابهْ قطَعْتها وآنا أجَدِّيها

وياكَمْ بأفكاري أحاورها ولوُ نِختِلِفْ أرجَعْ وأراضيها
إتْعَرفِني وإتعَرفْ أسلوبي والخيلْ تِفْهَمْ طِبْعْ راعيها

فيها الذكا والعِرفْ والفِطنهْ إبلا كلامْ أفهَمْ وأحاكيها
وإنْ غِبتْ عَنها دَوِّرَتْ عَنيِّ ريحَةْ ثيابي بَسْ تكفيها

هي مِثلْ شعري ومِثْلْ تَفكيري حِرَّهْ ولا شـيٍّ يساويها
عطيتها لي مَرْ منْ عمري واللي بقىً منْ العمرْ
بَعْطيها

نعم أعطيتها ما مرَّ من عمري، وسأعطيها ما تبقّى منه دون تردُّد.

"أحبُّ فرسي وأحبُّ قربها، تفهمني وأفهمها،
وإذا غبتُ سألت عني، وإذا كنتُ معها كلّمتني
وكلّمتها"

علاقتي مع الخيل بدأت في مساء أحد الأيام الجميلة. كنتُ عائداً مع أبي من الصحراء. توقفنا لصلاة المغرب. بعد الصلاة، قال لي أبي: أريد أن أنظِّم سباقاً للخيل في دبي. السباق سيكون مفتوحاً لجميع القبائل، وأريدك أن تشارك فيه. كنتُ في العاشرة من عمري تقريباً، ولكن الجملة التي قالها أبي جعلتني أشعر بأنني في العشرين أو الثلاثين. كلمات أبي بعثت فيّ طاقةً كبيرة، وأشعرتني بمسؤولية عظيمة، لأن السباق سيكون بمثابة احتفالية كبرى سيشهدها الجميع، ويتنافس فيها الجميع. كان أبي يمتلك مجموعةً من الخيول. قال لي: اختر إحداها ودرِّبها استعداداً للسباق.

بطبيعة الحال، كان دوري الثالث في اختيار الفرس، لأن ترتيبي الثالث بين إخوتي؛ يختار أخي مكتوم، ثم حمدان، ثم أختار أنا الحصان الثالث. الأخ الأكبر دائماً يبقى احترامه مقدماً في جميع الأحوال. تربَّينا على ذلك منذ الصغر. وأنا شخصياً حتى اليوم، لا أقدِّر أي إنسان لا يحترم من هو أكبر منه في أسرته.

انتبهتُ إلى مهرةٍ جميلة عند أبي، ولكنها كانت مصابة، لم يجرّبها أحد قطّ كفرس سباق. راقبتُها بعناية، فتيقّنتُ أنها تستطيع المشاركة في السباقات. كان اسمها "سُودا (أم حَلَج)".

كان العرب عندما يفضّلون حصاناً على سواه يضعون قرطاً من الذهب في أذنه. وهناك من يضع قلائد من الذهب والفضّة حول عنق الخيل تماماً كما تفعل المرأة الجميلة.

كان قرط "سُودا" قد علق بشيءٍ ما في وقتٍ سابقٍ فتمزّق طرف أذنها اليمنى من الأعلى، وأصبحت هذه العلامة ملازمةً لها، ومن هنا جاء اسمها: "سُودا أم حَلَجْ (=أم حَلَق)".

بدأتُ على الفور الاستعدادات الأولى لتدريب "سُودا (أم حَلَج)"؛ والبداية كانت بعلاجها.

كانت أمي الشيخة لطيفة من أعرف الناس بالعلاج بالأعشاب، ومن أعرفهم بالخيول أيضاً. طلبتُ منها على عجل تفحُّص المهرة، وأنا كلي قلق من إصابتها. فحصتها أمي بكل عناية. لاحظتُ منذ البداية تفاعل المهرة مع أمي عندما بدأت تعاين قوائمها ومفاصلها، وتحاول تحديد سبب إصابتها. كانت المهرة تعرف بأن أمي موجودة لعلاجها. بدأتُ أعرف ذكاء الخيل، وأعرف أيضاً كم هي حساسة ورقيقة ووفية.

حدّدت لي أمي مكان الإصابة، وطلبت مني تقليم حوافرها ووضع خلطة أعشاب على موضع الإصابة، وإعطاءها أيضاً شراب أعشاب لتخفيف الألم، ثم البدء بتدريبها على المشي بشكل متدرّج. سألتُها عن المدة، فقالت ثلاثة أشهر، مع تغيير الضمادة التي توضع على ساقها يومياً.

كان ذلك أهم مشروع في حياتي. السباق بعد أربعة أشهر، وأحتاج لعلاج مهرتي وتدريبها خلال ثلاثة أشهر. ما زلتُ أذكر علاج مهرتي، لأنني واظبتُ على إعداده بنفسي ووضعه على قائمتها يومياً.

كان علاج أمي يتكون من الحرمل والكركم والسدر وغيرها من المواد. كانت تصنع منه مزيجاً، وتضع ضمادة على ساق "أم حَلَج" يومياً لبضعة أشهر وتُغسل كلَّ صباح.

صرتُ أقضي وقتاً أطول في الإسطبلات. خفّ التورّم بعد إعطائها مسحوق الكركم عن طريق الفم لمدة 10 أيام، وبدت الساقُ نظيفةً أكثر بفضل الضمادة الجانبية، لكن الرباط ما زال بشع المظهر، فواظبتُ على وضع المسحوق فوقه. كما أنني لم أدعها ساكنةً في محلِّها؛ ولم أجهدها أيضاً.

حرصتُ على أن أجعلها تمشي يومياً. وكنت قد بدأتُ بذلك تدريجياً، ومع نهاية الشهر الثالث أصبحتُ أُسيّرها أربع أو خمس ساعات يومياً. وبدا لي أن صحّتها تحسّنت. ومع أنني شعرتُ بأن شكل الوتر سيبقى بشعاً إلى الأبد، إلا أن الوتر البشع القويّ أفضل من الوتر الجميل الضعيف.

كان بين مكان إقامتنا في "زعبيل" والبحر مسافة لا بأس بها، لهذا اعتدنا أحياناً مغادرة البيت في الصباح وتمضية اليوم بأكمله على الشاطئ. كنت أحمِّم "أم حلَج" وأمسك بعُرْفها وهي ترفع رأسها فوق الماء، وأمرِّنها على الشاطئ الأبيض. وكنا نتناول غداءنا – أنا والأصدقاء وهي – معاً هناك، حيث تغطّس أنفها في عشب الصحراء والحشائش التي أكون قد التقطتُها صباحاً وأحضرتُها معي. كانت تطحن الطعام بفكّيها السوداوَين، وترفع رأسها بين حين وآخر وهي تمضغ اللقمة في فمها الممتلئ، ثم تخفضه من جديد عند انتهائها منها. وكانت دائماً تُقدّم الساق المصابة أمامها وهي تأكل، كأنها راقصة بالية أنيقة تتمرّن على الحركة.

عندما يحين وقت العودة، كنت أصفّر لها فتتبعني بسرور. كانت تستمتع عند العودة إلى الإسطبلات بمقدار استمتاعها بالنهارات التي تقضيها في الخارج تقريباً. كانت تقف بهدوء مع التماعةٍ ودودةٍ في عينيها، يغلبُها النعاس وأنا أزيل الرمل والملح عن غطائها، ثم تحرّك أذنها للخلف لتلتقط أيّ تغيير يطرأ على نبرتي وأنا أحدّثها بشكل متواصل. كانت تريح ساقها الخلفية وتقدّم الساق المصابة أمامها، وكأنها تذكّرني بالألم الذي تشعر به. وعندما أنتهي من وضع الضمادة وضمادات القماش التي كنت أحضرها من والدتي، أجلس هناك وأحاول العثور على شيء أفعله؛ أيّ حجّةٍ كي لا أغادر الإسطبل، خاصة عند حلول الليل. كنتُ أريد أن أبقى بجوارها.

تعلمتُ من هذه المهرة الجميلة الكثير. تعلمتُ كيف تستطيع إقامة علاقة حقيقية مع هذا الحيوان الجميل، علاقة صداقة ووفاء. تعلّمتُ كيف يمكن التحدُّث مع الخيل والتفاهم معها أيضاً. تعلّمتُ أن الخير عندما تضعه في الخيل يثمر خيراً أكبر. علمتني خيلي الوفاء.

علمتني خيلي الأولى أن الإنجاز لا يأتي على طبق من ذهب. ثلاثة أشهر قضيتها بشكل متواصل أعالج مهرتي، وأنظف إصابتها، وأغيّر أربطتها، وأقوم بتمشيتها من ثلاث إلى أربع ساعات يومياً، وأتحدّث معها، وأقضي معها أجمل الأوقات على الشاطئ.

تعلّمتُ من خيلي أنه عندما تحبُّ شيئاً واصل فيه حتى النهاية. عندما تريد إنجازاً أعطِه كلَّك، لا تُعطِه بعضك، إلا إذا كنتَ تريدُ نصفَ إنجاز، أو نصف انتصار!

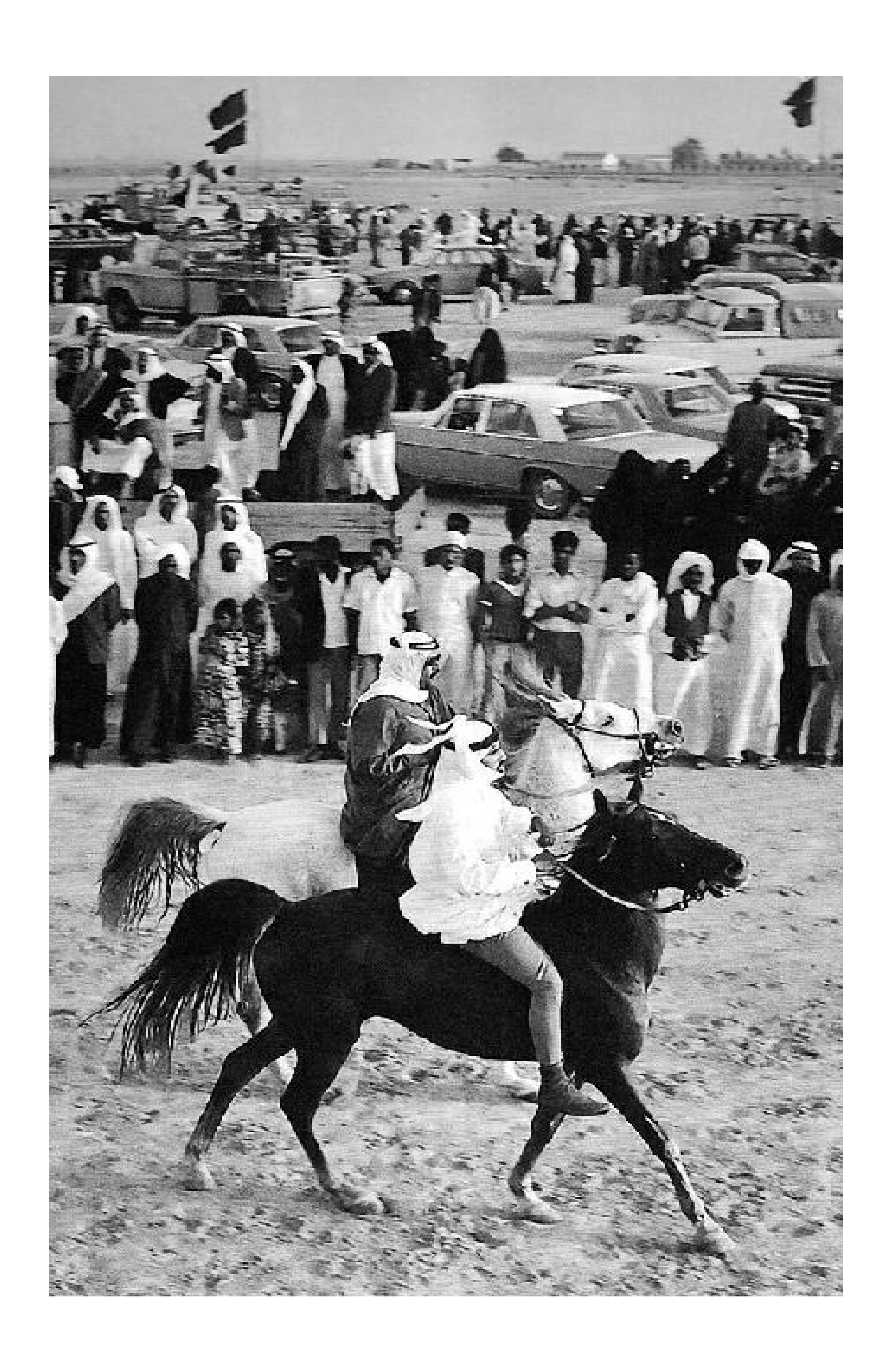
15

السباق الأول

كما الخيل الأولى، يكون السباق الأول؛ مناسبة يستحيل أن أنساها ما حييت، ولحظات إثارة وترقُّب ما زلتُ أشعر بها كلما تذكرتُها. إنها اللحظات الأولى دائماً؛ تبقى معنا، لا تذهب، الخيل الأولى، السباق الأول، الحبّ الأول. هي لحظاتٌ تبقى محفورةً للأبد.

انتشرت أخبار التحدي الذي أعلنه والدي في كافة الأرجاء. جهّز الشيخ مكتوم "العُوْدَة"، المهرة القادمة من سلالة "ويذثن"، وكان الشيخ حمدان يعمل مع الفرس "حمدانية"، أما أنا فكنتُ سعيداً مع فرسي "أم حَلَج".

توالت أفواج الناس الذين حضروا من مناطق الإمارات كافة. وعندما شعرت عائلتي وشعب دبي بأسره بأنها دعوة عامة، قام كلُّ بيت بالطهي لأبناء القبائل القادمين لحضور الحدث، رجالاً ونساءً، فجُمعت الحيوانات وذُبحت استعداداً للمناسبة. وكانت النساء قد أعددن العطور منذ أسابيع ليتطيّب بها الضيوف بعد تناول الطعام. وكان الرجال، الذين يقرضون الشعر يحضّرون قصائدهم، ويتمرَّنون على إلقائها، ويقومون بتشذيبها في "المجلس" لتُقرأ على مسامع الزوّار الشيوخ. وهناك من الرجال من كان يقوم بنشر الأخبار عن امتلاكه حصاناً عظيماً لا يُمكن لحصان آخر أن يهزمه.



أمر والدي بتسوية طريق بطول كيلومترين على شاطئ جميرا، وقام متنافسو الإمارات المجاورة بنصب خيمهم على الشاطئ، وخيّموا هناك مع خيولهم، حيث وُضعت الأعلام عند خَطَّي البداية والنهاية، وبذلنا ما في وسعنا لتزيين المشهد بإمكاناتنا القليلة. بيد أن الناس هم الذين تولّوا إعداد معظم الزينة بأنفسهم، وكانت أجواء الترقب مثيرةً جداًـ أما الحماسة التي اشتعلت قبل السباق فستعيش معي حتى آخر يوم في حياتي.

وصلتُ هناك قبل أسبوع من موعد السباق؛ فقد أرسلني شقيقاي مكتوم وحمدان قبل بدايته لتجهيز المخيّم لثلاثتنا. في تلك الليلة قطعتُ الطريق الضيّقة التي يبلغ طولها كيلومترين على قدمَيّ وأنا أقود فرسي بحبلٍ، وأحدّثُها عن السباق الذي ينتظرنا. فغداً ستكون فرصتنا لنثبت أنفسنا أمام والدي وجميع أصدقائي. ولاحظتُ أن الأرض تمّت تسويتها بشكل جيد، لكن كان هناك شقٌّ عميقٌ عند أطرافها مثل الكثبان الرملية الصغيرة. والأفضل في هذه الحالة أن يبقى المرء في وسط الطريق.

طلع الصباح بعد ليلة مؤرقة من الأحلام والترقُّب. نفضتُ النوم من عينَيّ، وفتحتُهما وأغلقتهما أكثر من مرة وأنا أتساءل فيما إذا كانت الأحلام هي السبب في غبش الرؤية الذي أحسّه. لكنه الضباب على ما يبدو! فقد كانت طبقة سميكة منه تغطي شاطئ جميرا. وكان الشيخ والمتسابقون قد جلسوا لشرب القهوة وتناول التمر ومناقشة أحوال الطقس.

سحبتُ "الكَندورَة" التي قصّرتُها وارتديتها على عجلٍ، وتوضّأت وصلّيت. ثم سارعت إلى فرسي لأغسل ضمادتها وأطعمها قبل ذهابي لسماع الأخبار. أنجزتُ كل شيء، وركضتُ لأجلس عند قدمي والدي، وأعطاني أحد أصدقائه خبزاً وقهوة. وها هو السباق على وشك أن يبدأ، فقد ارتأوا أن الضباب لن يشكل خطراً عليه ولن يحول دون إطلاقه؛ إذ يُمكنك الرؤية حتى مسافة خمسين متراً أمامك. حينها أصابني التوتر وشعرتُ بانقباض معدتي!

الخيل الأولى، السباق الأول، الحبّ الأول.. هي لحظاتٌ تبقى محفورةً للأبد

❝

ذهبتُ لأحضر فرسي ولأمشّيها قليلاً قبل السباق، وكانت تقوم بخطوة راقصة بين الحين والآخر، لكنها مشت بجانبي باتزان عموماً، وكانت عضلاتها تتموّج تحت غطائها الأسود. مسحتُ عُرفها بالماء وسبّلتُ شَعره الطويل، فظهرَ تحت أشعة الشمس أسودَ اللون بمسحةٍ من الأحمر عند نهايته. كان هناك آخرون يُمشّون أحصنتهم أيضاً، لكن فرسي بدت وكأنها تعيقهم كما كانت تعيقني. تولى الشيخ مكتوم تدريب "العُودة"، لكنه طلب من سلومة العامري قيادتها. كان يشارك دائماً في هذه السباقات، لكن مستوى المجازفة اليوم كان عالياً، فقرّر اختيار سلومة بسبب وزنه. كان هناك الكثير من الأحصنة، لكنني كنت متيقناً أن "العُودة" هي المنافس الأشدّ.

طلبوا منا أخيراً ركوب أحصنتنا، ووصلنا جميعاً نقطة البداية. ووقفَ حكَمُ البداية رافعاً مسدسه فوق رأسه والكندورة تخفق بفعل الريح، فثبتُّ نظري على إصبعه التي يضعها على الزناد محاولاً تحديد العضلات التي ستطلق الرصاصة. خاطبتُ "أم حَلَج" بلطف، وقدّرتُ أنها تحاول الاستجابة لكلماتي والتفاعل معها عندما لاحظتُ تحرّك إحدى أذنيها الحائرتين جيئةً وذهاباً، ثم انحنيتُ إلى الأمام خلف رقبتها الكبيرة وربطتُ أنشوطةً في اللجام كي لا يرتطم بفمها عندما تندفع إلى الأمام، ومررتُ أصابعي بعُرفها كثيف الشعر. وفجأة، بدّدت القرقعةُ صمتَ الصباح الذي غلّفه الضباب، وعلت الأصواتُ بمحاذاة الشاطئ. لقد بدأ السباق!

انحبست أنفاسي عندما انطلقتْ "أم حَلَج" بقوة هائلة أدهشتني. فثبَّتُّ نفسي على ظهرِها الأملس لأنني كنت أسابق من دون سرج. وكانت الأحصنة من حولي تندفع إلى الأمام مثل موجة مدٍّ وجزرٍ مهولة، وامتلأ الجو بصيحات الفرسان والهتافات. لم يتطلب الأمر سوى اجتياز 200 متر تقريباً ليستقر السباق على نمط معيّن، حيث تَقدَّم علَيّ سلومة ممتطياً "العُودة"، وبدا كالشبح في الضباب قبل أن يختفي بعيداً. كان يتوق إلى إحراز مركز متقدّم منذ البداية، وها هو يجدُ في الضباب غطاءً يحميه. قرّرتُ ألّا أنتظر مع الآخرين، وأن أحثَّ حصاني على اللحاق به. وعلى الرغم من أن سلومة كان يمتلك الخبرة الكافية ليعرف إمكانيات

فرس الشيخ مكتوم، إلّا أنني بذلتُ جهدي كي لا يغيب عن ناظري.

استعجلتُ "أم حَلَج" بقدمي، فغمرتني الفرحة وامتلأ قلبي بالفخر وأنا أرى استجابتها وإصرارها على تخطّي "العُودة". فهل هناك أروع من أن تطلب من حصان وتراه يبذل قصارى جهده وبمحض اختياره كي لا يخذلك؟

كان سلومة قد تقدّم علَيّ بخمس خطوات. وساعدني الضباب في تقليص المسافة بيننا، ولكن من دون تهديد مركزه، بالطريقة نفسها التي ساعده فيها على المحافظة على هذه المسافة. لا بد أنه شعر بشيءٍ من فرسه، لأن صوت الحوافر والهتافات المصاحبة لتلاطم أمواج البحر يُمكن أن يبتلع أيّ صوتٍ آخر من حولنا. فخطفَ نظرةً إلى الوراء ليُفاجأ بي ممسكاً بزمام "أم حَلَج"، التي غدا رأسها قريباً من خاصرة "العُودة" وهي تلتقط أنفاسَها اللاهثة المتلاحقة من فتحتَي أنفها الحمراوَين كلون الدم. كان لهذا المشهدِ وقْعُ الصاعقة عليه كما تبدّى لي، فعضضتُ على لساني بشدّة لأقمعَ ضحكةً مجلجلةً اجتاحتني فورَ أن رأيته على هذه الصورة.

كان يُفضِّل الجانب الأيمن من الطريق؛ وعندما رآني أحاول تجاوزه، راح يميل باتجاهي دافعاً إيّاي نحو الرمال العميقة، فشاهدتُ الراية في اللحظة التي لم يعد فيها متسعٌ من الوقت للالتفاف، ولم يكن أمامي سوى السير إلى الأمام بصعوبة. على الرغم من ذلك، حثَثْتُ "أم حَلَج" لتعطيني كل ما لديها من قوة، ولم تبخل عليّ بذلك أبداً، فعوّضَتْ مسافة القفزتين التي تقدّم بها سلومة عليّ وهي تعدو بتخبُّط في الرمال العميقة، وشعرتُ أن قلبي قفز خارج جسدي عندما وجدتُني أحاذيه كتفاً بكتف، لكن "العُودة" سبقَتنا بخطوة واحدة خلال تمايل رؤوس الأحصنة. وتبعني الشيخ حمدان في المركز الثالث.

يا له من فوز لإسطبلات والدي! لقد سيطرنا على جدول النتائج. شعرتُ بإحساس ملوكي حين جاء شقيقاي الكبيران لتهنئتي، ودار أصدقاء والدي حول "أم حَلَج" وأثنوا عليها وأنا أمشي إلى جوارها، فحرصتُ على تهنئتها بدوري حتى شعرتُ بالخدر يصيب يدي. وابتسم والدي وهو يخاطبني: أحسنت يا محمد، أحسنت. فتمنّيتُ أن تدوم هذه اللحظة إلى الأبد!

وفي تلك الأمسية خلال الاحتفالات، جلستُ أنا والشيخ مكتوم والشيخ

حمدان حول النار، وكان رفقةَ كلٍّ منهما عدد من الرجال مع خيولهم. وكان من المتفق عليه أن "أم حَلَجٍ" أثبتت جدارتها حتى اللحظة الأخيرة. وتحدّث الرجال عن الموقف الذي حدث قبل الوصول إلى راية النهاية، وقالوا إنني لو لم أعْلَق في الرمال العميقة لكنت تخطيّتُ "العُودة". وكانوا محقّين في ذلك، ولم يلُمْني أحد، وكان الجميع فخورين بما أنجزتُه في سباقي الأول. قد أكون شعرتُ ببعض الضيق لافتقاري للمعرفة الكافية، إلّا أن هذا لم يُقلّل من شعوري بالزهوّ عندما قرر الشيخ حمدان إضافة فرسي إلى مجموعته. مَن كان يتخيّل أن الشقيق الأكبر الذي أوقّره سيُبدي رغبته باقتناء فرسٍ أعددتُها بنفسي؟

"

انحبست أنفاسي عندما انطلقتْ 'أم حَلَجٍ' بقوة هائلة أدهشتني. فثبَّتُّ نفسي على ظهرِها الأملس لأنني كنت أسابق من دون سرج

"

في تلك الليلة، نهضتُ بعد أن نام إخوتي واتجهتُ نحو فرسي، فبسطتْ ساقيها وغمرتْهُما في الرمل ورفعتْ رأسها وصهلتْ عند اقترابي منها كأنها تُحَيّيني بهدوء. وقفتُ أمامها وتأمّلتُ النجمة البيضاء التي تمدّدت بخطوطها الرفيعة على وجهها الأسود، ولمستُ بأصابعي لفّة الشعر على منتصف جبينها، وتنفستُ بعمق، ثم انحنيتُ لأقبّل أذنها المشقوقة، وجلستُ بالقرب من بطنها لأخبرها أنها ستكون مع حمدان. فهذا ما تعلّمناه في الصحراء؛ طاعة الكبار أهم من كل شيء، ويشرّفني أنه يريدها، إلا أن ذلك لم يمنع قلبي من الشعور بالانكسار.



أخي الشيخ مكتوم بن راشد مع الفرس "سُودا (أم حَلَج)"

العلاقة التي تربطك مع خيلك قد تكون قوية وعظيمة، ولكن علاقة الأخوة أقوى وأعظم. أعطيتُ فرسي سعيداً لأخي الشيخ حمدان الذي طلبها ليضمَّها إلى مجموعته. وأعطاني هو الحرية الكاملة لأختار أي فرس من إسطبله.

راقبتُ على مدى أيام أحد أحصنته التي سبق لها أن خاضت السباق، وكانت هذه الفرس تعاني من مشاكل شبيهة بتلك التي عانت منها "أم حَلَج"، فانتظرتُ إلى أن بدا الشيخ حمدان في مزاج رائق، وطلبتُ منه أن أحصل عليها، فابتسم وقادها إليّ، كان اسمها "رومانية". وها قد حانَ وقت العمل مجدَّداً!

16
مطـــار فـي دبـــــي



مطار دبي في الستينات

شكلت رحلتي الأولى إلى لندن في صيف عام 1959 مع والدي محطةً فارقةً في طفولتي. أحببتُ لندن قبل الوصول إليها. وصفتها لي والدتي عندما أخبرتني عن الخضرة الممتدة على مدّ البصر، والأشجار التي تملأ الشوارع. أخبرتني بأننا سننام في مبنى شاهق، لأن الجوَّ هناك يناسبه

النوم في الداخل وليس كما نفعل في دبي عندما ننام على السطح. أخبرتني والدتي عن الأعداد الكبيرة من البشر الذين تعجّ بهم لندن، وملابسهم التي تشبه ملابس الضباط الإنجليز. وأخبرتني عن سباقات كثيرة للخيول في تلك البلاد. كانت والدتي تحمِّسني للرحلة المرتقبة، وابتاعت لي كندورتين جديدتين وسترةً جميلة من أجل سفرة لندن.

أما والدي فكانت له نظرة أخرى. قضى والدي الأيام القليلة قبل الرحلة في صمت؛ كان يفكر كيف سيطرح الكثير من المواضيع، وكيف يستطيع العودة من لندن بأكبر عدد من المكاسب. كانت علاقاتنا مع البريطانيين باردة وتتميز بالمجاملة ظاهرياً، ولكن في قرارة أنفسنا كنا ننتظر اليوم الذي يرحلون فيه عن بلادنا. حكمتنا معهم معاهداتٌ واتفاقياتٌ نتولى من خلالها شؤوننا الداخلية، ويتولون هم الشؤون الخارجية والدفاع.

لم يكن يقطع صمت والدي إلا أسئلتي الكثيرة؛ من سنقابل؟ سنقابل رئيس الوزراء يا محمد. ومن هو رئيس الوزراء؟ هو مثل الشيخ عندنا. ولكن ما دور الملكة؟ هي شيخة أيضاً ولكن رئيس الوزراء هو الأهم. ماذا سنناقش؟ أريدك أن تركِّز يا محمد في كافة النقاشات وتنتبه لما يقوله المترجم. سنناقش الكثير من المواضيع المهمة. نريد مطاراً في دبي. وسنناقش قضايا أخرى. نعم يا أبي، نريد مطاراً في دبي.

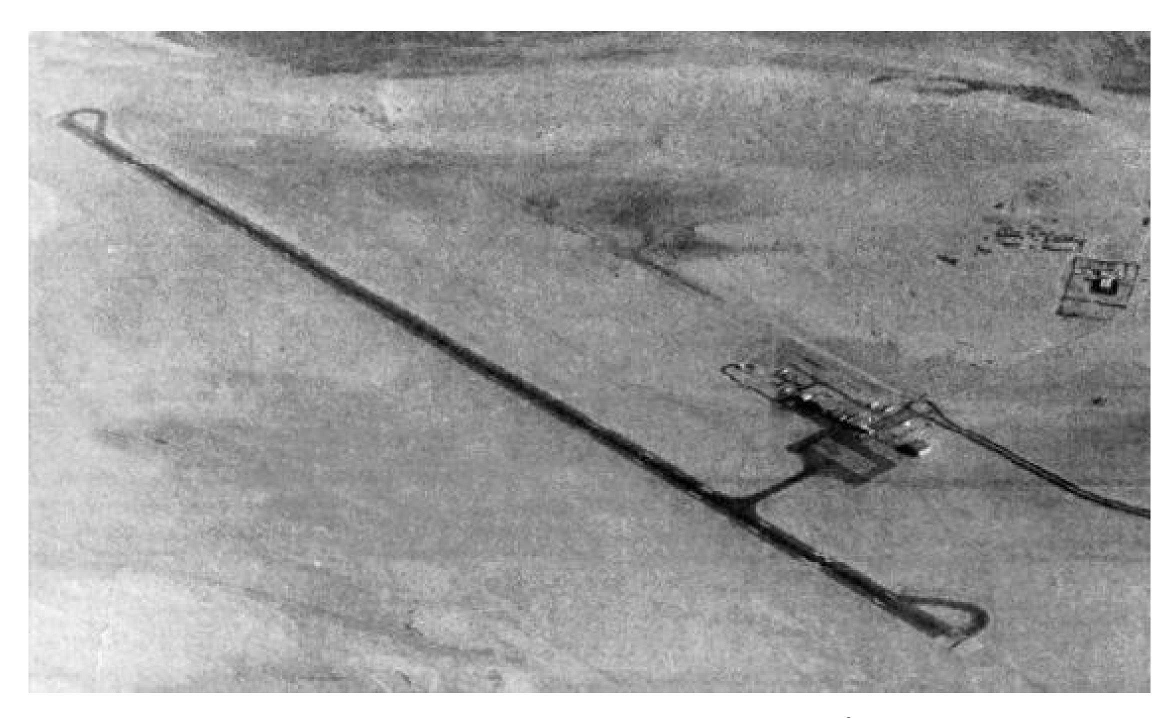
كانت الطائرات القادمة إلى دبي تنزل في مياه الخور، ولم يكن ممكناً استقبال الطائرات التجارية الكبيرة من خلال الخور. كنا نستخدم مطار الشارقة. وكان والدي يريد بناء مهبط للطائرات مكان المطار الحالي. كان البريطانيون يرفضون إعطاء دبي حق إنشاء مطار بحجة كفاية المطار في الشارقة حيث توجد قاعدتهم العسكرية؛ كانت نظرتهم أمنية وكانت نظرتنا تنموية. وكانت رحلة لندن محورية لحسم هذا الملف.

"المستحيل وجهة نظر، والعالم يفتحُ الأبوابَ
لمن يعرف ماذا يريد"

كان السفر للخارج أمراً محفوفاً بالمشاق؛ إذ كان يستغرق عدة أيام والعديد من رحلات الربط والتوقُّف الإجباري في عدة مطارات.

وصلنا إلى لندن. وقفتُ خلف والدي أترقّب باب الطائرة وهو يُفتح، وقبل أن أراها من وراء قامة والدي الطويلة، رحّبت بي إنجلترا بطريقتها الخاصة؛ بنفحة من الهواء البارد الجاف.

كان المطار كأنه مستعمرة نمل، يكتظّ بأعداد هائلة من الناس، يمشون بسرعة للحاق برحلاتهم. وكانوا يقفون في صفوف طويلة لدخول لندن أو الخروج منها. كان منظر المطار مذهلاً ومهيباً، منظراً يعبّر عن قوة لندن، وعن ضخامة حركتها الاقتصادية. كان يكفي أن ترى المطار لتحترم هذه الدولة.



أول مهبط للطائرات في مطار دبي | عام 1959

لا أدري لماذا ارتبطت حركة المطار النشطة في ذهني منذ ذلك الحين بقوة الدولة أو المدينة التي يمثلها. المطار يمثِّل الواجهة، ويمثِّل القوة ويمثِّل التجارة، ويمثِّل رغبة الملايين لزيارة هذه المدينة. نحن اليوم هنا لنحاول بناء مطارنا في دبي؛ هل سيكون في يوم من الأيام كمطار لندن؟ لم أكن أعرف ماذا تخبئ الأيام لي ولدبي، ولكني كنت أعرف شيئاً واحداً: لسنا أقلَّ من الآخرين.

صافحْنا عدداً من الأشخاص قبل أن نركب السيارات التي كانت بانتظارنا. وطوال تلك الفترة كان الشيخ مكتوم الذي رافقنا يتوقّف ليدفعني لأسير أمامه، وإن لم يفعل ذلك كنتُ سأظل واقفاً في مكاني لشدّة الذهول. في الطريق جلستُ وأنفي ملتصقٌ بالنافذة. كانت أمي محقّة. كلّها خضراء! لا وصفَ كان كافياً ليجعلني أتخيّل جمال هذا المكان. كانت التلال المكسوّة باللون الأخضر تمتدّ على وسع النظر. طلبت من أبي تخفيف السرعة كي يتسنّى لي الاستمتاع بالمناظر! ابتسم وطمأنني بأنه سيكون لديّ متَّسع من الوقت. وهكذا أسرعنا في طريقنا إلى الفندق.

عندما وصلنا إلى غرفتنا، جلس والدي على سريره. كان يبدو عليه الانشغال الذهني والتفكير العميق. استيقظتُ صباحاً، ولكن بعد ليلٍ صاخبٍ لم يهدأ. كانت أصوات صفارات الإنذار والحريق تقلق نومي. فتحتُ عينيَّ لأرى والدي يبتسم في وجهي بعينيه. "محمد.. تعال! اغتسلْ وصلّ وارتدِ ملابسك! يجب أن نقابل رئيس الوزراء".

عندما وصلنا إلى شارع "10 داوننغ ستريت"، مقرّ رئاسة الوزراء في لندن، طُلب مني الجلوس مقابل رئيس الوزراء آنذاك هارولد ماكميلان، أو "الشيخ ماكميلان" كما كنت أسمّيه. كنتُ أتتبّع حركات هذا القائد وأدرسها باهتمام. شعرتُ بالاستفزاز عندما رأيته يرفع ساقه ويضعها فوق الأخرى. كانت تلك بمثابة إهانة كبيرة في الجزيرة العربية؛ أن تضع ساقاً فوق الأخرى في وجه الضيف، فقد كان هذا السلوك ينبئ عن نظرة استعلاء تجاه الضيف. كنتُ مستعداً للتعامل مع الرجل لتصحيح هذا الخطأ الجسيم قبل أن ألاحظ والدي وقد جلس على يمينه وليس مقابله. عندها تنفّستُ الصعداء وشعرتُ براحة. كان صوت تنهيدتي مسموعاً، لدرجة أن والدي قرأ أفكاري وابتسم في وجهي ابتسامة صارمةً ولكن مشجعة.

تذكرتُ حينها بأن عليّ أن أجلس باستقامة، وأستمع جيداً، كما قال لي والدي.

أنْصتُّ باهتمام إلى المترجم المهذّب الذي كان يترجم نقاشهما حول موضوع مهبط الطائرات. كان والدي حازماً خلال النقاش حول قدرة دبي على تشغيل المطار، واحتياجاتها المتزايدة لتكون مربوطة بخطوط طيران مباشرة مع بقية دول العالم. وفي ختام نقاش طويل، حصلنا على الموافقة لبناء مهبط جديد.



مطار دبي في خمسينات القرن الماضي

كنتُ من أكثر الناس حماسةً لإنشاء مطار جديد في دبي. وبعد سنوات من إنشاء المطار في السبعينات، كلّفني والدي بقيادة التطوير في مطار دبي. أضفتُ الكثير من المباني، وأعلنتُ سياسة الأجواء المفتوحة، وربطتُ ذلك مع تطوير السياحة عبر تطوير أول استراتيجية سياحية في دبي. أنشأنا "طيران الإمارات" وبذلنا جهوداً كبيرة لتطوير مطار دبي وجعله نقطة ربط عالمية.

اليوم، تستقبل مطاراتنا أكبر عدد من المسافرين الدوليين على مستوى مطارات العالم، وتستقبل مدننا أكثر من 20 مليون سائح سنوياً، وتزدحم أجواؤنا بأكثر من 113 شركة طيران تربطنا مع كافة مدن العالم.

المستحيل وجهة نظر، والعالم يفتحُ الأبوابَ لمن يعرف ماذا يريد.

17

الغوص في حياة الناس



طلب مني والدي أن أضيف مهارةً جديدة إلى مهاراتي، وخبرةً مختلفةً إلى خبراتي، وجانباً آخر من الحياة لم أعتد النظر إليه؛ مهارة التعامل مع البحر والمشاركة في رحلات الغوص.

كنت قد اعتدتُ السباحة في مياه البحر الضحلة مع الأصدقاء. ما أذكره أنّ للبحر رائحةً وصوتاً. أما رائحته فهي قوية تملأ الأنفاس، وتبثُّ في النفس النشاط، تشبه رائحة العشب عند نزول المطر بعد انقطاع. وأما صوت البحر فما أجمله؛ موج هادر أو هادئ، يبعث في النفس الراحة، ويحفِّز القلب على الإبداع، وخاصة إن اختلطت أصوات أمواجه بصوت النوارس التي تحوم عند سحب شباك الصيد كأنما تغني فرحةً بصيده الوفير.

تلك كانت أحاسيسي عن البحر؛ أصوات وروائح وذكريات جميلة عندما كنا نلعبُ مع الأصدقاء ومع خيولنا على شاطئه الجميل. ما لم أكن أعرفه أن البحر ليس فقط صوتاً ورائحة وذكريات طفولة، بل هو أفراح وأتراح، وآمال وآلام وقصص كثيرة عاشها أهل دبي نتيجة تعاملهم المستمر مع البحر؛ قصص لم أكن أتخيّلها حتى أمرني أبي بارتياد البحر وتعلُّم بعض أسراره وقصصه.

كان والدي يرسلني أحياناً عند شخص من الثقاتِ يُدعى "أبو جابر". وأبو جابر من رؤساء الأسطول البحري، وصل إلى هذا المنصب بتجربته المتراكمة ومعرفته المتوارثة. كان يُلقَّب باسم "السردال".

و"السردال" في لغة أهل البحر هو كبيرهم وأخبرهم بالبحر ومواسمه ورياحه ومواقيته؛ هو من يعلن بداية موسم الغوص، حيث ينتظر هدوء البحر في أشهر الصيف ليعلن بداية الموسم، كما يعلن نهايته مع بدايات الشتاء.

ويحدّدُ "السردال" بداية الموسم بناءً على حركة الأمواج، ويتعرّف على الاتجاهات بتتبُّع مواقع النجوم. وللسردال قدرة على رسم خريطة لقاع البحر وما يوجد فيه؛ فكما بإمكاننا قراءة أرض الصحراء من آثار الأقدام وتخيُّل الأحداث التي وقعت، يمكننا أيضاً استخدام المبادئ نفسها لتصوُّر قاع البحر والتعرُّف على طبيعته. كان البحارة يربطون كتلةً ثقيلةً من الرصاص، أو "الوزن"، بحبل ويلقونها في البحر لتحديد عمق المياه، ويقيسون المسافة بـ "الطباع"، أي تكرار فرد الذراعين على امتدادهما في كل مرة. وكان أبو جابر قادراً على معرفة مكوّنات القاع من خلال ما يعلَق منها بكتلة الرصاص، كما كان قادراً على قياس قوة الموج من خلال تأثيره على حركة الحبل.

كان أهل دبي يغوصون في الصيف بشكل رئيسي حيث تكون المياه دافئة، فيستطيع الغوّاص تكرار الغوص أكثر من مرة، طلباً للمزيد من

المحار – الذي يضم اللؤلؤ الثمين – والذي يكون على أعماق متفاوتة وفي مناطق مختلفة.

لكن لمن لا يعرف صيف دبي، رغم دفء المياه في العمق، فإن الحرارة على سطح الماء تكون لاهبة، مما يصيبُ الكثيرَ من البحارة بالجفاف بسبب قلّة المياه التي يحملونها. وأكثر ما قد يفاجئ المرء في رحلات الغوص تلك آبار المياه العذبة ومجاريه الصافية التي تكون في مناطق محدَّدة في البحر، فكان الغوّاصون يستقون منها المياه أثناء رحلات الغوص. وكان يعرف مواقعَها أهلُ الخبرة والتجربة.

هناك أيضاً "الغوص البارد" أو "غوص الشتاء"، وهو مخصص لمن لم يحالفه الحظ في أشهر الصيف الطويلة اللاهبة، فيحاول مرة أخرى في الشتاء.

"القائد الإنسان لا بد أن تكون قدماه على الأرض، يعيش مع البشر، يكابد أحوالهم، ويعايش حياتهم، ويعرف أدقّ تفاصيل معاناتهم، حتى يستطيع تغيير حياتهم للأفضل"

والغوص البارد هو الأصعب نتيجة برودة المياه، حيث يختصر الغواصون وقت الغوص، ويكون البحر في حالة غير مستقرة، إذ تهيج أمواجه أحياناً، وتشتدّ رياحه، فتحمل الخوف والجزع لتلك المراكب الصغيرة التي تبحث عن بعض المحار في قاعه. وكم حملت تلك الرياح من الأنباء السيئة لأهل دبي.

كان والدي يرسلني إلى أبو جابر لأتعلم منه عن البحر وأحواله وخيراته ومواسمه، ولكن أكثر ما تعلمتُ من رحلاتي معه هو صعوبة الحياة في البحر، والتحديات التي كان يواجهها أهلنا عند طلب الرزق من خيراته. لم

يعرف أهل دبي صعوبة الحياة في الصحراء فقط، وإنما في البحر أيضاً. ولا تستطيع معرفة ذلك إلا بالعيش معهم والخروج في رحلات الغوص كفرد منهم.

يقولون إنّ القائد لا بد أن تكون له عين طير، ينظر للأمور من فوق ليستطيع تلخيصها وتجريدها واتخاذ قرارات بشأنها. وأنا أقول بأن القائد الإنسان لا بد أن تكون قدماه على الأرض، يعيش مع البشر، يكابد أحوالهم، ويعايش حياتهم، ويعرف أدقّ تفاصيل معاناتهم، حتى يستطيع تغيير حياتهم للأفضل.

لم أكن أخفي انبهاري بالغواصين وهم يستعدّون للغوص، متابعاً استعداداتهم. وخلال تلك الرحلات كنتُ أساعد في عملية التحضير، كتحميل القوارب بالمؤن، وهي كميات قليلة من التمور واللحوم المجفّفة والمياه. كان "السردال" يحدد المناطق التي ينتشر فيها اللؤلؤ. وكان الغواص يقفز تحت الماء واضعاً عظمة سمك على أنفه لسدِّه، وحبلاً يُربَط على عنقه، ويمسكه "السايب" أو الرجل الذي يسحبه إلى الأعلى. يملأ الغواص رئتيه بالهواء ويغوص في الأسفل، لا أحد ينبس بكلمة أعلى القارب، ولا يُسمع إلا صوت تمايل القارب استجابةً لموج البحر. وما إن يشدّ الغواص الحبلَ حتى يقوم "السايب" بسحبه إلى الأعلى بسرعة، إذ يكون الغواص حينها منقطع الأنفاس، وتعوزه الطاقة للسباحة إلى سطح الماء.



لم يكن مستغرباً وقوع الكثير من الحوادث والوفيات المأساوية في رحلات الغوص. ولأن الجثة ستتعفّن إذا بقيت على سطح القارب، كانوا يصلّون على الميت ثم يلقونه في البحر. وفي أحيان أخرى، يكون سبب وفاة الغواص إهمال "السايب" أو عدم شعوره بحركة الحبل، وأحياناً قد يُرفع الغواص إلى القارب ولكنه لا يتمكن من التنفس بالشكل الصحيح فيختنق. والمحظوظون فقط هم الذين يعودون بإصابات طفيفة، كانثقاب طبلة الأذن، حيث يتم تسخين قطعة من الحديد ووضعها على طبلة الأذن لتسريع الشفاء، مما يسبب ألماً شديداً للمصاب إلى درجة تدفعه للصراخ بطريقة مريعة.

على الرغم من القصص والحوادث المأساوية، إلا أن هناك جوانب عظيمة في هذه الرحلات؛ هناك عمل دائم، وروح تعاون، وفرح كبير بحصيلة الغوص، وأمسيات جميلة وحكايات ممتعة فيها الكثير من المغامرات والعجائب.

أما عودة تلك الرحلات، فكان حدثاً اجتماعياً كبيراً، حيث يكون في الانتظار جيش من الأطفال والنساء الذين يستقبلون أهاليهم بكل فرح؛ صيحات احتفالية تختلط مع أصوات المجاديف وانكسار الموج على الشاطئ.

عرفتُ بأن البحر ليس صوتاً ورائحة فقط، بل مشاعر جياشة، وقصصاً إنسانية، وأحاسيس فرح أو ترح في نفوس الكثير من أبناء شعبي.

جلستُ في لحظاتٍ من الهدوء والسكينة أتأمّل البحر، وأمرّر حبّات الرمال البيضاء بين أصابعي، ثم توجّهتُ إلى الله بدعائي؛ أن يعينني على خدمة هؤلاء الناس يوماً ما.

18
شبيه جدي



مع أخي الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم | عام 1961

شعرتُ بيدٍ تهزّ كتفي بلطفٍ وأنا أغطُّ في النوم. لم أجهد نفسي في

معرفة من أيقظني، وظننتُ في بادئ الأمر أن هذا يحدث لي في عالم الأحلام. "محمد، محمد استيقظ، هذا أنا مكتوم". رجع إلى الوراء لأنه يعلم أن ردّ فعلي الأول سيكون النهوض من الفراش بسرعة استعداداً للقتال. ارتسمت على محيّاه ابتسامةٌ خفيفةٌ وهو يقول: مهلاً يا محمد، مهلاً، أنا مكتوم! كان يحمل مصباحاً أضفى مسحةً من الدفء على وجهه وسط برودة الهواء في الغرفة. وأضاف بهدوء: ستَلِدُ فرسي بعد قليل، وقد طلبتَ مني أن أوقظك عند الولادة. علت وجهي ابتسامةٌ كبيرة وتوجهتُ فوراً لغسل وجهي بالماء، ثم تبعتُ خطواته المتسارعة إلى الإسطبلات.

كانت عيناه واسعتين وحنونتين، تشبهان عيني أمي، وخدّاه ممتلئَين، ووجهُه تزيّنه شامتان؛ واحدة على خدّه الأيسر؛ والثانية كبيرةٌ على ذقنه. كان أكثرنا لطفاً، وليناً وطيبةً وتواضعاً. كان مختلفاً؛ كانت أمي تقول: إنه أشبهكم بجدّكم الشيخ سعيد رحمه الله.

كان مكتوم من أكثر الناس حبّاً للخيل، وكان إحساسه باقتراب موعد الولادة لا يخيب أبداً. لذلك طلبتُ منه أن يوقظني عند ولادة فرسه. نظرتُ إليه وكأنه مثَلي الأعلى وبطلي، وقبل أن أفتح باب الإسطبل بلهفةٍ كانت يده تمسك بكتفي من الخلف محاولةً كبح جماحي وهو يقول لي محذِّراً: بهدوء يا محمد، لا تزعجها. تساءلتُ وأنا ألتفتُ إليه؛ كيف عرف أنني سأفتح باب الإسطبل بسرعة؟ تنهّد بعمق ثم ابتسم قائلاً: أنتَ لا تدخل إلى أيّ مكان بهدوء! مسح شَعري الذي يصل طوله إلى كتفي برفق، وقادني بهدوء لنجلس عند زاوية غرفة الفرس. وطوال الوقت كان يتحدث بصوتٍ خفيضٍ بالكاد يُسمَع.

أردتُ مساعدة الفرس، لذا تقدّمتُ لأمسك قائمتَي المهر الصغيرتين بينما وقف مكتوم جانباً وهو يبتسم. بدأتُ سحبَ المهر تبعاً لتعليماته، في الوقت الذي كانت فيه الفرس تدفع المهر أيضاً. حرصتُ على الضغط بشكل خفيف وعدم السحب بقوة، واستمررتُ بهذه الطريقة حتى خرج رأس المهر وكتفاه ووسطه، وبعد دَفعةٍ أخيرة خرج المهر وهو يرتجف وارتمى في حضني. رفعتُ المهر بعناية وكأنه تحفة فنية ووضعتُه عند رأس أمّه، ثم أعطاني أخي منشفةً لتجفيفه بلطف.

غمرتني الفرحة لأنني شاهدتُ بأمّ عيني هذه المعجزة، ومشاعر الامتنان لأخي الذي أيقظني لأكون جزءاً من هذه التجربة.

جلستُ وعلامات التعجب ترتسم على وجهي، فابتسم مكتوم مرة أخرى وهو يقول:

أنت مساعد رائع يا أخي، سأستعين بك عند ولادة كل فرس من الآن فصاعداً.

فرحتُ بما قاله، وجلسنا فجراً لنراقب الفرس وهي تلْعقُ وليدها، وتمدّدتُ بكل فخر على صدر أخي مكتوم سعيداً بانطباعه عن أدائي.

كان أخي قد عاد خلال إجازة الربيع من أحد معاهد اللغات في كامبريدج، حيث بدأ تعليمه الرسمي فيه عام 1960. أخبرني أنه في بداية دراسته كان يفضّل أن يلتزم الهدوء وينتظر حتى يطلب الآخرون صداقته، فقد كان مكتوم هادئاً ومحافظاً ويتحلّى بالأخلاق العالية وعزَّة النفس. وعلى خلافي، كان يبدو وكأنه محاطٌ بهالةٍ من السلام والهدوء، وأنه السكينة بحدّ ذاتها. أما أنا فكنتُ كالشُّعلة لا يقرّ لي قرار، بينما كان أخي حمدان مثل مكتوم في الأخلاق واللباقة، ولكنه كان مهتماً بالناحية الأكاديمية ومحبّاً للأرقام والمكاتب والأوراق.

ذكرياتي مع الشيخ مكتوم كثيرة وجميلة، سفراتي معه متعدِّدة. الليالي التي قضيتها معه نتحادث ونتناقش لا حصر لها. كان للشيخ مكتوم حكمة وروِيَّة وسعة بال وطيبة نفس، رآها فيه الشيخ راشد فكلَّفه بإلقاء الخطاب الرئيسي في حفل تنصيب الشيخ راشد حاكماً لدبي حينها، عرف الناس أن مكتوم أصبح ولياً للعهد، فارتضوه وأحبّوه، وأحبّوا عشرته ولينه وقربه من الناس.

لعب الشيخ مكتوم دوراً رئيسياً في قيام اتحاد دولة الإمارات، وساهمت حنكته وحكمته في حلِّ الكثير من الإشكالات العالقة أمام قيام الاتحاد الذي تولى رئاسة أول مجلس للوزراء فيه.



مع أخي الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم

كان التطوير حلماً بالنسبة إليه، ولكنه كان يعرف أنه غريزة ومسألة حياة أو موت بالنسبة لي





في أحد الاجتماعات مع الشيخ زايد وأخوَيْ الشيخ مكتوم والشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم

بعد مرض والدي في بداية الثمانينات، أدار الشيخ مكتوم السفينة بكلِّ حكمة واقتدار ورويَّة، وكنّا معه وبه عضداً وعوناً له في مسؤولياته.

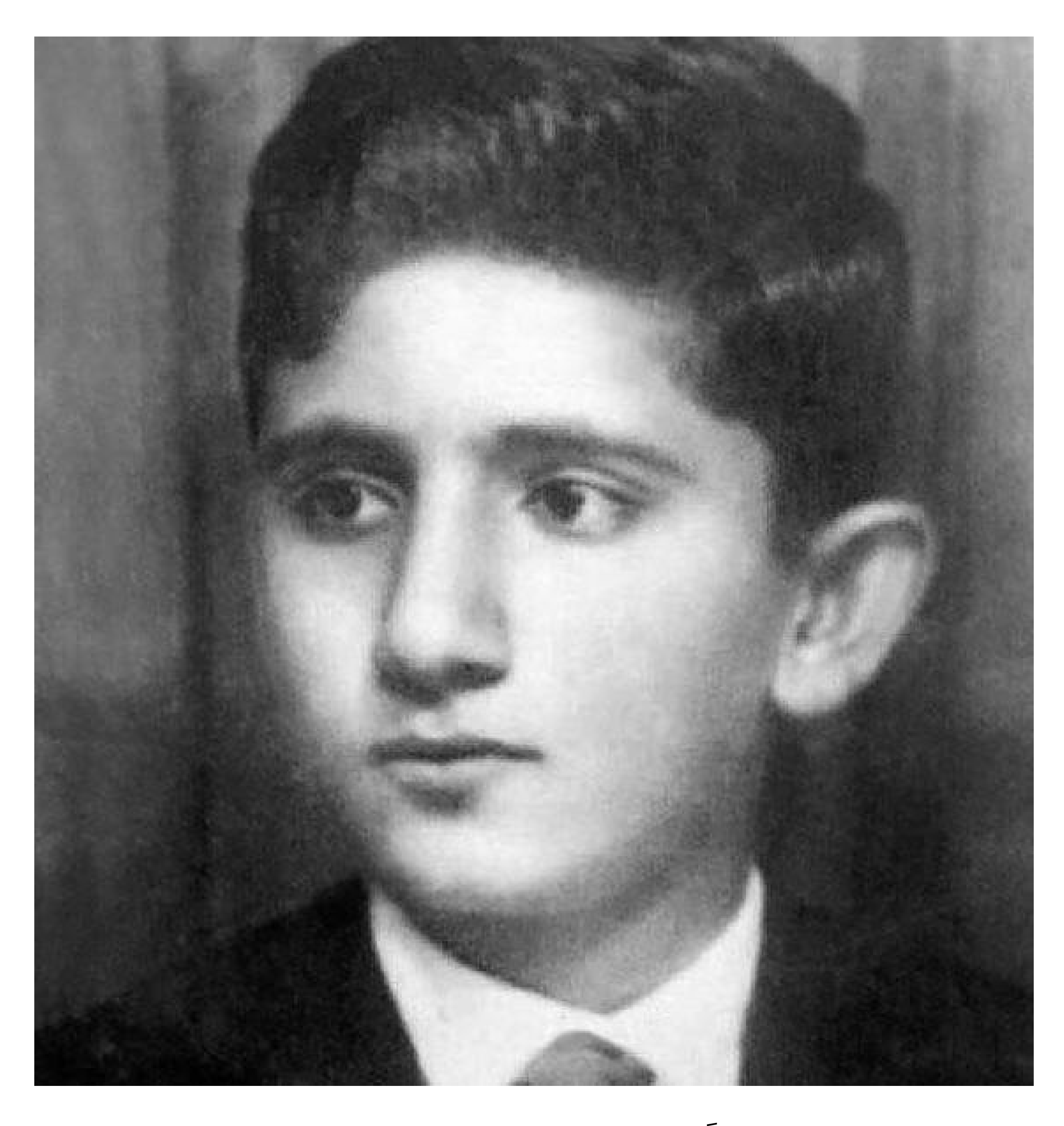
من اللحظات التي لا أنساها مع أخي الشيخ مكتوم رحمه الله عندما طلب مني أن أصبح ولياً للعهد في إمارة دبي. رفضتُ الطلب في المرة الأولى بكلِّ لباقة وأدب. وبعد فترة كرّر طلبه. تحدّثنا طويلاً، وضّحتُ له سبب رفضي ولاية العهد. قلتُ له بأن طريقتي في الإدارة ستزعج الكثيرين، وقد تدمِّر الكثير من العلاقات الشخصية الحالية. صارحته بآرائي التي أتبنّاها حول الإدارة، وصارحته أيضاً بأن كثيرين استمرّوا على النظام

الإداري الذي وضعه والدي قبل سنوات طويلة ولا يريدون تطويره، لأنهم تعوّدوا عليه. كان مكتوم يقول لي بأن التطوير هو ما تحتاجه دبي. وفي النهاية أقنعته بأن الوقت غير مناسب لي لتولي هذه المسؤولية، واتفقنا على تأجيل هذا الحديث.

بعد أربع سنوات، عاد أخي مكتوم إلى الموضوع نفسه. لم أنسَ ذلك اليوم أبداً. طلب مني أن أكون ولياً للعهد. ظلت عيناه تنظران إلى قسمات وجهي بكل عمق، كأنه يقول لي بأن الوقت قد حان، وكأنه يقول لا تخيِّب ظنّي فيك هذه المرة. أجبتُه بالموافقة. ترقرقت عيناه بالدموع، وعانقني بكل قوة.

يسألني الكثيرون: كيف شعرتَ عندما استيقظتَ صباح اليوم التالي وقرأتَ مرسوم تعيينك وليّاً للعهد؟ الحقيقة هي أنني لم أنم تلك الليلة، ولم يكن لدي الوقت لقراءة الأوراق، فقد بدأتُ العمل لحظة مغادرتي المجلس. عرف مكتوم ذلك وهذا ما اعتمد عليه. كان التطوير حلماً بالنسبة إليه، ولكنه كان يعرف أنه غريزة ومسألة حياة أو موت بالنسبة لي.

19
كامبريدج



لم يواجه والدي صعوبةً في التعامل مع البريطانيين الذين يجيئون إلى مجلسه سواء كانوا من العسكريين أو التجار؛ إذ كان يقابلهم بابتسامة

لطيفة تفيض تعابيرها من عينيه. كان الأمر ذاته مع الأمريكيين من دبلوماسيين أو مستثمرين، والذين كان يخبرهم بقصّة أو يروي طرفةً. ومع ذلك، فقد كانت كل تلك الجلسات المطوّلة في المجلس تتمّ بوجود مترجم، بينما ينثر والدي بضع كلمات إنجليزية هنا وهناك خلال حديثه.

وعلى الرغم من أن ضيوفه كانوا يغادرون مأسورين ومعجَبين بأجواء الجلسة؛ إلّا أنه كان يخرج وعلى وجهه أمارات الغضب، يُشعل غليونه الصغير ويأخذ نفَساً عميقاً ثم ينظر بعمق إلى والدتي ويقول: يجب على الأولاد أن يذهبوا في أقرب وقت. وما إن يقول ذلك حتى تبدو علامات الحزن في عينيها، فيربّت بيدٍ حنونةٍ على كتفيها وهو يخاطبها بهدوء: لطيفة، لا يمكنني أن أعرّضهم لما أشعر به من عجز بسبب عدم قدرتي على تكلّم هذه اللغة بطلاقة، لغة مَن نحتاجهم لمساعدتنا.. يجب أن يذهبوا قريباً.

كان تعلم اللغة الإنجليزية موضوعاً في غاية الأهمية بالنسبة لوالدي، حيث بدأت دبي في الستينات تتعامل مع كبرى الشركات الأجنبية، وبدأ الحراك التنموي في تسارع مذهل؛ من المشاريع التي كان والدي يطلقها، والعقود الكبرى التي نتفاوض عليها، إلى مواصلة التنقيب عن النفط في دبي، قبل أن يتم اكتشافه في حقل "فتح" عام 1966، وهو العام نفسه الذي طلب مني والدي فيه التوجّه إلى بريطانيا لتعلُّم اللغة الإنجليزية.

كنتُ متعطِّشاً، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لكل ما سأراه وأتعلّمه في الخارج. بمجرد أن أخبروني أنني سأسافر، بذلتُ كلَّ ما في وسعي لأكون على أهبة الاستعداد، فخصّصتُ وقتاً من يومي لدراسة اللغة الإنجليزية وممارستها بمفردي، كما حرصتُ على أن أصبح أفضل. لم يكن هناك الكثير مما يمكنني فعله، ما عدا تذكير نفسي دائماً بأنني سأتولى مسؤوليةً ضخمةً في وطني، وأنني لن أضيِّع دقيقةً واحدةً من وقتي فور وصولي إلى إنجلترا لأحقّق ما أصبو إليه.

في أغسطس من العام 1966، وصلتُ إلى منزل السيدة "سمرز" (Mrs.Summers) الواقع في "15 بروكسايد، كامبريدج". تأملتُ هذه المرأة التي تبدو عليها علامات اللطف والطيبة، وتأمّلتني هي الأخرى بالمستوى نفسه من الاهتمام، ثم طلبتْ مني اللحاقَ بها لأرى غرفتي بينما انهالت عليّ بسيلٍ من الكلمات التي لم أفهم منها شيئاً، إلا أن نبرة صوتها أظهرت لي أنها كلمات وصفية وتوضيحية وترحيبية.

وبمجرد أن أغلقتُ باب غرفتي انتابتني مشاعر جيّاشة من الحنين للوطن والأهل والأحبة. أمضيتُ معظم وقتي خلال فترة الظهيرة في الصلاة والدعاء، إلى أن جاءت السيدة "سمرز" وطرقت باب الغرفة وهي تقول: العشاء يا مكتوم. وما إن فتحتُ باب الغرفة حتى تسلّلت إلى أنفي روائح غريبة ولكن مثيرة للاهتمام. كانت قد وضعت ثلاثة أطباق على المائدة؛ لحم، وبطاطا مهروسة، وبازلّاء خضراء. أكلنا جميعاً، وفي نهاية الوجبة، وقف الجميع في تناغم تام ومن دون سابق إنذار، مما أثار دهشتي. تركوني في مكاني وأنا أنظر في طبقي وأتساءل عمّا ينبغي عليّ فعله، حتى رأيتهم يتّجهون نحو المغسلة.

كنتُ سعيداً لأن وجبتنا الأولى مكوّنة من لحم فخذ الخروف، واعتقدتُ أنهم مثلنا نحن العرب؛ يذبحون الذبائح لتكريم الضيوف. حاولتُ أن أفعل شيئاً مفيداً، فأخذتُ ما تبقّى من اللحم وذهبتُ لأرميه، إلا أن مضيفتي اعترضتْ وبدأت تتحدّث بصوتٍ مرتفع. فكّرتُ في نفسي: لا بدّ أن هناك أشخاصاً آخرين سيأكلون هذا الطعام. يا له من تصرُّف أرعن من طرفي. لعلها كانت تريد أن ترسله للجيران.

لاحظتُ أن اللحم وُضع في الثلاجة. لقد عشتُ في مجتمع يعرف الجميع فيه بعضهم بعضاً، ولم يكن من الضروري أن يتبقّى فائضٌ من الطعام كي يتم إرساله للآخرين. عندما كنا نجلس معاً ونستمتع بوجبة شهية، كانت أمي تحمل الطبق وتغلّفه وترسله للجيران أو الأقارب؛ فهذه من تقاليد العرب الأصيلة.



منزل السيدة "سمرز"، كامبريدج | عام 1966

"

كانت الأحاديث والنقاشات على طاولة المطبخ من الأمور التي أحببتُها في هذه الثقافة؛ فهذا النمط ليس موجوداً في ثقافتنا التي يكون النقاش والحوار فيها أكثر تحفظا

"

في اليوم التالي، ذهبتُ معهم لأستطلع عالمي الجديد. رأيتُ الأماكن المحيطة بي، وحاولتُ أن أستوعب تخطيط الشوارع والمحلات التي أخذتني إليها السيدة "سمرز". كنتُ سأبدأ دروسي في مدرسة "بيل" للغات في كامبريدج بعد يومين، لذا قمنا بشراء الكتب المدْرَجة في المنهاج. عدنا إلى المنزل لتناول وجبة الغداء التي كانت تشبه إلى حدّ كبير وجبة العشاء في اليوم السابق. عادت قطع لحم الخروف إلى وسط المائدة بعد أن أُخرجت من الثلاجة وتم تسخينها. كنتُ متأكداً من أنها فسدت. ما الذي يمكنني قوله؟! أكلوها، ولكن هذه المرة مع جزر مسلوق وشوربة، وشاركتهم أنا الأكلَ أيضاً.

بدأتُ في دراستي سريعاً، وكنتُ في كل يوم أزيد مفرداتي الإنجليزية. وكلما تعمّقتُ في اللغة وتعودتُ على المكان زادت معرفتي بالثقافة الغربية وزاد انبهاري ببعض جوانبها الجميلة.

لم تكن التحية الرسمية هنا واجبةً للأشخاص الذين نعرفهم، بينما كنا في الصحراء نقف لنلقي التحية على أيٍّ كان؛ سواء الأخ أو الأخت أو حتى أحد الموظفين. أُعجبتُ بأسلوب التعامل البسيط والمتواضع، إذ لا يقف الناس عند دخول أحد ما إلى الغرفة، لا بل كانوا يندهشون عندما يقف أحدهم لدى دخول شخص إلى الغرفة.

كانت الأحاديث والنقاشات على طاولة المطبخ من الأمور التي أحببتُها في هذه الثقافة؛ فهذا النمط ليس موجوداً في ثقافتنا التي يكون النقاش والحوار فيها أكثر تحفظاً. وإذا حدث هنا أيّ اختلاف في الرأي، فإنه لا يفسد للودّ قضية، بحيث يحترم كلُّ إنسان معتقدات الآخر. لقد وجدتُ متعةً هائلةً في تلك الحوارات والنقاشات المطوّلة!

شعرتُ أنه من الغريب أيضاً أن الناس في إنجلترا لا يتبادلون الحديث مع جيرانهم الذين لا يقومون هم الآخرون بإلقاء التحية عليهم. حاولتُ في مناسبات عدة إلقاء التحية على الكثير من الأشخاص الذين يعيشون بالقرب منا، لكنهم كانوا ينظرون إليّ كما لو كنت أتصرّف بغرابة، فقد كنتُ أصيح: صباح الخير! هل لديك أيّ أخبار؟ (Good morning! Do you have any news?). كانت هذه العبارة تعادل تحيّة الصحراء التي كنا نلقيها على الغرباء ونحن نقول: السلام عليكم، هل من أخبار؟

كانت للأوقات التي قضيتُها في كامبريدج بإنجلترا مكانة خاصة في قلبي؛ فقد كنتُ أستمتع بالصباحات المنعشة، كما عشقتُ المطر الذي

غالباً ما كان يهطل على مدى أيام، وكأن السماء في بكاء أبديّ. درستُ بجدّ وبذلتُ جهدي، ولا أنسى نبرة صوت أبي عندما كان يكلّمني عبر الهاتف. كان يسألني في بداية كل حديث ونهايته عن التقدُّم الذي أحرزته في إتقان اللغة الإنجليزية؛ الأمر الذي جعلني أفهم أنني لم أكن هنا لأتعلّم بهدف تطوير مهارتي الشخصية فقط، وإنما بهدف خدمة وطني الذي كانت تنتظرني فيه الكثير من المسؤوليات عند عودتي.

"لقد نجح والدي بضرب عصفورين بحجر واحد..
فقد تعلّمتُ اللغة الإنجليزِية وفي الوقت نفسه
فهمتُ قيمة المال"



منزل السيدة "سمرز"، كامبريدج | عام 1966

الجزء الأكبر من وقتي كان مخصصاً للدراسة. قمتُ بالأمور العادية والروتينية التي يقوم بها بقية الطلبة. كان عليّ الدفع من أجل تشغيل التدفئة في غرفتي واستخدام الهاتف. كانت عائلة "سمرز" تحضّر لي وجبة العشاء، ولكني كنتُ أدفع ثمن وجبة الغداء من مصروفي الخاص الذي يؤمّنه لي والدي؛ جنيهان استرلينيّان أسبوعياً.

لم يكن المصروف يكفيني لجميع أيام الأسبوع. عادةً ما كنتُ آكل الدجاج مرّةً واحدةً في الأسبوع، وأفوّتُ وجبات الغداء في أحيان أخرى ليتسنّى

لي شراء قهوة لأصدقائي، أو – وهذا هو الأهم – دفع ثمن تذكرة القطار الذي كنتُ أستقله لمشاهدة سباقات الخيول التي كنتُ أعشقها.

كنتُ أبذل قصارى جهدي في المدرسة. كنت أجمع أوراق الشجر المتساقطة، وسوى ذلك من الأعمال التي أقوم بها كدوام جزئي لأتمكّن من مشاهدة سباقات الخيول. لقد نجح والدي بضرب عصفورين بحجر واحد؛ فقد تعلّمتُ اللغة الإنجليزية وفي الوقت نفسه فهمتُ قيمةَ المال.

في أحد الأيام، تلقّيتُ مكالمةً غيّرت مجرى حياتي إلى الأبد؛ مكالمة طُلب مني فيها أن أعود إلى الوطن فوراً. قال والدي: اجتماع في غاية الأهمية. وبهذه الجملة، كان يقصد الآن.

وهكذا عدتُ إلى دبي على متن أول طائرة في اليوم التالي.

20
الخيمة الشمالية



والدي الشيخ راشد بن سعيد مع الشيخ زايد بن سلطان

لكل شيء بداية، وسنّة الحياة أن يكون له نهاية، إلا الأحلام العظيمة لها بدايةٍ ولكنك لا ترى نهايتها، لأنها تكون أبقى منك إذا أخلصتَ لها، وتعمِّر عمراً أطول منك إذا أعطيتها كلك.

لحظاتُ البداية هي دائماً لحظات لا تُنسى. تبقى تفاصيلها في ذاكرتك، وتبقى أحاسيسها عالقةً بروحك، وتبقى لذّتها ونشوتها وحماستها جزءاً من تكوينك إلى الأبد.

كل شخص يذكر لحظة ولادة مولوده الأول؛ يذكر لحظة ولادة حبه الأول؛ يذكر أول يوم في مدرسته الأولى، ووظيفته الأولى. وأنا أذكر لحظة ولادة دولة الإمارات العربية المتحدة.

استدعاني والدي في العام 1968 على عجل من بريطانيا لاجتماع هام. كلّفني بالإعداد والاستعداد لقضاء يوم كامل في الصحراء. كلّفني بالإعداد لاجتماع بعيداً عن أعين المتلصّصين والمتربّصين، بعيداً عن أصحاب النوايا السيئة الذين كانوا لا يحبّون فكرة الاتحاد، لا يحبّون اجتماع الكلمة، لا يحبّون لهذه القبائل المتناثرة والإمارات المتصالحة أن تقوم لها قائمة أو أن تجمعها دولة.

كان الاجتماع مع حكيم آخر يحكم أبوظبي منذ عامين فقط، هو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، أبي الثاني ومعلّمي ومرشدي وقائدي على مدى أربعة عقود كاملة، والذي كان يحمل منذ يومه الأول في حكم أبوظبي في العام 1966 همّ الاتحاد وحلم الدولة الواحدة. كان هدف الاجتماع وضع إطار تأسيسي لاتحادٍ بين الإمارتين تتبعه بقية الإمارات. كان هدف الاجتماع وضع الجميع أمام الأمر الواقع؛ اتحاد بين أبوظبي ودبي ودعوة البقية للانضمام لتأسيس دولة الإمارات.

كان هناك كلامٌ كثير منذ سنوات، ولقاءاتٌ غير مجدية، وتحالفاتٌ مستمرة، لتأسيس كيان اتحادي. ولكن كان هناك دائماً من يُفشل تلك المساعي ويؤخّر ذلك الحلم، حتى جاء ذلك الاجتماع ليحسم الأمور. كان اجتماع الشيخين في منطقة عرقوب السديرة، الكائنة بين أبوظبي ودبي، هو اللحظة التاريخية التي حوّلت حلم الاتحاد إلى حقيقة، ومنه بدأت نقطة اللاعودة لتأسيس دولة الإمارات.

كنتُ قد سبقتُ الشيخين بنفسي لاختيار المكان. كنتُ الأكثر معرفةً بالصحراء بين إخوتي، وكان والدي واثقاً بحُسن اختياري مكان اللقاء. نصبتُ خيمتين؛ واحدة للشيخين حيث جعلتُ موقعها مواجهاً لنسيم

الصحراء العليل، وثانية لنا لنجلس فيها. أشعلتُ النار لطهي الطعام، وفي قلبي نارٌ من الحماسة والإثارة لمثل هذا اليوم الذي عرفتُ بأنه سيكون له ما بعده. عرفتُ أن الكلام الذي نسمعه من سنين طويلة عن تأسيس دولة واحدة سيصبح واقعاً حقيقياً بعد هذا اللقاء. جهزتُ كلَّ شيء، ووصل الشيخان مع رجلين أو ثلاثة مع كل منهما، ودخلا الخيمة الشمالية منفرديْن لبدء المناقشات.

نعم من الخيمة الشمالية في 18 فبراير 1968 بدأت دولة الإمارات. في الخيمة الشمالية اتفق الشيخان على تأسيس اتحاد ثنائي. في الخيمة الشمالية اتفقا على البنود التالية: علَم واحد، نظام صحّي واحد، نظام تعليمي واحد، أنظمة إقامة مشتركة. في الخيمة الشمالية أيضاً حدث شيء لا يحدث في بلاد العرب ولن يحدث لعقود طويلة، حيث تنازعا الرئاسة في تلك الخيمة. طلب زايد أن يكون راشد رئيساً للاتحاد الجديد، وراشد يبتسم ويحرّك سبحته بيده ويقول أنت الرئيس! في الخيمة الشمالية دار نقاشٌ حول هذا الموضوع، وشدٌّ وجذب، حتى وافق زايد أن يكون رئيساً، ومدّ راشد يده له متفقاً وموافقاً ومباركاً.

”

كل شخص يذكر لحظة ولادة مولوده الأول؛ يذكر لحظة ولادة حبه الأول؛ ويذكر وظيفته الأولى. وأنا أذكر لحظة ولادة دولة الإمارات العربية المتحدة

“

أذكر ما حدث في الخيمة الشمالية اليوم بعد خمسين عاماً وقلبي يعتصر على دول عربية أضاعت حياة الآلاف من شعوبها، وأهدرت المليارات من ثرواتها، وخسرت سنوات من مسيرة تنميتها بسبب القتال حول من يحكم ومن يكون الرئيس.

نعم نحن مختلفون في الإمارات، وربما لذلك نجحنا. تنجح الدول عندما يأتي قادة تكون أحلام شعوبهم أكبر من أحلامهم الشخصية ومطامعهم

الذاتية. تنجح الدول عندما يتخلى القادة عن "الأنا" وعن الذات مقابل تحقيق الطموحات وخلق الإنجازات. تنجح الدول عندما تكون السُلطة وسيلةً لتحقيق غايات الشعب، ولا تكون السُلطة هي أهم الغايات؛ وليحترق الشعب!

قامت دولة الإمارات على أيدي قادة كانت لديهم القدرة على إنكار الذات، وحقّقت الدولة المعجزات على أيدي هؤلاء القادة، وسيبقى أحد أهم أسرار نجاحنا هذه القيمة التي لا بدّ أن تستمر في جميع المسؤولين في هذه الدولة حتى تستمر المعجزة؛ قيمة إنكار الذات لمصلحة البلاد. لا بدّ أن نبذل جهوداً كبيرة لترسيخ قيم الاتحاد، قيم زايد وراشد. الإمارات لا يوجد فيها شخص أكبر من الاتحاد، ولا يوجد فيها حلمٌ أعظم من ترسيخ الاتحاد، ولا توجد فيها طموحات لأحد إلا لمصلحة هذا الاتحاد.

تنجح الدول عندما يأتي قادة تكون أحلام شعوبهم أكبر من أحلامهم الشخصية ومطامعهم الذاتية



والدي الشيخ راشد بن سعيد مع الشيخ زايد بن سلطان

مع نهاية هذا اللقاء التاريخي بين زايد وراشد، تم الإعلان عن الاتحاد بين الإمارتين، وخلال أيام ظهرت ردود فعل مختلفة إزاء اتفاق الاتحاد. كان الملك الحسين، ملك الأردن، من أوائل الذين اتصلوا بوالدي للتهنئة بمشاعر يملؤها الدفء والإعجاب. ورحّبت كلٌّ من الكويت والمملكة العربية السعودية بالاتفاق، تبع ذلك تهنئة دافئة – إن لم تكن مندهشة – من طرف بريطانيا. ولكن، أكثر ما أسعدنا هو التهاني التي تلقّيناها من الإمارات السبع الأخرى (بما فيها قطر والبحرين)، وقادتها الذين أعربوا عن

أمنياتهم بالتوفيق.

كان والدي سعيداً بهذا الإنجاز؛ إيصال اتحاد الإمارات إلى نقطة اللاعودة. وبدأت علامات الإجهاد والتعب تبدو عليه، قال لي في طريق عودتنا من عرقوب السديرة بعد سكوت طويل: محمد! الاتحاد الوليد بحاجة للحماية من الكثير من أعداء الداخل والخارج. اتفقنا مع الشيخ زايد على إنشاء وحدة اتحادية مسؤولة عن الدفاع والأمن الداخلي. محمد! أريدك أن تكون مسؤولاً عن حماية الاتحاد.

21
مسؤولية تاريخية



مع والدي الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم

في حياة كل إنسان فواصل، فاصل بين مرحلة وأخرى، فاصل بين حياة وأخرى، فاصل بين حلم وبداية حلم جديد. كان الفاصل الرئيسي في حياتي بين مرحلة الفتوّة ومرحلة الرجولة هي كلمة. كلمة راشد بن سعيد: محمد.. أريدكَ أن تكون مسؤولاً عن حماية الاتحاد.

كنتُ أسمع وأقرأ في تاريخنا عن قادة عظام، قادوا جيوشاً وهم صغار السن، كأسامة بن زيد وقتيبة بن مسلم وغيرهما. لكنني كنتُ أنظر إلى ذلك كخيال تاريخي، وأساطير بطولية في تاريخنا الجميل، حتى تم إسناد هذه المهمة لي وأنا ابن 19 عاماً فقط؛ تأسيس جيش لدولة بلا جيش، وتجهيز خطة دفاع لدولة لم تولد بعد، والعمل على توحيد قوات سبع إمارات لم تُبنَ ثقتها فيما بينها بعد؛ جيش يستطيع أن يملأ الفراغ الذي سيتركه البريطانيون خلال ثلاث سنوات فقط، ويستطيع توفير حماية لهذه الدولة الصغيرة في منطقة مضطربة، مليئة بالأطماع والدسائس والحروب التي لا تنتهي.

كان موضوع قوة الدفاع من أكثر الموضوعات حساسية في محادثات تأسيس الاتحاد، داخلياً وخارجياً. كان لدي وعيٌ كامل بحساسية هذا الموضوع وإدراكٌ بأهمية المسؤولية التي وضعها المؤسسون بين يدي.

ما كان يدهشني أنني لم أكن خائفاً من هذه المسؤولية، بل أحسستُ بأنها ارتقت بقدراتي وتفكيري وإمكانياتي إلى مستوى جديد لم أعتقد أني سأصل إليه بهذه السرعة.

بدأ العمل على الفور، وأصدر الشيخ راشد مرسوماً بتعييني قائداً للشرطة والأمن العام بدبي في فبراير 1968. وشمل القرار انتقالي إلى المملكة المتحدة للالتحاق بتدريب عسكري متخصِّص، حيث لم يكن هناك أفضل منها لتقارب ممارساتهم العسكرية مع ما كان موجوداً ومألوفاً لدينا، وكنتُ مؤمناً بأنهم أصحاب الخبرة العسكرية الأعرق عالمياً. دائماً ما كنتُ أفكر كيف استطاعت هذه الدولة أن تسيطر على ربع مساحة الكرة الأرضية، وأن تكون الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وما نوعية التدريب الذي يوفّرونه لضباطهم. كنتُ أسعى لأفضل تدريب عسكري أستطيع الحصول عليه.

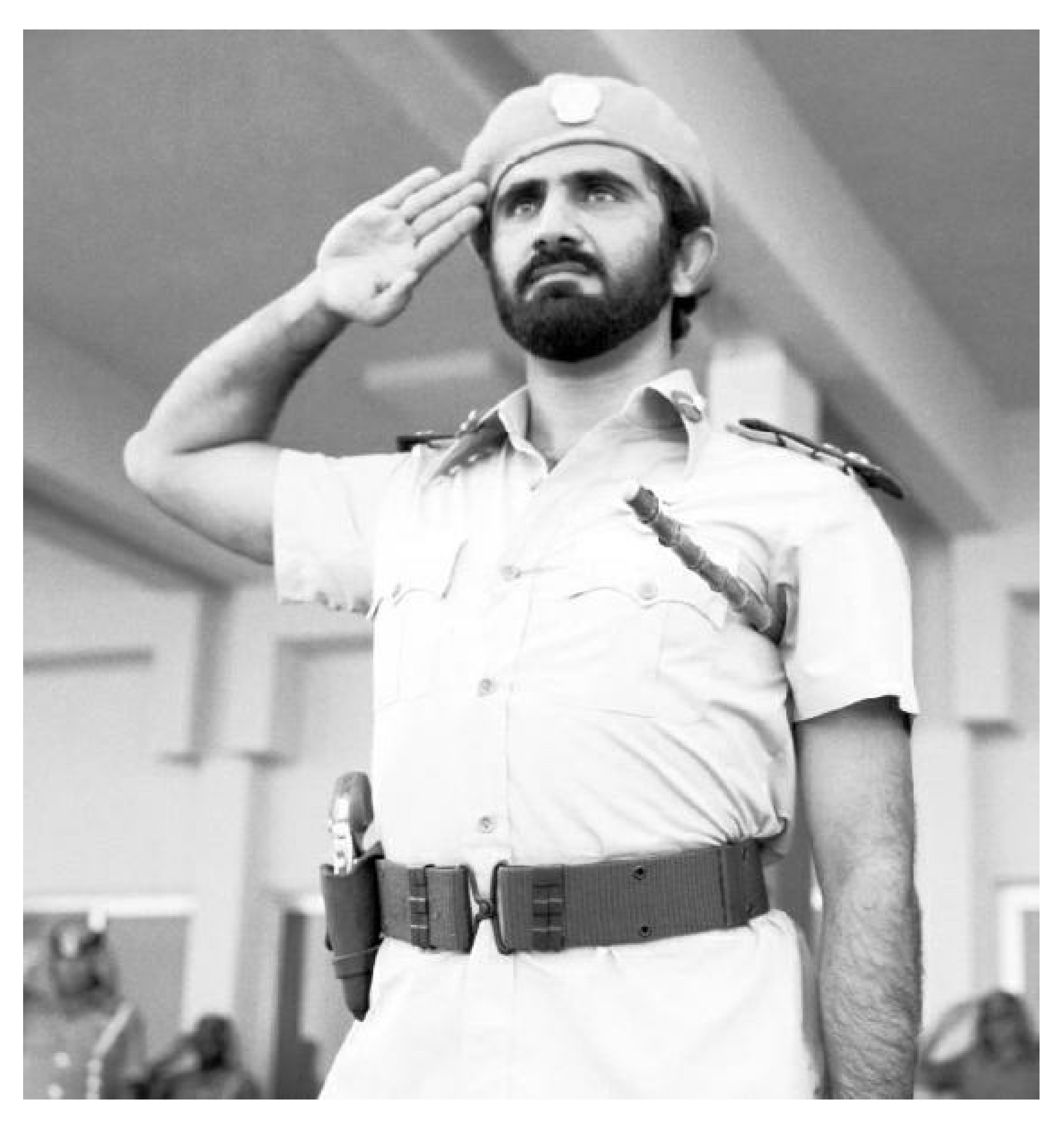
وقع اختياري في البداية على مدرسة اللغات العسكرية في بيكونزفيلد بمقاطعة باكينغهامشير الإنجليزية، وتم إجراء كافة الترتيبات خلال فترة قصيرة. سافرتُ إلى إنجلترا ومن ثم إلى المدرسة في بيكونزفيلد لأخضع

للتقييم، كانت نتيجة التقييم البدني وتقييم المهارات صادمة لي، حيث استدعاني القائد العسكري إلى مكتبه وأوضح لي بأن مهاراتي ولياقتي ستكون أعلى من المشرف الذي سيدرّبني، واقترح عليّ إعادة النظر في التسجيل.

طلبتُ اجتماعاً بعد فترة في وزارة الدفاع في لندن، وهناك تقرّر أن أسجل في "كلية مونز للضباط" في ألدرشوت. شعرتُ بالراحة واتصلتُ بوالدي لأبشّره بالأخبار السارّة. كان أفضل ما في الأمر بالنسبة لي ما سمعته عن كلية مونز أن البرامج التدريبية فيها أقسى بكثير من غيرها، وكنتُ مستعداً لبذل قصارى جهدي، لأنني عقدتُ العزم على ألّا أعود إلى دبي إلّا بعد أن أكون قادراً بدنياً وذهنياً وعسكرياً على مواجهة أيّ شيء. فليعطوني أسوأ ما لديهم وأقسى ما يمكنهم تخيّله!

كانت مونز، الوحدة الملكية العسكرية 161، جزءاً من أكاديمية ساندهيرست لتدريب الضباط، وقد تم تغيير اسمها لاحقاً لتصبح كلية مونز للضباط.

> "عقدتُ العزم على ألّا أعود إلى دبي إلّا بعد أن أكون قادراً بدنياً وذهنياً وعسكرياً على مواجهة أيّ شيء"



خلال تخريج إحدى الدورات العسكرية | عام 1977

”

كنتُ أسمع صوت والدي في عقلي وقلبي دائماً:
ستكون مسؤولاً عن حماية الاتحاد!

“

كنا مجموعة النخبة. وظلّت "مونز" القاعدة التدريبية الرئيسية للفرسان وقوات المدفعية في بريطانيا، ولكن بعد بضع سنوات من خروجي منها تم دمجها مع "ساندهيرست".

انضممتُ إلى سريّة "كوهيما"، وكان معي مجموعة من ضباط سلاح الفرسان الملكي والخيّالة والمهندسين الملكيين والحرس والمشاة. وقد واجهوا صعوبة في نطق اسمي "محمد بن راشد آل مكتوم"، لذلك قرّر الوكيل المسؤول عني وغيره من الرجال مناداتي باسم "الضابط راشد"، ولكن عندما كان يغضب غضباً شديداً – وهو أمر يحدث بشكل دائم – كان يصرخ بصوتٍ عالٍ: مكتوم.

عند وصولي لم يكن لديهم أدنى فكرة عني، وقد كان هذا في صالحي على ما أعتقد، لأن حياتي سرعان ما أصبحت أصعب عندما عرف قائدي المباشر هويّتي، وهو أمر لا يمكن وصفه، لكن هذا ما حدث. أعتقد أن أكثر ما كان يخشاه أن يُقال إنه عامَلني بشكل مختلفٍ محاباةً أو لشيءٍ من هذا القبيل. مع ذلك كله، فقد عشقتُ المشقّة والتعب وتعلّمتُ كيف أتحمَّل الألم البدني. لقد جئتُ لهذه الغاية وإن كانت الضريبةُ تشقُّقَ قدَمي، وإصابتي بالقروح الجلدية بسبب البرد، وحرماني من النوم، وضيق الوقت المخصَّص للطعام والذي لم يكن يتجاوز بضع دقائق. أما في ما يتعلّق بالفحوصات الطبية والتعامل مع الأسلحة وإطلاق النار وقراءة الخرائط، فقد منحتني الصحراء أساساً مدهشاً جعلني أتقن كل تلك الأمور.



مع والدي الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم

كنتُ أسمع صوت والدي في عقلي وقلبي دائماً: ستكون مسؤولاً عن حماية الاتحاد! كانت تلك العبارة تمنحني طاقةً غير طبيعية، حتى لو تطلَّب الأمر أن أبقى مستيقظاً طيلة فترة التدريب القاسية لأتقن كل شيء، سأفعل من دون تردّد. كل شيء بالنسبة لي يهون في سبيل وطني.

22
كوهيما

لدي طبيعة في شخصيتي لا أعرف مصدرها تحديداً، هل هي فطرية أم مكتسبة. لدي طاقة تنافسية عالية، التنافس مع الآخرين يجعلني أقوى وأفضل وأسرع وأكثر إصراراً.

لدي هدف دائم أن أكون في المركز الأول، فلا أسعى إلا إليه، حتى لو لم أدركه. لا أعرف هل الخيل وسرعتها وسباقاتها التي عشقتها منذ صغري أكسبتني هذه الصفة، أم أن هذه الصفة الفطرية هي التي جعلتني أكسبُ سباقات الخيل وأكسبُ الكثيرَ من سباقات الحياة؟

لعلّها الأقدار، أن نكون جزءاً من تكوين دولة لجعلها في المركز الأول، أو أن تغرس هذه الدولة في تكويننا حبَّ المركز الأول حتى قبل نشأتها.

منذ التحاقي بسرية كوهيما في كلية مونز للضباط، كان لدي هدف؛ كنتُ أريد المركز الأول على دفعتي. كنتُ أريدُ أن أشرِّف بلادي بنجاحي وتفوّقي.

مع بداية التدريبات العسكرية في منطقة دارتمور، سادت أجواء من الرهبة والفزع ثكنات سرية كوهيما، بسبب صعوبة التدريبات وقسوة الظروف الطبيعية التي كنا نواجهها.



كانت لدي أفضليّة في هذا الموضوع، فأنا متعوّد على أجواء الصحراء والمبيت فيها والتعامل مع أخطارها ومعرفة اتجاهاتها والسير فيها. وكان الكثير من الرجال الذين يتيهون في الصحراء يلقون حتفهم، إذ لا توجد معالم بارزة يستدلّون بها على الطريق، ومع ذلك لم أكن أخاف من الصحراء. أما في إنجلترا فالموضوع أسهل من ذلك، وخاصة مع عيني البدوية التي خبرت تضاريسَ الصحراء الدقيقة، فكيف بأراضيهم التي تتمتع بكثرة المعالم والعلامات البارزة!

بدأنا التدريب، وهو عبارة عن أسابيع نقضيها لوحدنا في الغابات والوديان. ورغم قسوة التدريبات، وكثرة الإصابات، وصعوبة الخرائط ووسائل الاتصالات العسكرية، كنتُ حريصاً على أن أكمل تدريبي بكل احترافية للوصول إلى هدفي.

اشتمل تدريبي في كلية مونز على كافة أنواع الخطط العسكرية، واستخدام مختلف الأسلحة، ومعرفة أدوات الاتصالات وأساليب الحرب الحديثة وخططها وغيرها الكثير. وكنتُ حريصاً في كل ذلك على تقديم أفضل ما عندي والاستماتة في كافة أنواع التدريبات البدنية والذهنية والعسكرية. وكنتُ قريباً من الحصول على العلامات الكاملة، حتى حدث ما لم يكن في الحسبان.

قبل فترة قصيرة من التمرين الأخير في منطقة بريكون بيكونز، خضعت كلية مونز للتفتيش. تولّيتُ مهمة قيادة سريّتي ووقفتُ في المقدمة. وصل عميد الكلية، وكان الوكيل قد حسم أمره بأنني أقفُ خطأً على يسار سريّتي بمسافة خطوتين، أما أنا فكنتُ مقتنعاً بأنني لم أفعل ذلك ولن أرتكب مثل هذا الخطأ في مرحلةٍ متقدّمة من التدريب كهذه. وبينما كنا ننتظر، وجّهتُ نظري للأسفل وركّزتُ على علامات الخطوط المرسومة حيث أقف، وإذ بالوكيل يصيح بصوت مُدَوٍّ: الضابط راشد! خطوتان إلى اليسار!

لم يكن ما قمتُ به هو ردّ فعلٍ لمجرّد ردّ الفعل، بل كان ردّاً يستند إلى مبدأ العدل؛ فأنا لم أخطئ، ولا أتقبّل أن أتعرّض للظلم أو الإهانة أمام رجالي.

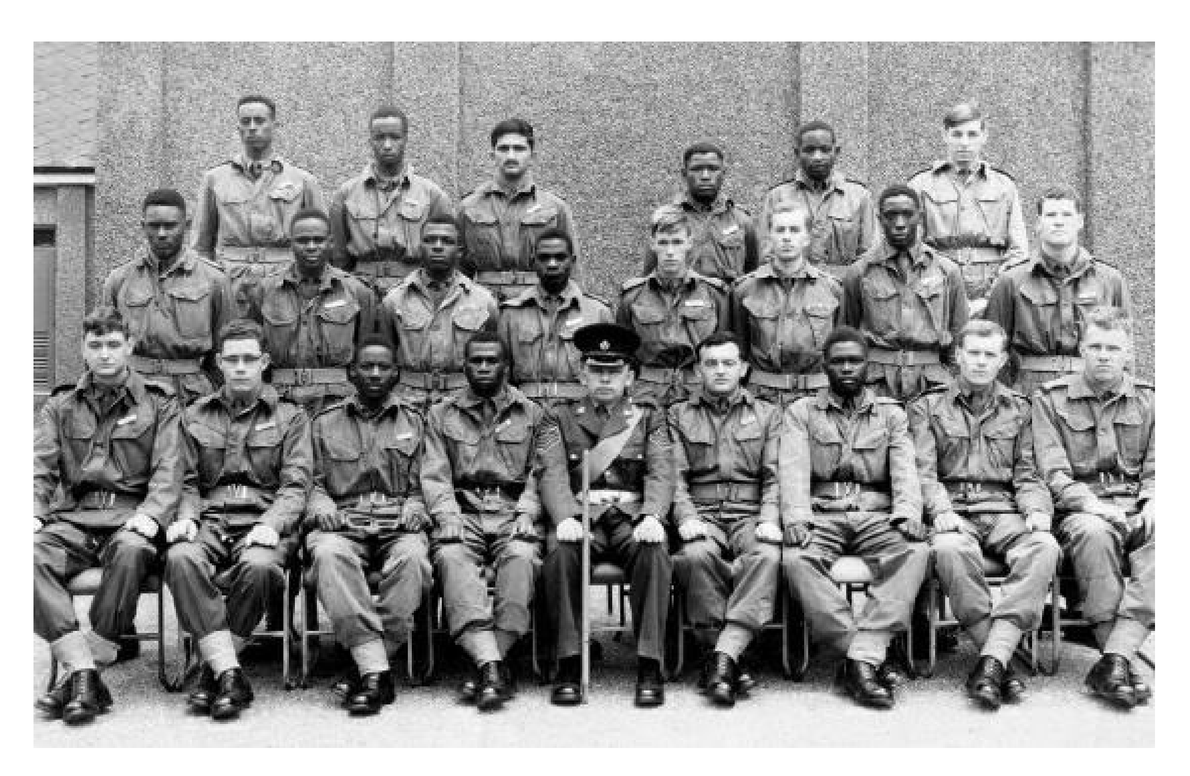


في كلية مونز للضباط في ألدرشوت، المملكة المتحدة | عام 1968

صحتُ بصوتٍ عالٍ جداً: كوهيييييما! خطوتان إلى اليمين! تحركت السريّة بكاملها خطوتَين إلى اليمين وأصبحنا في صفٍّ واحدٍ ومستقيم. بدتْ علامات الغضب واضحةً على الوكيل، وبدأتُ أدرك أن حلمي في التفوُّق على دفعتي قد يكون تلاشى بفعل عملي الذي لم أندم عليه، وكنت متأكداً أن الضباط الواقفين خلفي كانوا يفكّرون برهانات حول العقوبة التي ستقع بي.

ولكن الموازين انقلبت في فترة الغداء بحمد الله. كان عميد الكلية في غاية الإطراء، وأشاد بما قمتُ به وبالمهارات القيادية الواضحة التي أتمتّعِ بها والتي كان لـ"مونز" دورٌ كبير فيها. ويبدو أن هذا الجزء بالتحديد راق

للوكيل ودفعه إلى عدم اتخاذ أيّ إجراء تأديبي في حقّي أو في حق علاماتي.



سرية كوهيما في كلية مونز العسكرية | عام 1968

> نظر إليّ والدي وعيناه تشعّان بالفخر، وكأنما تضيئان من داخل روحه. شعرتُ بأن الزمن قد توقف وهو ينظر إليّ

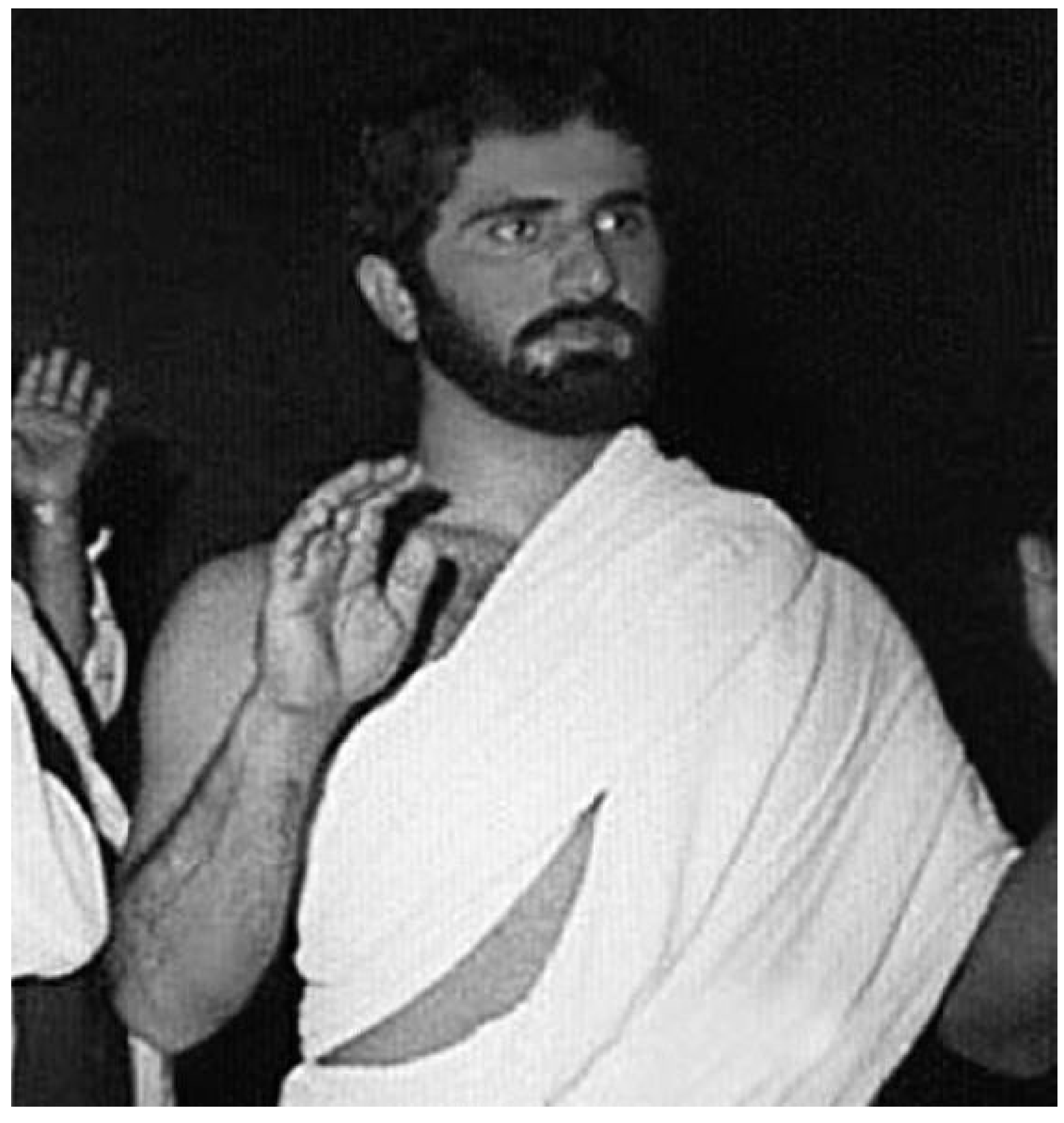
وفي حادثة أخرى وقبل أسبوعين من التخرج، تم إرسالنا إلى مخيم المعركة في ويلز. كانت الاختبارات أقسى والتدريبات أشدّ. بذلتُ كلَّ ما في وسعي خلال الأيام الاثني عشر تلك أملاً في تعويض ذلك، ووظفتُ كلَّ مهاراتي وخبراتي في منطقة ويلش هيلز، آملاً ألا تنخفض علاماتي.

في 18 أكتوبر 1968، حضر والدي موكبَ التخرج، وعندما ذهب لمقابلة الكولونيل بروكس، مسؤول الكلية، أخبره الكولونيل بأن علاماتي كلها كانت مرتفعة في كافة أنواع التدريبات.

نظر إليّ والدي وعيناه تشعّان بالفخر، وكأنما تضيئان من داخل روحه. شعرتُ بأن الزمن قد توقف وهو ينظر إليّ، وشعرتُ بأنني قدّمتُ إليه أعظم هدية خلال تلك السنوات الصعبة قبل الاتحاد.

همستُ في أذنه بأنني سأكون بجانبه أثناء الاحتفال كي أترجم له، قال لي: لا يا محمد، سأكون أنا بجانبك اليوم، وستكون أنت بجانبي في دبي، أمامنا ثلاث سنوات لتجهيز جيش قبل انسحاب بريطانيا، وأمامي قائد عسكري أحترمه، وأثق به لتسليمه هذه المسؤولية.

23
عونٌ من الله



خلال أداء مناسك العمرة

"محمد ستكون مسؤولاً عن حماية الاتحاد". كانت هذه العبارة كافية

لتجعل نومي قليلاً، وتفكيري لا يهدأ، وآلاف الأفكار تتزاحم في رأسي. كانت مسؤوليةً حساسة، خاصة بعد إعلان البريطانيين نيّتهم الانسحاب خلال ثلاث سنوات فقط. وكانوا يراهنون على عدم قدرتنا على حماية أنفسنا. كانوا يقولون: أعطوهم استقلالهم وسيعودون إلينا راكضين لحمايتهم. وكان أبي والشيخ زايد يراهنان على عكس ذلك.

في نوفمبر 1968، جلس معي والدي وطلب مني البدء بإنشاء نواة لقوة دفاع اتحادية تحمي الدولة الوليدة عند نشأتها. بعد أن أخبرني والدي بقراره، كانت هناك لحظة صمت، قمتُ على أثرها بتقبيل رأسه وعاهدته على حماية الوطن بروحي، ثم استأذنتُ قائدي بالذهاب إلى مكة لتأدية العمرة وقضاء عدة أيام في رحاب الحرم الشريف.

كنتُ بحاجة لطلب العون. كنتُ بحاجة للتوفيق. كنتُ بحاجة للإرشاد. كنتُ وما زلتُ بحاجة لعون الله وتوفيقه وهدايته لي في كل أموري.

خلال سنوات عملي الخمسين، رأيتُ الكثير من المعجزات التي حصلت بتوفيق من الله في بلدي. خلال خمسين عاماً، رأيتُ الحماية والرعاية لهذا البلد من ربِّ العباد. رأيتُ حولنا حروباً واضطرابات وبلاداً عمرها آلاف السنوات تنهار، ورأيتُ بلدي بعون الله وتوفيقه ورعايته يزدهر وينمو ويحقّق معجزة تنموية.

أسوأ ما قد يصيب الإنسان هو الغرور، وجنون العظمة، والاعتقاد بقوته الشخصية، والاعتماد على قدراته الفانية المحدودة. نحن نبذل والتوفيق من الله. نحن نتحرك والهداية والرعاية منه سبحانه. نحن نخلص نياتنا في خدمة الناس، ورب الناس يوفقنا على قدر نوايانا. الهداية من الله، والرعاية من الله، والحماية من الله.

"أسوأ ما قد يصيب الإنسان هو الغرور، وجنون
العظمة، والاعتقاد بقوته الشخصية،
والاعتماد على قدراته الفانية المحدودة. نحن
نبذل والتوفيق من الله"

جلستُ وحدي في مكة. تأملتُ كثيراً. وصلّيتُ كثيراً. ودعوتُ الله طويلاً.

هدأت زوبعة أفكاري في مكة، وغمرني الكثير من الصفاء والسكون، وبدأتُ أفكر بشكل معمَّق ومطوَّل للإجابة عن العديد من الأسئلة الكبرى أمامي. ما الذي يتطلّبه إنشاء قوة دفاع رادعة بشكل سريع؟ ما هي مصادر التهديدات الرئيسية أمام الدولة الوليدة؟ كيف يمكنني أن أكتشف القوى التي تسعى إلى زعزعة الاستقرار قبل أن تسدّد ضربتها القاضية؟ كيف يمكن بناء قوة عسكرية دون التأثير في الموارد المالية المحدودة التي تحتاجها الدولة الوليدة من أجل التنمية؟ من أين أبدأ؟ وكيف أبدأ؟ وبمن أستعين؟ وأين سأكون خلال ثلاث سنوات؟ كنتُ بحاجة إلى أن آخذ في الاعتبار جميع السيناريوهات المحتمَلة.

وهناك تحت النجوم في مكة المكرمة تجلّت لي الكثير من الإجابات، وبدأت المعالم الرئيسية لخطتي خلال الفترة المقبلة تتضح. وبدأت أرى المستقبل، يوماً بيوم وعاماً بعام. هناك تحت نجوم مكة تشكّلت رؤيةٌ واضحة للأعوام الثلاثة القادمة من حياتي. هناك تحت نجوم مكة بدأت "رؤيتي".

سجدت باسمك إلهي عالي الشاني
يا الواحد الفرد نظرة منك تغنيني

سجد لعزة جلالك جسمي الفاني
وخلعت عز الملوك ورجفت إيديني

طال اشتياقي وصوت الحق ناداني
وأنا أتبع الصوت في همس يناجيني

لك جيت ساعي إلى مكة بوجداني
يا مالك الملك بالرحمة تلاقيني

كانت مصابيح مكة نور رباني
كأن الملايك محيطة بالمصليني

وقفت وسعيت وبكى في الليل ولهاني
قلب إذا قال الله أكبر يليني

فيض من النور حياني وأحياني
يا خالق النور أنت بس تهديني

وقفت والليل يشهد طول حرماني
انظر لحالي إلهي لا تخليني

في مهبط الوحي والتنزيل فاجاني
شعور ما ينوصف مازال يشجيني

كأنه أمامي محمد خير عدناني
وحوله الصحابه جنوده والمطيعيني

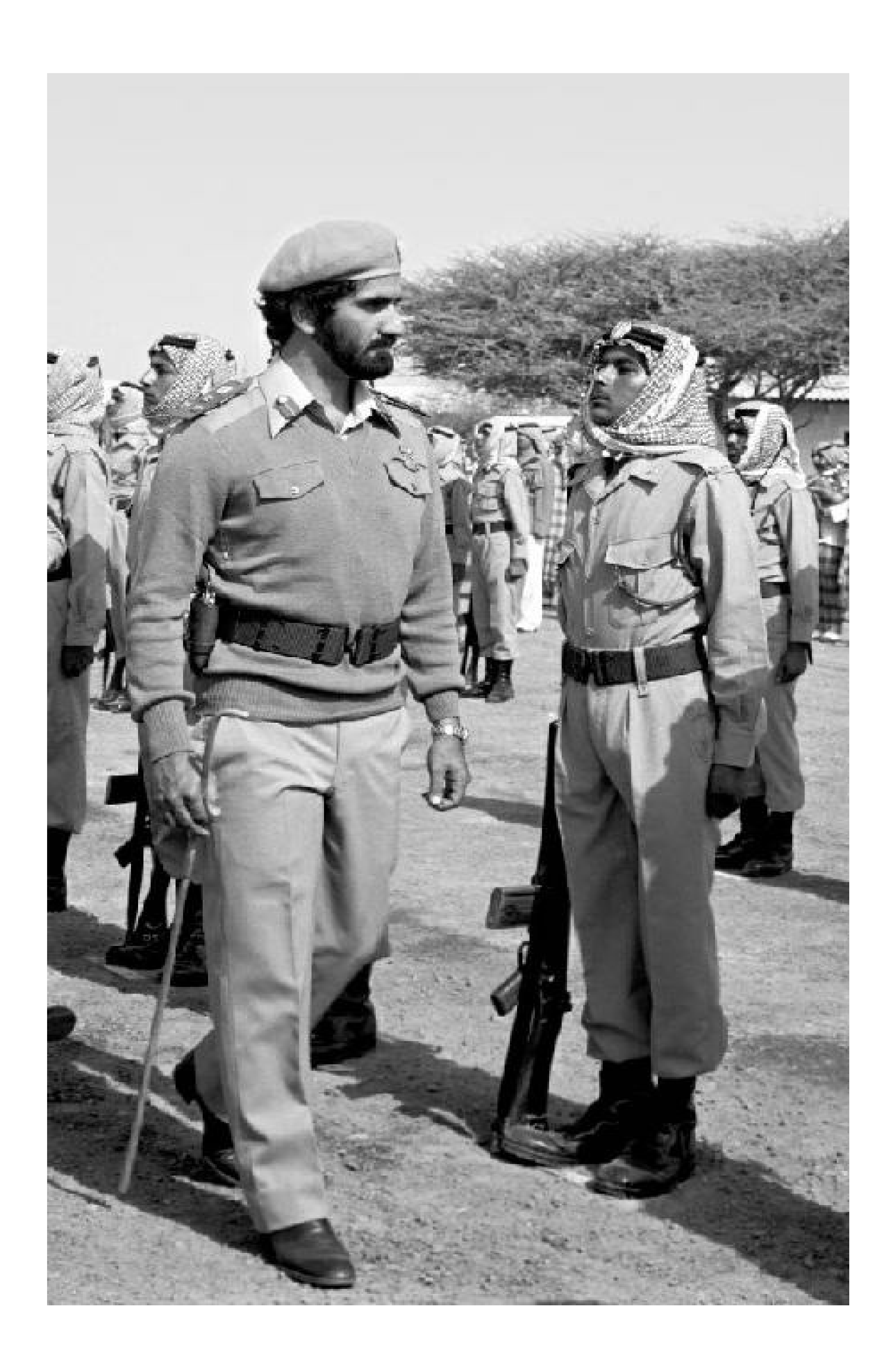
24
بحار.. صحراء.. سماء.. ورجال

هناك مقولة شهيرة للعالم والفيلسوف والرسام العبقري ليوناردو دافنشي يقول فيها: "البساطة هي أرقى درجات الاحترافية".

وأنا من أكبر المؤمنين بهذا المبدأ. لا يمكن أن تبسّط خطة معقدة إلا إذا استوعبتها بشكل كامل أولاً. لا يمكن أن تشرح نظرية معقّدة لطفل صغير إلا إذا فهمتَ تفاصيلها بشكل حقيقي. لا يمكن أن تكون لديك حكمة في الحياة إلا إذا استوعبتَ آلاف الحقائق والمواقف والعِبر، ثم استطعتَ أن تختصرها بكلمات بسيطة يستطيع آلاف الناس استيعابها والاستفادة منها لتكون حكمةً خالدة.

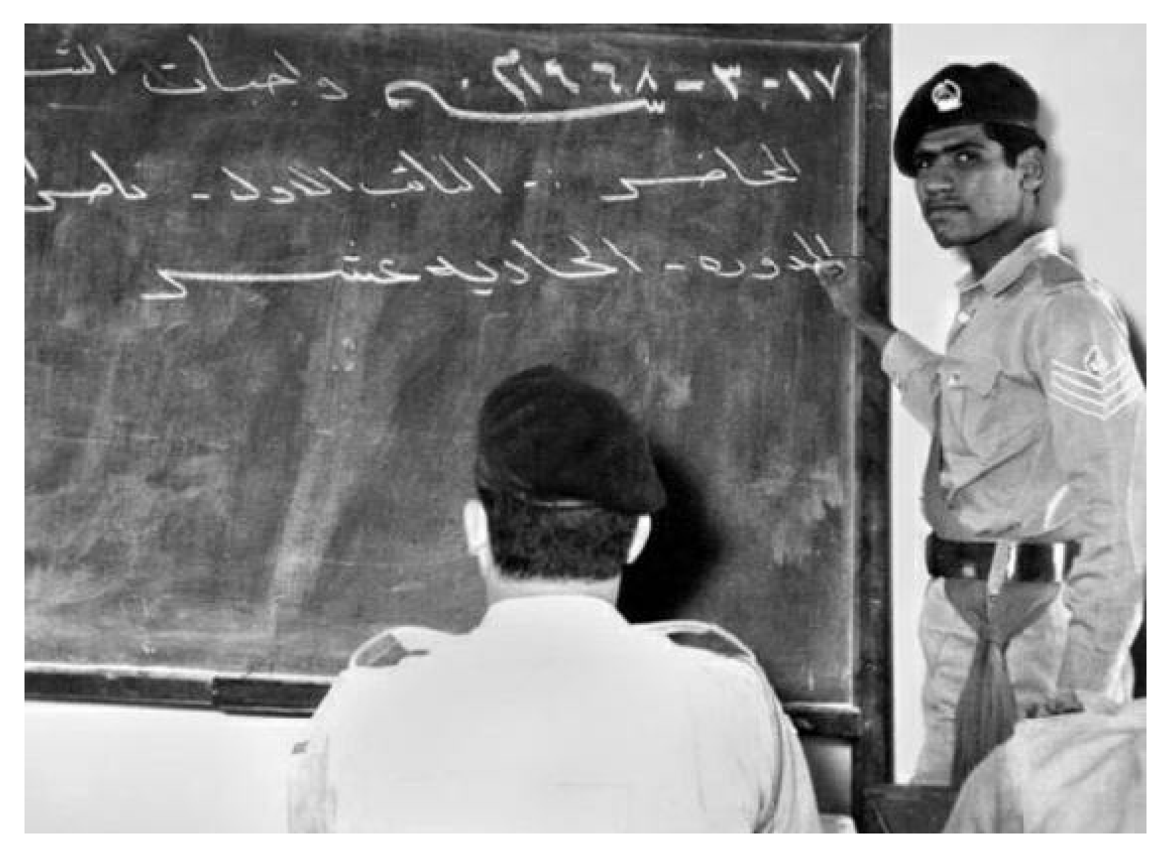
البساطة هي مهمَّة صعبة. من السهل أن تكتب رسالةً مطوَّلةً تشرح فيها مشكلةً مثلاً. ومن الصعب أن تختصرها في بيت شعر واحد.

من السهل أن تحشوَ آلافَ الأوراق بخطط عظيمة للمستقبل. ومن الصعب أن تضعها في كلمات بسيطة يستطيع الشعب استيعابها والإيمان بها والوقوف خلفها، بل والتضحية من أجلها.



خلال احتفال تخريج دورة جنود بمعسكر المنامة

بعد تفكير عميق، وضعتُ خطتي في بناء قوة شرطة داخلية تمهيداً لبناء قوة الدفاع كالتالي: بحار، صحراء، سماء، ورجال. لدي حدود بحرية تحتاج بشكل عاجل لحماية عن طريق قوارب سريعة بالإضافة إلى مجموعة متنوعة من أجهزة الاتصال والرادارات؛ لدي الصحراء والحدود البرية وحمايتها بالحصول سريعاً على مجموعات متنوعة من ناقلات الجند والدبابات وأجهزة الاتصال وغيرها؛ ولدينا السماء والأجواء، وهي الأصعب والأكثر أهمية، وهي القوة الضاربة الحاسمة في أي صراع أو حرب. والبداية ستكون بالتدريب على المقاتلات الحربية، ثم الانتقال لبناء القوة الجوية عندما تكون الظروف المالية مواتية. وفي كل محور من هذه المحاور هناك آلاف التفاصيل التي يتم التعامل معها، بناء على ما تلقيته من تدريبات وما يمكن الحصول عليه من خبرات داخلية وخارجية.



التحاق عدد من المجنّدين في صفوف تعليمية - دبي | عام 1971

"لا يمكن أنِ تكون لديك حكمة في الحياة إلا إذا استوعبت آلاف الحقائق والمواقف والعِبر"

المحور الأصعب في الخطة كانت "الرجال"، وهم دائماً المحور الأهم والأكثر حسماً في أي عمل، في الجيش أو الحكومة أو القطاع الخاص. إذا لم تكن دقيقاً في اختيار مواردك البشرية، إذا لم تبنِ قدراتهم ومهاراتهم بشكل حقيقي، إذا لم تزوّدهم بقيم العمل التي تريدها، إذا أخفقتَ في تحفيزهم وبثّ روح الحماسة الدائمة فيهم، إذا لم تفعل كل ذلك فعملك محكوم بالفشل منذ اليوم الأول.

كان لدينا في أواخر الستينات عدد قليل لا يتجاوز العشرات من عناصر الشرطة في دبي، ومثلهم أيضاً في قوة دفاع دبي. كنتُ أريد أن أبدأ بقوة من ألف شخص على الأقل. ولكني لم أكن أريد أيَّ ألف. كنتُ أريدُ ألفاً يكونون نواةً لعشرات الآلاف ممن سيأتي بعدهم. كنتُ أريد ألفاً يستطيعون بناء كافة أفرع قواتنا المسلحة لاحقاً. كنتُ أريد ألفاً من النخبة. كان يهمني كثيراً صيت وسمعة هؤلاء النخبة داخل البلاد وخارجها. كنتُ أريدهم ألفاً بعشرة آلاف .

تم تأسيس قوة دفاع دبي في العام 1971، وأعلنتُ عن شواغر في القوة، التي تألفت من ثلاث سرايا مشاة، وأعلنتُ أن القبول سيكون للأكثر كفاءة.

وأطلقنا حملةً كبيرةً من بيت لبيت لتشجيع الناس على الانضمام، كما نظمنا القصائد للإشادة بهذه القوة القادمة، واستخدمنا ما استطعنا من وسائل للتحفيز وبث روح الوطنية. وبدأ العمل. توافد الشباب بالعشرات ثم المئات، وتم اختيار الأنسب والأكفأ. ووعدتُ المجنَّدين بتعليم جيد أيضاً مع التدريب، إذ كان الكثير من الناس يعانون من الأمية، وكان الشباب يريدون التعليم بشكل أساسي لإيمانهم بأهميته، فاستعنتُ بمعلمين من مدارس دبي لتغطية هذا الجانب في خطتي لبناء الرجال.

> الرجال.. هم دائماً المحور الأهم والأكثر حسماً في أي عمل

تركّزت خطتي التدريبية معهم في ثلاثة محاور؛ بسطتها للجميع كالتالي: تدريب بدني، ومهارات عسكرية قتالية، وتعليم. وبدأنا بكل حماسة رحلة بناء الرجال.

قسمتُ يومهم، ووضعتُ لهم برنامجاً تدريبياً صارماً، تماماً كما كنتُ أتدرّبُ في كلية مونز للضباط ببريطانيا، حيث يتم تقسيم اليوم إلى فترات متوازنة لتغطية كافة المحاور، إلا أنني كيّفتُ البرنامج وطوّرتُ فيه بناء على ظروفنا في دبي. كانت معنويات الرجال عالية، لأنني كنتُ معهم في كافة مراحل التدريب. لن يسمع الرجال كلام قائد كسول. كنتُ أركض معهم، وأتعرّق معهم وآكل معهم. كنتُ حاضراً معهم في كل التدريبات القاسية، وأشرفتُ بنفسي على إعطائهم الزيَّ المناسب والتعليم المناسب والخطط القتالية المناسبة. أعطيتُهم كلَّ ما لدي أيضاً من خبرة الصحراء التي تعلّمتُها من والدي قبل تدريبي العسكري النظامي. أعطيتُهم كلَّ طاقتي، فأعطوني أفضل قوة فتاكة في تلك الفترة. كنتُ قائدهم الذي يدينون له بولاء ومحبة صادقة. وكانت سمعتي الطيبة تسبق أفعالي.

أذكر في بداية عملي أن المقيم السياسي البريطاني في الخليج قال لي: محمد، أنت لا تعرف شيئاً. سأستمر في إدارة هذا المنصب، وأي أسلحة تريد شراءها يجب أن تكون بريطانية الصنع، وكل شيء يجب أن يتم تحت إشرافي.

في صباح اليوم التالي عندما وصل العميد إلى المكتب، كنتُ أنا في مكتبي، وكنتُ قد عيّنتُ رجلين خارج المبنى مع تعليمات مشدَّدة برفع جميع التقارير والأعمال مباشرةً إلى مكتبي. ومع حلول وقت الغداء، كان العميد قد استطلع الأمر ووصلته الرسالة. وبعد فترة، أخلى مكتبه وترك لي المهام وحدي. وهكذا بدأتُ مسيرة تشكيل قوة قتالية لوطني.

واصلتُ العمل على مدار الساعة. كنتُ أبدأ تدريب الرجال في ساحة

العرض في تمام الساعة الثامنة صباحاً، وخلال فترة ما بعد الظهيرة أقوم بتعليمهم، في نفس الوقت الذي كنتُ أعمل فيه مع والدي قبل حضور المجلس معه. أما الليالي، فكانت أطول. كنتُ إذا سمعتُ جرس الهاتف، أجبتُ واقفاً؛ وما إن كنتُ أغيّر ملابسي للنوم بضع ساعات، حتى أرتدي ملابس نظيفة وأخرج مسرعاً للمهمة التالية. لم أكن أنعم بالسكينة في تلك الفترة من حياتي إلا في أمرين: الصلاة والتفكير بالخيول.

غير أن العمل الشاق قد أتى بثماره؛ ففي غضون عامين فقط تضاعفت أعداد الشرطة وقوة الدفاع بشكل كبير، وأصبحت لدينا قوة مدربة ضاربة؛ الألف رجل فيها بعشرة آلاف.

25
الغليون العربي



والدي الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم

كان البريطانيون يستعدون للانسحاب من المنطقة، وقد أعلن رئيس

الوزراء البريطاني هارولد ويلسون في 16 يناير 1968 رغبةَ بريطانيا بالانسحاب بسبب تردي الأوضاع الاقتصادية في الداخل البريطاني. وكانت التصريحات تشير إلى انسحاب سيتم خلال ثلاث سنوات، إلا أن الإشارات السياسية التي كانت تصلنا كانت تعبِّر عن رغبة واضحة لبريطانيا بالاحتفاظ بذراع وبموطئ قدم لها في هذه المنطقة التي يبدو أنها ستضم أهم ثروات العالم النفطية، كما أن الأمريكيين والبريطانيين كانوا ينظرون للمنطقة أيضاً كملعب سياسي للنفوذ بين دولتيهما وبين الاتحاد السوفيتي.

كانت تلك الإشارات السلبية تصل إلينا من خلال ما كانوا يروِّجون له مثلاً من عدم قدرتنا على حماية أنفسنا، أو بأن الشعوب في منطقتنا كانت متضجّرة من الوتيرة التي تسير بها خطوات تكوين الاتحاد، وغيرها من الإشارات التي يفهم منها السياسي الكثير من الرغبات والمطامع البريطانية في المنطقة حتى بعد الانسحاب.

لم يكن والدي مرتاحاً من هذه الإشارات وغيرها، فطلب اجتماعاً مع رئيس الوزراء البريطاني هارولد ويلسون في صيف عام 1969. بمجرد بدء اجتماعنا معه ابتسمتُ بيني وبين نفسي حين سمعتُ لكنة يوركشاير التي كان يتحدّث بها، ووجدتُ الأمر مضحكاً أن تُقابَل تلك اللكنة بالإنجليزية الممزوجة بإيقاع خليجي بدوي. جلستُ أستمع إليهما وهما يتحدّثان عن الكثير من الأمور المهمة، وعبّرنا جيداً عن رغبتنا في أن نكون سادةَ قراراتنا.

تناول رئيس الوزراء ويلسون غليونه وملأه بالقليل من التبغ بينما كان يفكّر. رأيتُ السعادة في وجه والدي وهو يشعل غليونه أيضاً، فلا بد أنه رجّح قبل ذلك أنّ من غير الملائم التدخين ما دام مضيفه لم يدخّن أو لم يدْعُه إلى ذلك.

يُعدّ الغليون العربي نسخةً مصغّرةً عن نظيره الإنجليزي، ولكن نوعية التبغ التي يستخدمها العرب قوية جدّاً لدرجة أن نفخةً واحدةً منه تكون كافية. انسجم الاثنان بينما كانا يدخّنان ويتحدثان في أمور المنطقة. أنهى والدي نفخته الأولى من الغليون ودقّه برفق على منفضة السجائر، بينما كان رئيس الوزراء يتأمّل غليون والدي، ثم ابتسم وقال: شيخ راشد.

فردّ عليه والدي: نعم.

أومأ ويلسون برأسه ونظر إلى غليونه وهو يقول: انظر، غليوني أكبر بكثير

من غليونك.

ابتسم والدي ثم نظر إليّ وقال: قُل لويلسون إنني متفق معه بأن غليونه أكبر، ولكن بالرغم من أن غليوني صغير إلا أن التبغ المستخدَم فيه قوي وثقيل للغاية. ابتسم ويلسون وأخذ نفَساً عميقاً. عرفتُ بعدها أن المقصود لم يكن الغليون أبداً، ولكنها لغة السياسيين، ورسائلهم التي يريدون إيصالها. كانت رسالة ويلسون تعبّر عن حجم بريطانيا العظيم بالنسبة لنا وقدراتها الكبيرة في فعل ما تشاء. وكانت رسالة والدي واضحة جداً؛ لا تستهن بصغر حجمنا، فنحن أقوياء، ولدينا إصرار وقوة قد لا تكون ظاهرة لكم، ونحن قادرون بقوتنا على حماية أنفسنا.

انتهت المحادثات بشكل إيجابي، ورجعنا إلى دبي ونحن نعتقد أننا استطعنا بناء جسور تفاهم، والتأكيد على وعود الانسحاب في الوقت المحدَّد، حتى حدث ما لم يكن في الحسبان بعد هذا الاجتماع بأقل من عام.

جرت انتخابات عامة في المملكة المتحدة في ربيع عام 1970. وتعرّض صديقي صاحب لكنة يوركشاير لهزيمة نكراء على يد إدوارد هيث الذي فاز بأغلبية ثلاثين مقعداً في مجلس العموم. كان ذلك الفوز مصدر قلق لنا في البداية على خلفية تصريحات أدلى بها هيث قبل الانتخابات حين قال إن بريطانيا قد تبقى في منطقة الخليج للوفاء بالتزاماتها، ولحماية احتياطي النفط العالمي.



مع رئيس الوزراء البريطاني هارولد ويلسون | عام 1969

تزايدت حدة التوتر آنذاك، إذ لم نكن لنقبل على الإطلاق بأي شكل من أشكال البقاء البريطاني. وقد حرصنا على نقل هذه الرسالة إلى رئيس الوزراء إدوارد هيث عبر كل القنوات المتاحة. ولم أتنفس الصعداء حتى مارس 1971، رغم التطمينات التي وصلتني من مصادر سياسية، حيث تم الأمر رسميّاً وأعلن هيث أن بريطانيا ستنسحب كما وعَدَت.

للسياسيين لغة دبلوماسية، وللواقع لغة مختلفة؛ لغة القوة. كان لدينا إصرار على بناء تلك القوة مهما كلف الثمن، وتلك كانت رسالة والدي. وكانت المسؤولية الكبرى أمامي أن أبني القوة التي تستطيع بها دولتنا الوليدة التحدث من خلالها مع بقية دول العالم ندّاً بند.

26
سباق مع الزمن.. والمستشارين



اجتماع مع الشيخ زايد بن سلطان ووالدي الشيخ راشد بن سعيد

منذ العام 1968 وحتى العام 1971 كنا في سباق مع الزمن؛ سباق لتأمين أهم اتفاق عربي، اتفاق ما زال سارياً حتى اليوم، اتفاق كانت نتيجته دولة الإمارات العربية المتحدة، الدولة العربية الوحيدة التي قامت نتيجة اتحاد العرب وليس تقسيمهم، الدولة الوحيدة التي قامت على انضمام مناطق عربية بالاتفاق وليس ضمها بالقوة، الدولة الوحيدة التي أثبتت أن العرب يمكن أن يتفقوا ويعملوا كفريق واحد لبناء مستقبل

مشترك لشعوبهم، الدولة التي تحدّت روح العصبية القبلية التي ما زالت قائمة حتى اليوم في معظم بلادنا العربية، وإن تلبَّست اليوم بشعارات طائفية ودينية وعرقية وغيرها.

ما زالت فينا تلك الروح التي يقول عنها الشاعر:

ومَـا أنَــا إلا مِــن غَـزِيَّــةَ إنْ غــوَتْ
غـوَيْــتُ وإنْ تَـرشُــدْ غـزَّيَــةُ أَرْشُـــدِ

وكما قال شاعر آخر:

وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا المَاءَ صَفْـواً
وَيَشْـــرَبُ غَيْـــرُنَا كَـــدِراً وَطِيْـــــنَـا

اتحاد دولة الإمارات هو استثناء في تاريخنا العربي المعاصر، إقامة دولة بناء على اتفاق بين شعوبها ومن دون إراقة دماء هو إنجاز لم يتم الاحتفاء به وتعميمه عربياً للأسف.

كانت المشاعر التي سبقت اتحادنا بثلاث سنوات تتأرجح بين الحماسة الشديدة للحلم الجديد، وبين خيبات الأمل من بعض من كنّا نظنهم أصدقاء. كما كان هناك خوف أحياناً من عدم إنجاز الاتفاق في موعده وتفويت فرصة تاريخية قد لا تتكرر. في تلك الظروف، كان الشيخ زايد والشيخ راشد هما الركنان اللذان كنّا جميعاً نستند عليهما. كانا الأساس الذي يجعل إيماننا بالاتحاد راسخاً وقت اشتداد الخيبات والتحديات.

شهدت تلك الأعوام نشاطاً سياسياً مكثفاً، كنتُ فيه ملازماً لوالدي الشيخ راشد، وكان يكلّفُني بالكثير من المهام والوساطات والمفاوضات التي كنت أقوم بها مع أخي الشيخ مكتوم نيابة عنه. كنّا نتكلّم نيابة عنه وعن سلطته أيضاً، وكان ذلك مصدر قوّة واحترام لنا، ودرساً لن أنساه في أهمية تفويض الصلاحيات لمن تثق به حتى يستطيع إنجاز العمل الذي تم تكليفه به.

كان لدى والدي إصرارٌ على عقد اتحاد تُساعي يضم إلى جانب الإمارات السبع قطر والبحرين أيضاً، وكان يضغط دائماً لإنجاز ذلك قبل العام 1971.

اجتمع الحكام في 25 فبراير 1968 في جميرا، وتوصلوا إلى ما عُرف باتفاقية دبي لإقامة اتحاد تساعي، وشكلوا المجلس الأعلى للاتحاد. وبدأوا في المفاوضات التفصيلية. واستضافت أبوظبي الاجتماع الأول

للمجلس الأعلى للاتحاد في يوليو من العام نفسه تمخّض عنه إنشاء المجلس الاتحادي المؤقت وتحديد اختصاصاته وتعيين أعضائه. وكان من المفترض أن يمثل أخي وولي العهد الشيخ مكتوم دبي في ذلك المجلس، وكانت هناك الكثير من المسائل العالقة مثل توزيع السلطات والموازنات وغيرها.

على مدى عامين، عقد المجلس الأعلى لاتحاد الإمارات والمجلس الاتحادي المؤقت عدة دورات اجتماعات، واصلنا خلالها الكثير من المفاوضات الصعبة رغم الكثير من الضغوط التي تعرضنا لها في تلك الفترة؛ ما بين إشاعات بعدم رضا شعوبنا عن حكامها، وتقارير إعلامية هاجمتنا كحكومات متهمةً إيانا بأننا لا نبذل جهوداً حقيقية من أجل الاتحاد، وبأن الشعوب غير راضية عن حالة الاتحاد المتذبذبة. ولكننا واصلنا طريقنا. حافظنا على هدوئنا وثباتنا تحت سياط الألسنة في بعض الأحيان، وتحت التهديدات بتدخل عسكري في أحيان أخرى. كان الكثيرون يرون دولةً على وشك أن تنبعث، وإمكانياتها مدعومة بالنفط، بينما رأى آخرون أمّةً لا بد من الاستيلاء أو السيطرة عليها لمصالحهم الخاصة. أما نحن، فكنا نرى إمكانية الاستمرار فقط، خطوة بخطوة وبثبات.

التقى والدي جميع شيوخ الخليج محافظاً على نشاطه، وكنتُ معه في كافة اجتماعاته. وفي النهاية، كان الجميع يتمنّون الخير للإمارات، الأمر الذي شكّل حافزاً لنا لنواصل ما عزمنا عليه، ولنطمئن الشعب بأننا ماضون في الطريق الصحيح لتأسيس دولة جديدة وقوية بإذن الله.



خلال أحد الاجتماعات بحضور والدي الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم

> صارحت والدي بأن المستشارين سيكونون مسؤولين عن تدمير فكرة الاتحاد. كانوا يتاجرون بالمعلومات والشائعات. كانوا يحاولون تعميق الانقسامات وليس حلها. كنتُ أمقتُ كل ذلك

عملنا أنا ووالدي وأخوتي كما يعمل فريق التتابع، فلم نتوانَ لحظةً واحدةً

عن بذل الجهد اللازم، وكانت الحاجة ملحّة لتحقيق نتائج هائلة في ذلك الإطار الزمني القصير.

في مايو 1969، حضرنا الدورة الثالثة من المجلس الأعلى للاتحاد التي انعقدت في قطر بهدف تشكيل الاتحاد. كنتُ أعمل مع والدي عن كثب، وكثيراً ما كنتُ أمارس بعض الضغوط نيابةً عنه. كانت موضوعات الخلاف الرئيسية تتمثل في الكيان البرلماني وهيكله، والمجلس الوطني الاتحادي، ومسألة التمثيل أو التمثيل المتساوي للإمارات. كان لا بد من التوصل إلى حلول مناسبة لتلك القضايا. وفي النهاية تحلّى الكثيرون منا بالإيثار كي ننجح في تشكيل الاتحاد. واتفقنا في دبي على التمثيل النسبي؛ لتمثّل هذه إحدى اللحظات الفارقة في تشكيل الاتحاد.

بدأ المستشارون الذين يمثّلون مختلف الإمارات في وضع تلك الاتفاقات التي تمت بين الحكام في إطارها التفصيلي النهائي وتوثيقها بشكل صحيح، وبدأت جولاتهم التي لا تنتهي، وحديثهم الذي يشعرك بأن حلم الاتحاد ليس قريباً كما نظن، وبدأت العقبات القانونية التي يضعونها أمام الاتحاد تتزايد يوماً بعد يوم. كنتُ أراقب كل ذلك باستياء. كنتُ أعرف أنهم لا يريدون لهذه المفاوضات أن تنتهي، ولا يريدون لهذا الاتحاد أن يولد، لأن وظيفتهم ستنتهي بولادته، وتكسّبهم من هذه الجولات والمفاوضات سيتوقف. إلا أنك لا تملك أحياناً إلا الصبر، والاستناد إلى الحكمة والدهاء أحياناً لتجاوز العقبات التي يضعونها.



خلال اجتماع مع أخوَيْ الشيخ مكتوم والشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم | عام 1971

صارحت والدي بأن المستشارين سيكونون مسؤولين عن تدمير فكرة

الاتحاد. كانوا يتاجرون بالمعلومات والشائعات. كانوا يحاولون تعميق الانقسامات وليس حلها. كنتُ أمقتُ كل ذلك.

ولكنني كنتُ واثقاً ومتأكداً بأننا وصلنا إلى النقطة التي لم يعد فيها الاتحاد خياراً، بل مصيراً ويقيناً.

كنا في سباق حقيقي مع الزمن، سباق مع الوجود البريطاني، ومحادثات كثيرة لتأكيد انسحابهم وتأكيد قدرتنا على حماية أنفسنا، سباق مع بقية الإمارات عبر رحلات مكوكية للاتفاق على كافة النقاط العالقة في تأسيس الدولة، وسباق أخير مع المستشارين لإنهاء الإطار القانوني لكافة تلك الاتفاقيات. كانت سنوات حاسمة لبناء دولة وتحقيق حلم وصناعة مستقبل لأبناء الإمارات.

27

إعلان
الا ـــــاد



الآباء المؤسسين لدولة الإمارات العربية المتحدة

هناك لحظات سيكتبها التاريخ بمداد من الإنجازات، لحظات لا تجاريها لغة الكلمات. من تلك اللحظات لحظة إعلان اتحاد الإمارات.

استمر العمل بكل جدٍّ وعزيمة لانتزاع لحظة تاريخية وحدوية حقيقية في مسيرة العمل العربي الطويل المليء بالأحلام والإخفاقات والعواطف الجياشة.

استأنفنا سلسلة الاجتماعات الطويلة الرامية إلى تشكيل الاتحاد، وتقرَّر عقد اجتماع المجلس الأعلى للاتحاد في أبوظبي في أكتوبر 1969 بحضور تسعة أعضاء من الاتحاد. تضمّن جدول أعمال الاجتماع عدّة نقاط كان منها انتخاب الرئيس ونائب الرئيس، واختيار العاصمة الاتحادية، وتشكيل المجلس الوطني الاتحادي. كانت كل تلك المواضيع تستدعي جلسات حوارية مطوّلة واستشراف عمليّ كي تؤتي ثمارها.

قال صاحب السمو الشيخ زايد في مستهل الاجتماع: لقد اجتمعنا اليوم في أبوظبي وأمامنا فرصة تاريخية. نستطيع مواجهة كل ما يحمله المستقبل من غموض، ودعونا لا ننسى الثمن الذي سنتكبّده إذا أخفقنا في اغتنام الفرصة السانحة أمامنا.

مهّدت تلك الكلمة لاجتماعات مثمرة، حيث تم انتخاب صاحب السمو الشيخ زايد رئيساً وصاحب السمو الشيخ راشد نائباً للرئيس. كما انتخب ولي عهد قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني رئيساً لمجلس الوزراء، وتم إعلان أبوظبي عاصمةً مؤقتة للبلاد.

ما كان من البريطانيين إلا أن أفسدوا تلك الحالة من النشوة عندما أرسلوا إلى المجلس بياناً سلّمه المقيم السياسي في البحرين ستيوارت كروفورد. انتاب الغضب بعض المشاركين في الاجتماع وغادروا الغرفة، وذهبت كل الجهود سدى. وبينما كنتُ أراقب الجلسة وهي تتداعى أمامي، أذكر أنني نظرتُ إلى يدي المطبقتين على حجري، ذلك يعني أن أمامي 24 شهراً فقط قبل انسحاب بريطانيا، وكان لا بدّ لي من التفكير في احتمالية أن تكون دبي بمفردها. لم أكن لأرضى بذلك إطلاقاً، لكن واجبي كان يحتّم عليَّ الحفاظ على أمنها، فكان عليَّ بذل جهد أكبر من أي وقت مضى في بناء قوة الشرطة وقوة دفاع دبي.



في اجتماع لأصحاب السمو حكام دولة الإمارات

بدأ الحلم يتلاشى أكثر فأكثر عندما أعلنت قطر في الثاني من أبريل 1970 دستوراً، وتم تشكيل مجلس للوزراء، قبل أن تعلن في 3 سبتمبر 1971، استقلالها عن بريطانيا رسمياً. عندما لم يروا أملاً في الاتحاد، أقدموا على تلك الخطوة الجريئة، وتبعتهم في ذلك البحرين عندما قررت المضي قدماً وحدها. وفي 14 أغسطس 1971، أعلنت البحرين استقلالها متقدمة بطلب الاعتراف بها كدولة لدى الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية. وكنا نحن الإماراتيين أول المهنّئين. إن لم يُكلَّل الاتحاد بالنجاح، فلا شك أننا جميعاً كنا سنواجه هذا المستقبل لأنه كان الخيار الوحيد كي لا تبقى سيادتنا منقوصة.

خلال شهري أبريل ومايو من عام 1971، عملتُ أنا وأخوتي دون كلل أو ملل لتشكيل الاتحاد، الذي يجمع الإمارات السبع، وأقنعنا الجميع بالتوصّل إلى اتفاق. وبالطبع واجهتنا بعض الانتكاسات كما حدث في 10 يوليو 1971 خلال اجتماع مجلس الإمارات المتصالحة في دبي والذي حضرته مع الشيخ مكتوم، حيث أصرّت بعض الإمارات على ترتيبات تعطيها استقلالية واسعة. استمرت المحادثات المطوّلة على مدى ثمانية أيام، وفي يوم الأحد 18 يوليو حدثت الانفراجة، وتم التوصل إلى اتفاق، حيث أصدرنا البيان التالي:

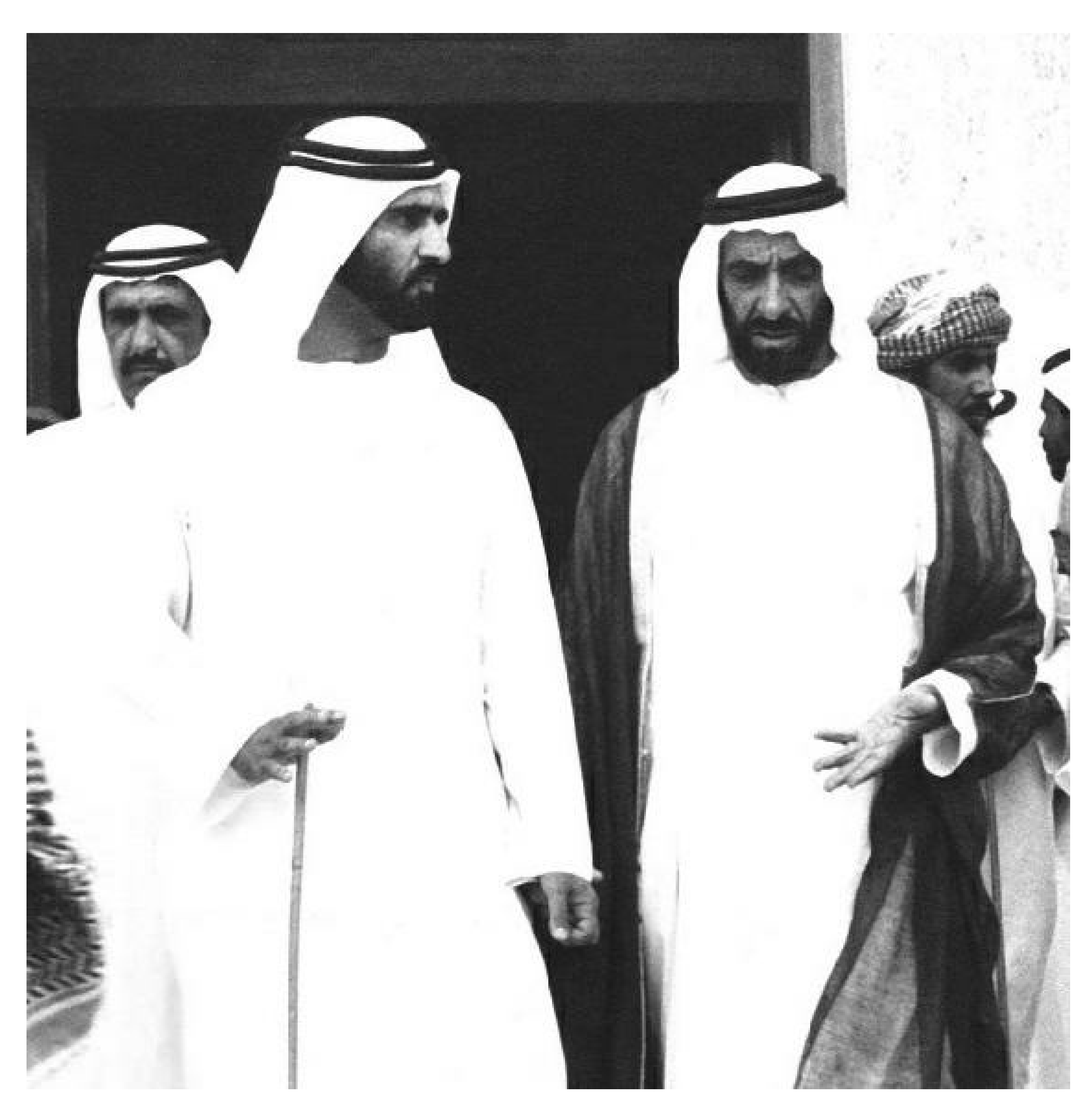
"استجابةً لرغبة شعبنا العربي، فقد قررنا نحن، حكام إمارات أبوظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القيوين والفجيرة، إقامة دولة اتحادية باسم الإمارات العربية المتحدة، وفي هذا اليوم المبارك تم التوقيع على دستور الإمارات العربية المتحدة المؤقت، وإذ نزفُّ هذه البشرى السارة إلى الشعب العربي، نرجو الله تعالى أن يكون هذا الاتحاد نواة لاتحاد شامل يضم بقية أفراد الأسرة من الإمارات الشقيقة التي لم تمكّنها ظروفها الحالية من التوقيع على هذا الدستور".

لم تكن الظروف في صالحنا، وعندما كنا نجلس ونتحدّث في الليل بعد عمل اليوم ونعقد جلسات استعراضية مع والدي، بدا كل شيء واضحاً وضوح النهار. كنا بحاجة ملحّة إلى تحقيق عدة أمور قبل الانسحاب البريطاني، ومنها بناء اقتصادٍ مستقر، وبناء قوة دفاع قوية تستطيع التعامل مع المنطقة المضطربة، وتحقيق الأمن والأمان، والحاجة لصوت واحد يتولى تأسيس أمة كاملة، هي: دولة الإمارات العربية المتحدة.

"

هناك لحظات سيكتبها التاريخ بمداد من الإنجازات، لحظات لا تجاريها لغة الكلمات. من تلك اللحظات لحظة إعلان اتحاد الإمارات

"



مع الوالد المؤسس الشيخ زايد بن سلطان

بالرغم من كل ذلك، فقد حشدنا الصفوف واجتمعنا تحت مظلة واحدة وكانت لنا الغلبة بتحقيق غايتنا. وفي الأول من ديسمبر عام 1971، أجرى المقيم السياسي البريطاني جولته الأخيرة في الإمارات المتصالحة، وبعدها أنهى كل الاتفاقيات المشروطة المبرمة مع بريطانيا منذ معاهدة السلام عام 1820، ومن بينها تعهُّد بريطانيا بحماية الإمارات.

وفي الثاني من ديسمبر عام 1971، اجتمع حكام أبوظبي ودبي والشارقة وعجمان والفجيرة وأم القيوين في قصر الشيخ راشد بدبي. وفي جلسة مغلقة، انتخب الحكام بالإجماع الشيخ زايد رئيساً والشيخ راشد نائباً للرئيس وأخي الشيخ مكتوم ولي عهد دبي رئيساً للوزراء.

وتم إصدار بيان تاريخي نص على التالي:

"في هذا اليوم، الخميس، الموافق الثاني من ديسمبر عام 1971، وهنا في إمارة دبي اجتمع حكام أبوظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القيوين والفجيرة بصفتهم موقعين على الدستور المؤقت لدولة الإمارات العربية المتحدة؛ في جو مفعم بالعواطف الأخوية الصادقة والثقة المتبادلة والعزيمة القوية الثابتة؛ من أجل تحقيق طموحات الشعوب في هذه الإمارات، وأصدروا إعلاناً سوف تسري بموجبه شروط الدستور آنف الذكر منذ هذا التاريخ".

ثم تابع الحكام اجتماعهم تحت مسمى المجلس الأعلى للاتحاد. وبتوفيق من العلي القدير، انتُخب صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، حاكم أبوظبي رئيساً لدولة الإمارات العربية المتحدة لمدة خمس سنوات ميلادية، وانتُخب صاحب السمو الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم، حاكم دبي نائباً للرئيس للفترة نفسها. وأدى كلاهما اليمين الدستورية بموجب أحكام الدستور. أما الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم، ولي عهد دبي، فقد تم تعيينه رئيساً للوزراء. وسيعقد المجلس اجتماعه الثاني في أبوظبي يوم الثلاثاء السابع من ديسمبر 1971.

"يحمل المجلس الأعلى أنباءً سارة لشعب الإمارات العربية المتحدة ولجميع الدول العربية الشقيقة والدول الصديقة حول العالم. نشهد اليوم تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة بصفتها دولة مستقلة ذات سيادة وجزءاً من أمة عربية كبرى. تهدف هذه الدولة إلى الحفاظ على استقلالها وسيادتها وأمنها واستقرارها في الدفاع ضد أي هجوم يتعرض له أي فرد من أفراد الشعب الإماراتي. كما تسعى إلى حماية حريات شعبها وحقوقهم وإرساء أواصر التعاون بين الإمارات بما يصب في الصالح والخير العام. فضلاً عن الغايات المذكورة أعلاه، تهدف أيضاً إلى العمل نحو ازدهار الدولة وتقدمها في جميع المجالات بما يثمر عن توفير حياة أفضل لجميع مواطنيها وتقديم

المساعدة والدعم للقضايا والمصالح العربية ودعم ميثاق الأمم المتحدة والأعراف الدولية.

يدين الاتحاد استخدام القوة ويعرب عن أسفه إزاء ما فعلته إيران مؤخراً باحتلال جزء من الأمة العربية. وعليه، فهو يرى بأنه من الضروري الالتزام بالحقوق القانونية وفض النزاعات بين الأمم بالوسائل المعترف بها والمقبولة عالميّاً.

في هذه المناسبة التاريخية المباركة، يتجه المجلس الأعلى للاتحاد بالشكر والثناء العظيم لله عزّ وجلّ لمساعدته وتوفيقه بالوصول إلى هذه النتيجة السعيدة. كما يتوجّه المجلس بأحر التهاني والتبريكات لشعب الاتحاد بتحقيق الأمن والأمان والذي جاء نتيجةً لإيمانهم بالمجلس وبأن أي شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد في هذا الجزء من العالم هو بمثابة خطوة على الطريق الصحيح نحو تحقيق وحدة عربية كاملة. يؤكد الاتحاد على التزامه بالترحيب بأي دولة عربية أخرى ترغب بالانضمام إلى الإمارات العربية المتحدة وخصوصاً الإمارات الشقيقة التي وقعت اتفاقية اتحاد الإمارات العربية المتحدة في دبي يوم 28 فبراير 1968".

نعم ما زلنا نرحب بأي دولة عربية ترغب بالانضمام، لأننا نؤمن بأن طريق الاتحاد هو طريق خير وازدهار وقوة للشعوب، وحتى إن لم نتوحد على الأرض فلم لا تتوحد القلوب؟

في 16 ديسمبر 1971 ذهبتُ مع الشيخ مكتوم، رئيس الوزراء، إلى أبوظبي لحضور أول اجتماع للمجلس في ظل حكومته الجديدة التي عُينت فيها وزيراً للدفاع. كنت أصغر وزير للدفاع في العالم، كنت أبلغ من العمر 22 عاماً، وكانت أمامي مهمة كبرى في بناء قوة رادعة لهذا الاتحاد الوليد.

28
ماذا بعد الاستعمار؟



مع والدي الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم

ماذا يحدث في أول يوم بعد رحيل استعمار دام 150 عاماً؟

لعل الإجابة عن هذا التساؤل تشكل مدخلاً لفهم الكثير مما يحدث اليوم في وطننا العربي، حيث رحل الاستعمار عن أغلب الدول العربية في النصف الثاني من القرن العشرين بعد حراكات ونضالات وطنية طالبت برحيله، لتستفيد الشعوب من ثروات بلادها التي حُرمت منها لفترات

طويلة، وليصبح لها الحق في تقرير مصيرها التنموي.

لم تكن الصورة دائماً وردية بعد رحيل الاستعمار. فالدول بعد الاستعمار تزدهر بالإدارة الجيدة للاقتصاد، وبالإدارة الجيدة للخدمات الأساسية للشعب، وبالعلاقات الجيدة مع جيرانها، وأيضاً بالإدارة الحكيمة للنزاعات الحدودية التي تركها المستعمر بين بلداننا كقنابل موقوتة. الإدارة الجيدة أوصلت بعض الشعوب إلى القمة، والإدارة السيئة انحدرت بشعوب أخرى إلى القاع.

نلوم في الكثير من الأحيان المستعمر على تراجعاتنا التنموية، وحروبنا العبثية، واقتصاداتنا المتهالكة، وحتى على تدهورنا الثقافي والعلمي. والحق أن اللوم يقع علينا نحن الذين تصدّينا لإدارة الحكومات بعد رحيل الاستعمار.

كنت موجوداً عندما رحل آخر الجنود البريطانيين من قاعدة سلاح الجو الملكي بالشارقة. رحل الاستعمار بعد 150 عاماً من تواجده الثقيل في منطقتنا التي لم يأبه باحتياجات سكانها التنموية. كنتُ مسؤولاً عن استلام تركته العسكرية ومهامه الدفاعية. مع رحيل آخر طائرة، تعالت صيحات جنودي فرحاً وفخراً. أحسستُ بالحرية الكاملة في ذلك اليوم؛ الحرية الكاملة في إدارة شؤون بلادنا الداخلية والخارجية، السياسية والدفاعية، الاقتصادية والتنموية. إحساس بالحرية الكاملة، رافقه إحساس آخر شعرتُ بثقله على نفسي؛ إحساس بالمسؤولية الكاملة.

كنت أتنقّل كثيراً بين الإمارات المختلفة كجزء من مهمتي الأساسية في بناء قوة دفاع اتحادية. كانت الأوضاع سيئة بالنسبة لعدد كبير من مواطنينا، وخصوصاً أولئك ممن يعيشون في الإمارات ذات الموارد الأقل. كان الناس يضطرون لشرب المياه غير النظيفة من الآبار، مما أدى إلى ارتفاع معدلات الوفيات بين الأطفال. لم يكن لدينا عدد كافٍ من المدارس والمستشفيات. لم نكن نمتلك شبكة طرق جيدة تربط بين إماراتنا. كنا ننظر إلى المياه النظيفة والكهرباء كنوع من الكماليات والترف.

عندما أعلنا الاتحاد سرت روحٌ جديدة بين المواطنين، روح تواقة للتغيير، روح متطلِّعة للمستقبل بأمل جديد. كان شعبنا يتطلّع للراحة بعد التعب، وللصحة بعد المرض، وللعلم بعد الجهل. كان شعبنا يرى في الاتحاد خلاصاً من سنين طويلة من الشقاء.

أثناء جولاتي اليومية بين المراكز العسكرية المختلفة في أنحاء الإمارات،

كنتُ حريصاً على لقاء العديد من العائلات والجلوس معها. كانت لدينا مؤنٌ جيدة، وكنتُ أوزّعها على تلك العائلات. كنتُ أدخل البيوت وأرى بعيني أن أمامنا طريقاً طويلاً لتغيير حياة الناس للأفضل. ولعلّ زياراتي المتكررة لتلك العائلات جعلتني حريصاً جداً في طلب ميزانية الدفاع والتسليح التي كنت أحتاج إليها. كنت أرى حاجةً ماسة لبناء مدارس وعيادات وطرق ومساكن، حاجة ماسة لبناء الإنسان. وكان الشيخ زايد والشيخ راشد يعدّلان على ميزانية الدفاع أحياناً بالزيادة لمعرفتهما بأنني كنتُ أقتصد لتوفير الميزانية الاتحادية للمشاريع التنموية التي كانا يشرفان عليها ويتابعانها بنفسيهما. كان زايد وراشد يريان ما أرى، ويعرفان احتياجات المواطنين أكثر مني، لذلك تركا لي معركة بناء قوة الدفاع وتفرغا لمعركة التنمية، لأنها الأهم.

لا يمكن لأيّ دولة أن تنظر إلى قوتها العسكرية على أنها أهم من رفاهية شعبها وراحته. قد يبدو قولي هذا غريباً بصفتي وزيراً للدفاع، ولكن إن لم يتمّ تحقيق التوازن، ستصبح مسؤوليةُ الجيش الدفاعَ عن مجموعة من المواطنين التعساء والأراضي الجرداء.

إن السرّ وراء عظمة أيّ دولة ليس في نفوذها العسكري، بل في قوتها التنموية. أنظر اليوم إلى دولة مثل كوريا الشمالية تتحدى العالم بقوتها العسكرية، ولكن شعبها فقير، فقير حدّ الجوع أحياناً. وأنظر إلى دولة مثل كوريا الجنوبية أو اليابان، لا تملكان جيشاً كبيراً، لكن اقتصادهما يجعلهما في مصاف الدول الكبرى التي تسعى جميع الدول إلى إقامة علاقات متميزة معها.

حبانا الله بحكمة القادة المؤسسين في بداية الاتحاد لنوازن بين إنفاقنا العسكري وبين ميزانياتنا التنموية، ونوازن بين معاركنا الداخلية في البناء، ومعاركنا الخارجية لتحسين العلاقات وتجنُّب الأزمات، ونوازن بشكل مثالي بين رفع العمران وبين بناء الإنسان.

اليوم التالي لرحيل المستعمر هو اليوم الذي تحدِّد فيه معركتك التالية. بعض الدول اختارت المعركة الخطأ، ورحمنا الله بزايد وراشد ليختارا المعركة الصحيحة.

29

جيش واحد
لدولة واحدة



من أكثر المهام حساسية التي تولّيتُها في حياتي بناء جيش موحد للدولة الجديدة. الجيش دائماً هو الرادع للأعداء الخارجيين، وهو الضامن للتماسك الداخلي، وهو الحامي من الفوضى وقت الأزمات الكبرى، وهو الفاصل وقت النزاعات، وهو الحامي لكافة المكتسبات، وهو الضامن للاستقرار الذي تبحث عنه الاستثمارات. الجيش أساس وضمانة وحماية واحترام بين الأمم. وفي حالة دولة الإمارات، كان التحدي الرئيسي بناء جيش رادع لأعداء الخارج وضامن لاستقرار الداخل، والعمل بشكل موازٍ على توحيد كافة القوات الإماراتية تحت مظلة اتحادية واحدة خلال الدورة الأولى من عمر الحكومة الاتحادية، وهو خمسة أعوام، أي قبل العام 1976.

كانت خطتي التي وضعتها قبل ثلاثة أعوام تمضي بطريقة منتظمة بفعل حماسة الرجال، وبفضل الروح الجديدة التي كانت تسري في الدولة، وبدعم الشيخ زايد والشيخ راشد اللذين باركا الخطة بعد أن عدّلا عليها وراجعاها مراراً معي.

عندما كان رجالي يلبّون النداء للقتال كنتُ أقاتل إلى جانبهم. كنتُ حريصاً على أن أكون أول من يقود الرجال في النزاعات المسلّحة وآخر من يغادر

فور تأسيس الاتحاد في 2 ديسمبر 1971، بدأتُ العمل على إدارة عملية تسلّم المهام من القوات البريطانية، مع حرصي الشديد على أن تتم هذه العملية بسلاسة ويسْر، كنتُ أعرف قاعدة سلاح الجو الملكي في الشارقة حقَّ المعرفة. وفي 22 ديسمبر، تسلمت منهم "قوة ساحل عمان" التي تحولت إلى "قوة الدفاع الموحد" المكونة من سلاح الجو الملكي وكتيبة المشاة التي ضمت نحو 2500 فرد. وكانت هذه القوة قد شكلتها بريطانيا في العام 1951 لبسط الأمن والاستقرار في المنطقة الممتدة من أبوظبي إلى رأس الخيمة باستخدام بريطانيين ممن خدموا

في الهند وعدد محدود من الأفراد تمّت استعارة معظمهم من الفيلق العربي في الأردن، بالإضافة إلى مواطنينا ممن تلقّوا تدريبات على يد البريطانيين. وضمّت هذه القوة خمس سرايا مشاة، وسرية إسناد، وسرية اللاسلكي، وسرية التدريب، وسرية المشاغل، والسرية الطبية، والموسيقى العسكرية، ومدرسة تعليم الصغار. وقد شكلت تلك القوة لاحقاً نواةً صلبةً لقواتنا المسلحة التي توسعت لتضمّ قوات دفاع الإمارات المحلية التي أنشئت من قبل حكام الإمارات كقوة دفاع أبوظبي وقوة دفاع دبي والقوة المتحركة برأس الخيمة والحرس الوطني بالشارقة والحرس الوطني لأم القيوين.

الهدف الأول الذي سعيتُ لتحقيقه بصفتي وزيراً للدفاع هو توحيد قواتنا المسلحة قبل حلول العام 1976. عملتُ لفترة طويلة على هيكلية القيادة والاستراتيجية العسكرية الخمسية، وبالفعل التزمتُ بالإطار الزمني الذي كنتُ قد وضعته لنفسي. كانت لديّ قوة قادرة على الدفاع عن الوطن في حال تعَرّضنا لهجوم، وهي موجودة في مواقعها منذ عام. وبقي عليّ فقط الانطلاق لتنفيذ هذه الاستراتيجية وبدء العمل بموجبها.

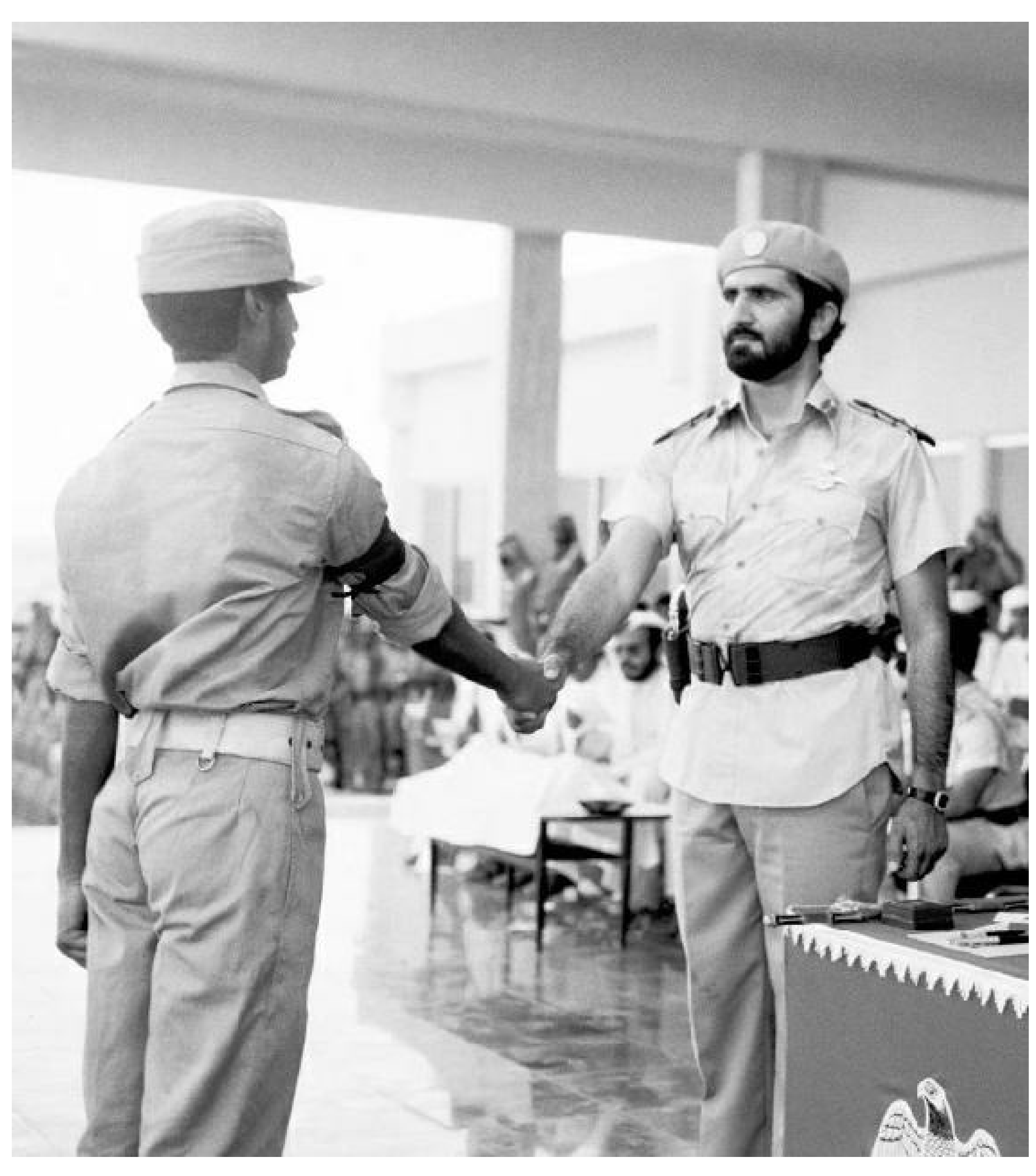
حظيتُ بتعاون كامل من قادة الإمارات، بخاصة الشيخ زايد والشيخ راشد للخروج باستراتيجية تعبّر عن الإمارات كافة، وتثمر عن تشكيل جيش قوي لشعبنا. ولأنني أتحتُ الفرصة لهؤلاء القادة بالمشاركة والاطلاع وإدلاء الرأي ليس فقط في النتيجة وإنما في العملية نفسها؛ فقد حظيتُ بدعمهم الكامل، وبتشجيعهم أيضاً.

تمكّنتُ من تحديد الآلات والتكنولوجيا التي نحتاجها، كما حرصتُ بنفسي على تجربة وفحص كل قطعة من المعدات والآلات التي كنا نجلبها. كنتُ قادراً على رؤية وتحديد ما الذي سينجح في صحرائنا، وما الذي سيكون فعّالاً ومناسباً للتضاريس المختلفة، وما الذي سيقاوم أشعة الشمس الحارقة وينقذ حياة رجالنا في الوقت نفسه. أدرك كلُّ الحكام أنني بذلتُ قصارى جهدي لإنجاز مهمّتي، ولذلك كانوا على يقين – كما كنتُ أنا – بأن الميزانية التي وضعتُها لا تتضمن أيّ هدر على الإطلاق.

في ذلك الوقت، كان لديّ نواة من الرجال الذين تدرّجوا في الرُّتَب خلال ثلاث سنوات من التدريب والتعليم وفقاً للبرامج التي وضعتُها، وكنت قد أجريتُ محادثات على مستوى عالٍ مع جيوش المنطقة، وأرسلتُ مجموعات صغيرة تتكون الواحدة منها من عشرين رجلاً للمشاركة في

دورات تدريب العمليات في المنطقة. كان لا بدّ أن يفهم ضبّاطي أنظمة تلك الجيوش، ويتعرفوا على كيفية التعاون معها، ولذلك قمنا بتجربة الأسلحة والأنظمة وهياكل القيادة الخاصة بتشكيلة واسعة من جيراننا من الأردن ومصر والسودان. كما أرسلنا ضباطاً إلى الخارج؛ إلى بريطانيا وإيطاليا وفرنسا. وهكذا، وبفضل مجموعتي النخبوية التي حققت تقدماً ملحوظاً بالفعل، أدركتُ أنني سأتمكن من تفويض بعض صلاحياتي لهم خلال فترة زمنية وجيزة، ومعنى ذلك أنه سيتسنّى لي العمل على إنشاء وزارة الدفاع والتي كانت تتطلب وقتاً أطول.

لم يكن إنشاء وزارة الدفاع بالنسبة لي مجرَّدَ وضع أساسات لمبنى جديد تتوزّع فيه المكاتب. كنتُ أعرف أن مأسسة الوزارة تعتمد في المقام الأول على العلاقات والشبكات التي كنّا سنقيمها وننشئها خلال أقصر وقت ممكن. لذلك، بدأتُ بعقد عدد هائل من الاجتماعات مع نظرائي وزراء الدفاع في بلدان المنطقة. كما كان هناك مبعوثون من طرفي يتنقلون ذهاباً وإياباً بشكل يومي. وعلى الرغم من ضغط العمل إلا أنني حرصتُ على ألّا أفوّت أيّ تدريب صباحي في ساحة العرض مع رجالي، لأنني كنتُ حريصاً على متابعة التطورات بدقة، والاطلاع على المستجدّات أولاً بأول.



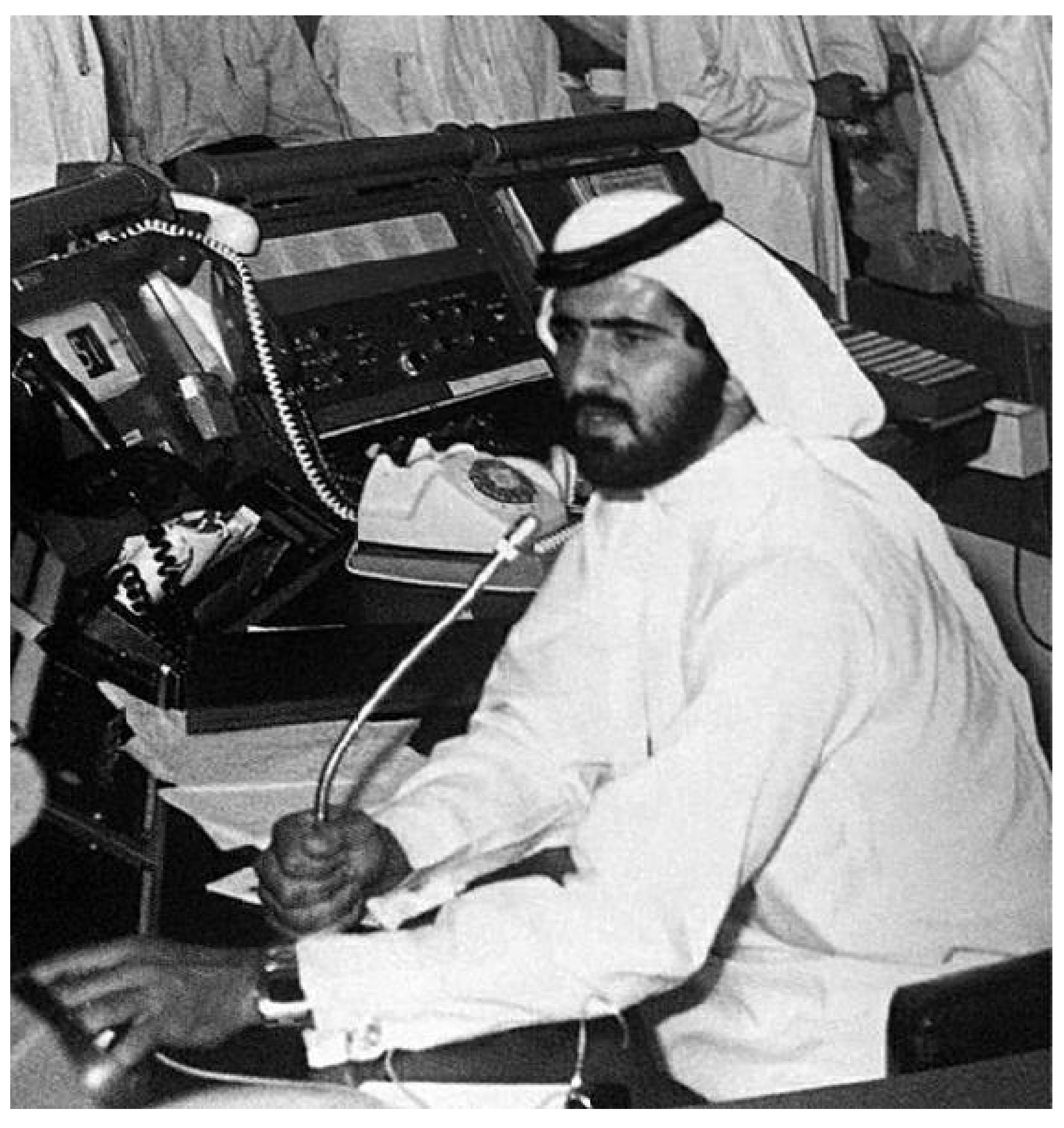
خلال تخريج إحدى الدورات العسكرية

كان العمل لتسع عشرة ساعة جزءاً من حياتنا الطبيعية. في تلك الأيام قمتُ بأول عملية شراء للمعدّات أيضاً، ورأى رجالي بكل شفافية أننا اخترنا أفضل المعدّات العسكرية المتوفرة آنذاك، ما أضفى السعادة على الجميع. كانت دبابات "سكوربيون" (Scorpion) مناسبةً للغاية من حيث الوزن وخفّة الحركة التي تتطلبها تضاريسنا الصحراوية. وقد وصلتْ مروحيات "بيل" (Bell) من تكساس، وطائرات "إيرماتشي" (Aermacchi) التدريبية من إيطاليا، وكلها قمتُ بفحصِها بنفسي.

بقدر ما كانت تلك الأيام عظيمة، فقد انطوت على الكثير من التحدّيات والمخاطر. عندما كان رجالي يلبّون النداء للقتال كنتُ أقاتل إلى جانبهم. كنتُ حريصاً على أن أكون أول من يقود الرجال في النزاعات المسلّحة وآخر من يغادر.

تعاملنا مع نزاعات مسلحة بين بعض القبائل، ومحاولة انقلاب، ومقتل حاكم الشارقة، ومحاولات اختطاف طائرات، وتوترات إقليمية، وتهديدات مستمرة. لكن كنا نعرف أننا نمضي في الطريق الصحيح، وأن اتحادنا يترسخ يوماً بعد يوم، وأن قواتنا المسلحة لا تزيدها السنوات إلا قوة وتقدماً وتطوراً. وبحكمة زايد وراشد وجهود المخلصين من أبناء القوات المسلحة ومعنوياتهم العالية استطعنا، بحمد الله، تجاوز أصعب السنوات لنصل إلى النقطة التي لا يمكن تخيُّل العالم العربي فيها من دون دولة الإمارات العربية المتحدة.

30
حوار مع إرهابي



خلال التفاوض مع أوسامو ماروكا | عام 1973

أول حوار أجريته مع إرهابي كان في يوليو 1973، اسمه أوسامو ماروكا.

كان زعيماً معروفاً في منظمة مسلّحة أطلقت على نفسها اسم "الجيش الأحمر الياباني"، التي كانت تسعى من بين أهدافها إلى الإطاحة بالملكية والحكومة اليابانية والبدء بثورة عالمية. أقامت هذه المنظمة علاقات مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، دعماً لقضية الشعب الفلسطيني. ومن أجل دعم قضية الشعب الفلسطيني العادلة قام ماروكا مع عناصر من الجبهة باختطاف طائرة وعليها 118 راكباً مهدِّدين بتفجير الطائرة وقتل جميع من فيها.

كيف تستطيع التفاهم مع مجموعة هذا منطقها؟ يريدون قتل أبرياء لحل قضية أبرياء آخرين! يريدون تسجيل بطولة في مساعدة المظلومين من خلال ظلم مجموعة أخرى وقتلهم! يستغلّون تعاطف المجتمعات مع قضية عادلة فيجنِّدون الأتباع لإرهاب مجتمعات أخرى لا ذنب لها ولا ناقة لها ولا جمل، كما يقولون.

أسوأ تشويه لأي قضية عادلة هي أن يتبناها إرهابيون. إذا أراد العدو تشويه أي قضية سخّر لها إرهابيين، وسهَّل طريقهم لإرهاب المجتمعات الآمنة.

عانت منطقتنا عبر عقود طويلة من هذا المنطق ومن هذه العقيدة الظالمة. دول فقدت الآلاف بل مئات الآلاف من الناس وفق هذا المنطق!

مجتمعات فقدت عشرات السنين من النمو والتطور بسبب فكر إرهابي يبدأ بقضية عادلة وينتهي بذبح أبرياء دون أي مبرر.

كنت في قاعدة عسكرية عندما رنّ هاتفي، ليتم إبلاغي باختطاف طائرة الخطوط الجوية اليابانية، طراز بوينغ 747، وطلبها الإذن بالهبوط في مطار دبي. أبلغتُ الشيخ زايد والشيخ راشد بتفاصيل الوضع، وتوجهتُ مباشرة إلى المطار لإجراء الترتيبات اللازمة قبل وصول الطائرة.

أعطيتُ أوامري بإخلاء مهبط الطائرات وتوجيه كافة الطائرات القادمة لمطارات أخرى قريبة. كنتُ في موقعي مع فريقي، وانتظرنا الطائرة لتدخل مجالنا الجوي وتتواصل مع برج المراقبة، وسرعان ما امتلأت الغرفة بأصوات الطيارين فأعطيتُ إذناً بهبوط الطائرة المختطَفة على أراضي دولة الإمارات العربية المتحدة، في حادثة هي الأولى من نوعها.

هبطت الطائرة، وكان إجمالي من على الطائرة بالإضافة للمختطفين والطاقم 145 شخصاً، بينهم أربعة فلسطينيين والياباني الذين كانوا قد

اختطفوا الطائرة، رحلة رقم 404 والمتجهة إلى طوكيو من أمستردام بهولندا. كانت الطائرة في حالة سيئة، حيث انفجرت إحدى القنابل بأحد المختَطِفين، وهي امرأة لتلقى حتفها على الفور. نجت الطائرة بأعجوبة من ذلك الانفجار، وهبطت بسلام على أرض السلام، دولة الإمارات.

بعد هبوطها، جاء صوت قائد فريق الاختطاف أوسامو ماروكا عبر الميكروفون، مطالباً التحدث فقط مع شخص مسؤول في الدولة. رفعتُ السماعة وقلت له: تحدث! أنا معك. قال: ومن أنت؟ قلت له: محمد بن راشد آل مكتوم.

قال: إذن أنت عربي، لا بد أن تدعم القضية الفلسطينية. إنها قضيتكم.

كانوا يريدون مغادرة الطائرة والاحتماء في دولة الإمارات.

قلت له: لقد تعب الركاب من كل هذا دون أن يكون لهم أي ذنب، أطلق سراح الركاب! رد عليّ بصوت متوتر: سأفجر الطائرة، هل تفهمني؟

كنتُ أستطيع تمييز توتره وتشنُّجه عبر موجات الراديو. قلت له: دعني في البداية أسألك عن الطعام والشراب للركاب. هل تحتاجون طعاماً أم لديكم ما يكفيكم؟

ردَّ عليّ بكل توتر: لا تغير الموضوع، لدينا متفجرات، ولدينا أسلحة، وسنقتل جميع الركاب.

بدأتُ بتهدئته، والحديث معه بكل هدوء حول مطالبه.

قلتُ له إنّ قضية الشعب الفلسطيني قضيتنا نحن أيضاً، ولكن لا يمكنني منحكم ممرّاً آمناً. يمكنني مساعدتكم في أي أمر آخر.

قال لي: نعم لدينا مطلب آخر. وكان مطلبه إطلاق أحد رفاقهم المحتجزين في إسرائيل.

طلبتُ منه أن يكون واقعياً! قلتُ له: هل تعتقد أننا نتحدث من الأساس مع إسرائيل؟ ليس لدينا أي علاقات معهم.

عدو عاقل خير من صديق جاهل وأحمق.
ولعل كثرة الأصدقاء الحمقى أضرّت بالكثير من قضايانا العادلة

طلبتُ منه الحديث مع أحد الخاطفين الفلسطينيين لعلّي أستطيع إقناعه. حوّلني إلى أحد القادة الفلسطينيين، حاولتُ الحوار معه لكنه كان أكثر توتراً وصراخاً من صاحبه الياباني.

رجعتُ للحديث مع الخاطف الياباني ماروكا، وتابعتُ الحديث معه بالنبرة نفسها وأوضحتُ له التناقض ما بين الاعتراض على ما يحصل للشعب الفلسطيني من مآسٍ، وبين ارتكاب فظائع شبيهة بحق أشخاص آخرين لإثبات وجهة النظر هذه. بقينا على الوتيرة ذاتها لفترة، ومع أنني تمكنتُ من اكتساب ثقته، إلّا أنني عرفتُ وجميع من في البرج أنه يخطّط لخطوته التالية. لقد فهمنا بعضنا بعضاً، وكنتُ واضحاً في رفضي الاستجابة لطلباته.

استمرّ الحوار لساعات طويلة، واستمرّ الوضع على حاله لثلاثة أيام، وكان الشيخ زايد والشيخ راشد على تواصل دائم معي لأنهما عرفا أنني بحاجة لأن أكون وحدي في التعامل مع الوضع. وأوصلنا الطعامَ إلى الطائرة مرتين، ورأينا أن الهدوء يعمّ الطائرة ولم نجد دليلاً على أن شخصاً قد تأذّى، كما بدا الخاطفون هادئين أيضاً.

في صباح اليوم التالي ومع بزوغ الفجر، جاءني صوت ماروكا على الراديو: صباح الخير.. أتمنى أن تكون حصلت على نوم مريح؛ كان في صوته

شيء من السخرية. يبدو أنه عرف أنني لم أنَم.

قلت له: لقد تعب الركاب من كل هذا دون أن يكون لهم أي ذنب، أطلق سراح الركاب! ليست هذه الطريقة المناسبة للتعبير عن دعمنا للقضية الفلسطينية. رد عليّ بصوت متوتر: سأفجر الطائرة، هل تفهمني؟

قلتُ له: أنت أخونا في النضال من أجل القضية الفلسطينية. وأنا أفهم تماماً دوافعك، وأتفهّم عدالة القضية التي تحارب من أجلها، ونقدّر ذلك، ولكن لا بدّ أن تكون حكيماً، وتكون صبوراً، ونتحلى جميعاً بالإنسانية تجاه هؤلاء الأبرياء. أطلق سراحهم! كان يهدأ أحياناً، ثم يعود للصراخ ويقول: لدي الكثير من المتفجرات. أستطيع تفجير هذه الطائرة الآن.

في اليوم الثالث أخبرت ماروكا الذي بدأ يشعر بالتعب بأننا وافقنا على تزويد الطائرة بالوقود لينطلق بها حيث شاء، لكننا لن نوافق على نزول الخاطفين للاحتماء في الدولة. وفعلاً، بعد تزويد الطائرة انطلق بها إلى ليبيا، وهناك تم إطلاق جميع الركاب مع طاقم الطائرة ثم قام الخاطفون بتفجير الطائرة في مطار بنغازي. لم يكن ماروكا كاذباً بشأن حجم المتفجرات التي كانت معه على متن الطائرة. وأحمد الله أن مفاوضاتنا فرضت عليه شيئاً من التعقل، بعدم تفجيرها بالركاب.

شكلت تلك الحادثة درساً مهماً لي في الحياة؛ عدو عاقل خير من صديق جاهل وأحمق. ولعل كثرة الأصدقاء الحمقى أضرّت بالكثير من قضايانا العادلة.

31

انقلاب في
بدايـة الا ـاد

إذا أردتَ تدمير دولة من الداخل، اضرب استقرارها السياسي.

إذا أردتَ خلط الأوراق، وبثّ الخوف، وتغيير الانتماءات، وتبديل الولاءات، عليك بالاستقرار السياسي.

إذا أردتَ نشر الدسائس والمؤامرات، وتقسيم المجتمع إلى فرق وجماعات، عليك بالاستقرار السياسي.

استقرار الحكم، وقوة القانون، واحترام هيبة الدولة، وتقديس الدستور كلها أساسيات وأبجديات لاستقرار الدولة. كلها مقدمات لدوران حركة المجتمع والحياة.

أول محاولة لضرب استقرار دولة الإمارات السياسي بعد إعلان الاتحاد حدثت عبر انقلاب تم في إمارة الشارقة، بعد أقل من شهرين فقط من إعلان دولة الاتحاد. وكنتُ المسؤول الأول للتصدي لهذه المحاولة.

كان زايد حاسماً جداً عندما تحدثتُ معه عن الانقلاب. قال لي: محمد أنْهِ الموضوع بسرعة!

حكم الشيخ خالد بن محمد بن صقر القاسمي إمارة الشارقة منذ العام 1965، وشارك في اجتماعات تأسيس الاتحاد ممثلاً عن إمارة الشارقة. وقدِ وقّع على الدستور المؤقت يوم 2 ديسمبر 1971، وأصبحت الشارقة جزءاً من دولة الإمارات العربية المتحدة بناء على ذلك. ولا يمكن السماح بضرب استقرارها، وتغيير نظامها، والانقلاب على حاكمها الشرعي بأي ثمن كان.

كنتُ أعرف بأن هناك انقلاباً، لكنني لم أعرف من الذي كان يقوده، وهذا

أصعب ما في الأمر. من دون معلومات لا يمكن تقدير الموقف بشكل صحيح.

أمرتُ بقطع الكهرباء عن القصر، واتصلتُ بنفسي بهم مباشرة؛ ردَّ عليّ أحد الحرس، فقلت له: من أنت؟ قال: أنا حرس الشيخ صقر بن سلطان حاكم الشارقة، فعرفتُ من هو قائد الانقلاب، وأبلغتُ الشيخ زايد بخطورة الموقف.

كان قائد الانقلاب هو الشيخ صقر بن سلطان بن صقر القاسمي (حاكم إمارة الشارقة السابق)، والذي كان معروفاً بتوجهاته القومية وتأييده لسياسة القوميين العرب. لذلك كان خوفنا الرئيسي أن يكون لحركته الانقلابية بعدٌ أعمق بكثير من خلاف داخلي على الحكم. كان خوفنا أن يكون له أنصار وأتباع وداعمون من خارج البلد.

لذلك أمرني الشيخ زايد بسرعة التحرك، خوفاً من تداعيات أخرى وإمدادات يمكن أن يحصل عليها الشيخ صقر من أي طرف من الأطراف.

طلبتُ قوات من أبوظبي لأنني لم أكن أعرف حجم القوات التي تساند الشيخ صقر، وأمرتُ بتحريك قوات من عندي أيضاً. وكان وصول القوات يأخذ وقتاً لم أجدني قادراً على تحمله. كل ما كان يدور في ذهني ساعتها بأن الاتحاد في خطر، وبأن رئيس الاتحاد لا يريد لهذا الانقلاب أن ينجح بأي حال من الأحوال. اصطحبتُ اثنين من أعواني، وانطلقتُ بنفسي إلى قصر الشيخ خالد.

وصلتُ القصرَ، وتحدثتُ مع الشيخ صقر عبر الهاتف. لم تكن قواتي وصلت بعد، ولم أكن أعرف حجم قواته التي في الداخل. كنتُ أتحدث معه، وكأنّ ورائي جيشاً كبيراً سيقتحم القصر في أي لحظة، ولا مجال أمامهم أبداً للهرب. لا أدري أكان ذلك دهاء عسكرياً أم خطأ تكتيكياً. كل ما أعرفه بأن الشجاعة في هذه المواقف تهز الخصم وتجعل موقفه ضعيفاً.

استجاب الشيخ صقر وبدأ في التفاوض. كنتُ أفاوضه أيضاً من مصدر قوة وبصلاحية كاملة. قلتُ له: إن كان الشيخ خالد بخير جهزتُ لك طائرة تنقلك أنت ومن معك لأي دولة تحبها؛ وإن كان أصاب الشيخ خالد مكروه سلّمتك للشيخ زايد يحكم فيك ما يشاء. سكت برهةً كأنها دهر، ثم ردَّ علي: خالد قُتل. كانت كلمته كفيلة بتحريك الدماء في عروقي، وقلت له: أمامك إذن خمس دقائق فقط للخروج.

خرج هو ومعه ابنه سلطان دون أن يرفعا أياديهم، عكس من معه الذين خرجوا رافعين أياديهم فحجزنا من معه جانباً بعد تجريدهم من أسلحتهم. كنتُ ملثَّماً، أمشي نحوه دون أن يعرفني. كنتُ قلقاً من مشيته وما يخبئ تحت قميصه، إلا أنه لم يُبدِ أي رد فعل. كان مستسلماً، وعرف أن لا مجال أمامه إلا التسليم، وبأن الدولة الوليدة لن تقبل به عضواً بعد الذي فعله بابن عمه، وبعد محاولته زعزعة الاستقرار السياسي للدولة.

رأيتُ عدداً من الجثث متناثرةً في أرجاء القصر. أخذته وابنه ووضعتُهما في سيارة وأرسلتهما للحجز حتى يحكم فيهما رئيس الدولة. وأما البقية، فكنتُ أعرف أكثرهم، وكانوا من المغرَّر بهم. أرسلتُهم لمناطقهم التي كنتُ أعرفها لاستدعائهم في الوقت الذي أريد. كنتُ حريصاً على إنهاء هذا الأمر بأقصى سرعة، وكان الشيخ زايد يتابع بقلق بالغ تطورات هذا الانقلاب الذي أكد عليّ أكثر من مرة، خلال اتصالاته بي، بأنه لا يجب أن ينجح بأي حال من الأحوال.

استلم الحكم بعد الشيخ خالد أخوه الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي الذي ما زال يقود الإمارة الباسمة بكل خير وازدهار واستقرار.

طوينا صفحة الانقلاب، وكانت تجربةً شديدةً وقاسيةً مع بداية الاتحاد، أحسستُ بعدها بأن الاتحاد ما زال وليداً وغضاً ومطمعاً للكثيرين، وبأن حماية هذا الاتحاد لن تكون مهمةً سهلة ويسيرة، وبأن استقرار الاتحاد قد يهزُّه أبناؤه من الداخل قبل أعدائه من الخارج. كان بي ترقُّبٌ دائم ومع كل رنين لهاتفي كنتُ أقفزُ واقفاً لأردَّ عليه استعداداً للأسوأ. لا أذكر بأني رددتُ جالساً على هاتفي في تلك السنوات.

التقيتُ الشيخ زايد بعد إنهاء الانقلاب وهو في سيارته. أعطاني بيده تمرات ثم فنجان قهوة، وكأنه يقول لي: أنت.. أنت يا محمد.

كان فنجان القهوة والتمرات أعظمَ مكافأة وأجمل شهادة شكر أتلقاها في حياتي.

32
إرهاب عابر للحدود



طائرة "لاندسهوت" التابعة للخطوط الجوية الألمانية لوفتهانزا | عام 1977

أسوأ ما قد يحدث لأي دولة أن يتم جرّها لأزمات وصراعات ليس لها فيها ناقةٌ ولا جمل. أسوأ ما قد يحدث لرجل أمن مثلي أن يأتيك إرهابٌ من خارج بلدك، عابر للحدود، لتتعامل معه وتتجنَّب إزهاق أرواح الأبرياء.

في عام 1977 بدا التوتر حليفي على الدوام، حتى إنني كثيراً ما شعرتُ بالحرَقة وبطعم المرارة بسبب وصول حمض المعدة إلى بلعومي نتيجةً لارتفاع نسبة الأدرينالين في عروقي.

في أحد الاجتماعات التي ترأستُها في وزارة الدفاع في الساعة السابعة صباحاً، تابعتُ طائرة "بوينغ 737" تابعة لشركة "لوفتهانزا"، خُطفت وعلى متنها 91 شخصاً بمن فيهم أفراد طاقمها. كانت الرحلة رقم 181 المتجهة من مطار بالما دي مايوركا في إسبانيا إلى مطار فرانكفورت بألمانيا عندما اختطفتها مجموعة من أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين للمطالبة بإطلاق سراح رفاق لهم مسجونين في ألمانيا الغربية.

لسببٍ ما ركّزتُ انتباهي وحرصتُ على متابعة الأنباء الواردة عن الطائرة أولاً بأول، وتولّد لديّ إحساسٌ لا يخطئ بأن أمراً جللاً على وشك الحدوث. ففي الصباح قطعتُ عملي أكثر من مرة للاطلاع على تطورات الأحداث ومستجدّاتها، وأصابني القلق كلما رنّ جرس الهاتف، ثم عرفتُ أن الخاطفين اتجهوا إلى لارنكا ومنها إلى البحرين. وعندها أدركتُ بلا أدنى شك أن علينا الاستعداد لمساعدة إخوتنا البحرينيين في حال احتاجوا للدعم.

اعتقدتُ أن هذا السبب هو ما دفعني لمتابعة الأنباء المتعلقة بالطائرة المخطوفة، ولكن اتضح لي لاحقاً مبعث الإحساس الذي سيطر عليّ؛ فبعد تزوّد الطائرة بالوقود في البحرين، ها هي ستتجه إلى دبي.

"86 مسافراً وطاقم الطائرة الخمسة، 91 روحاً، 91..."، هذا ما كان يدور في رأسي حينها.

أعطيتُ الأوامر لرجالي فور أن وصلتُ الباب بخطوتين كبيرتين: أعْلِموا الرئيس! أعْلِموا الشيخ راشد! وظلت عبارة "91 مسافراً وطاقم الطائرة، 91..." تدور في رأسي، ثم اتجهتُ بسرعة البرق إلى المطار. أمضيتُ ستين دقيقة في إعداد رجالي وتهيئتهم للتصرف مع الموقف، وهو الوقت الذي تستغرقه الرحلة من البحرين إلى دبي. "60، 91..."؛ ظلت هذه الأرقام تتردد في ذهني ولا تغادره حتى وصلتُ إلى برج المراقبة.

حال دخولي برج المراقبة، أمسكتُ سماعة الهاتف للتحدث مع سمو الشيخ زايد ووالدي. فقد احتجتُ إلى المزيد من الوقت. أحتاج إلى وقتٍ كافٍ، أكثر من 60 دقيقة، لتوزيع القنّاصين والسيارات المسلّحة بعيداً عن

مرأى الخاطفين، وتشكيل الفرق الطبية. بعد اطلاعه على تفاصيل الوضع، ردّ سمو الشيخ زايد على اتصالي خلال ثوانٍ، وتخطّينا المجاملات والتحية ثم قال لي: محمد، أخبرني ماذا تحتاج؟ فطلبتُ من القائد الأعلى للقوات المسلحة إعطائي الإذن بالتواصل مع الطائرة، انطلاقاً من فكرة أن الإمارات لا تسمح بهبوط أيّ طائرة مخطوفة على أراضيها. حصلتُ على موافقته وهو متيقّن أنني سأبقى متماسكاً حتى اللحظة الأخيرة بعد أن أعددتُ رجالي للتعامل مع الموقف.

عندما انتهينا من تجهيز كل شيء، خاطبتُ الطائرة من برج المراقبة قائلًا: رحلة لوفتهانزا، نصرّح لك بالهبوط على الأرض، يمكنك الهبوط. استمعتُ إلى صوت الطيار الذي ردّ عليّ، وحاولت تخيّل شكله أثناء مراقبتنا لـ"البوينغ 737"، وهي تُنزل عجلاتها التي احتكّت بالأرض، وهنا عرفنا أننا في موقف عصيب.

عندما هبطت الطائرة، استولى أحد الخاطفين على الميكروفون وملأ البرج بصدى صوته. وخلال ذلك، كنتُ هادئاً جداً لأستطيع سماعه والحكم عليه، وبدت أرواح الركاب أقرب للإنقاذ. استمعتُ إليه وهو يعرّف بنفسه ويقدّم طلباته، ثم وافقتُ على إيصال الطعام والماء للطائرة.

حرصتُ على استمرار الحديث مع الخاطف، ولم أحتجْ إلى فريق التحليل النفسي لتقييم عقلية الرجل الذي أمامي. فقد كان مضطرباً وغير متوازن. واتضح لي فوراً أن حياة الركاب مرهونة بالحالة العقلية لشخصٍ قد ينهار في أيّ لحظة. كان يتحدث بسرعة كبيرة وغير مفهومة حول أعدائه الإمبرياليين الذي يحكمون العالم.

وكان من مطالب الخاطفين إطلاق سراح رفاق لهم أعضاء في جماعة الجيش الأحمر، المعروفة باسم مجموعة "بادر–ماينهوف"، وهي جماعة يسارية مسلحة في ألمانيا الغربية، يقضون عقوبات في السجون الألمانية.

تحدثتُ مع رجلٍ لا يتبع المنطق أبداً لمدة ثماني وأربعين ساعة. دار الحديث عن عائلته وعن موضوعات أخرى كثيرة لا رابط بينها، طلبتُ منه الاستسلام مراراً، لكنه رفض. لم أتجاوب مع كل طلباته، ولكنني كنتُ أهدّئه على الفور عندما يهدد بقتل أيّ من الركاب. قطعتُ الاتصال لفترة وجيزة للتحدث مع المسؤولين في الحكومة الألمانية، وأوصلنا الطعامِ والمستلزمات للطائرة. كان عليّ الاقتراب من الطائرة، فلم أكن قادراً

على مساعدة الركاب أو الطاقم وأنا جالس بعيداً عنهم. فكرتُ بعائلاتهم، وتخيلتُ لو أن فرداً من عائلتي كان مخطوفاً في هذه الطائرة. عرفتُ أن أيّ خطوة خاطئة ستؤدي إلى إزهاق روح، لذا فإن الطريقة المثلى كانت الانتظار والتفاوض، وإقناع الخاطفين بأنهم لن يحصلوا على ما يريدون، وأن عليهم الاستسلام.

كنت متأكداً أنهم سيطلبون المزيد من الوقود عندما يعرفون أن الإمارات لن تحمي الإرهابيين مقابل حياة المسافرين، وبعد الساعات الثماني والأربعين التي تحاورتُ فيها مع هذا الرجل أزعم أنني أصبحتُ أعرفه جيداً، أكثر مما يمكن أن يعرفه أشخاص كثيرون يعيشون معاً منذ فترة طويلة عن بعضهم بعضاً. وافقنا على تزويد الطائرة بالوقود لمنع الخاطفين من تنفيذ وعيدهم بقتل الركاب واحداً تلو الآخر كل عشر دقائق، إلى أن غادرت الطائرة.

عندما وصلت الطائرة إلى عدن، قام أحد الخاطفين بإطلاق النار على كابتن الطائرة ورموا جثته على المدرج كي تُلبّى طلباتهم. كان اسم الطيار يورغن شومان. ومرت أيام عدة وأنا أسمع صوته كلما أغمضتُ عينيّ، فأنا آخر شخص تحدث إليه عندما أقلع بطائرته من دبي. عندما أقلعت الطائرة من مدرجنا وارتفعت، قلت: حماك الله يا كابتن، وسمعتُ صوت الميكروفون في إشارة منه إلى أنه سمعني.

بعد مقتل الطيار، تمت تلبية مطالب الخاطفين وحصلوا على المزيد من الوقود في عدن واتجهوا إلى مقديشو في الصومال. دعوتُ الله أن يساعد المسافرين في هذه الطائرة خلال هذه الساعات العصيبة، وشعرتُ براحة عندما علمتُ أن وحدة كوماندوز ألمانية لمكافحة الإرهاب داهمت الطائرة بنجاح، وحرّرت الركاب بعد القضاء على ثلاثة من الخاطفين واعتقال رابعهم (وهي امرأة). لم يُقتل أيّ من الركاب الذين استأثروا بكل اهتمامي وأصبحوا عالمي لفترة وجيزة، ولم يتعرض طاقم الطائرة للأذى، إلا الكابتن الذي أُزهقت روحه سدى.

كان شهر أكتوبر هذا طويلًا للغاية، كأنه لن ينتهي، وأضيفت إليه روحٌ بريئة أخرى أُزهقت على أرض الإمارات، إلى قائمة ضحايا الإرهاب الذين كان آخرهم الطيار الألماني.

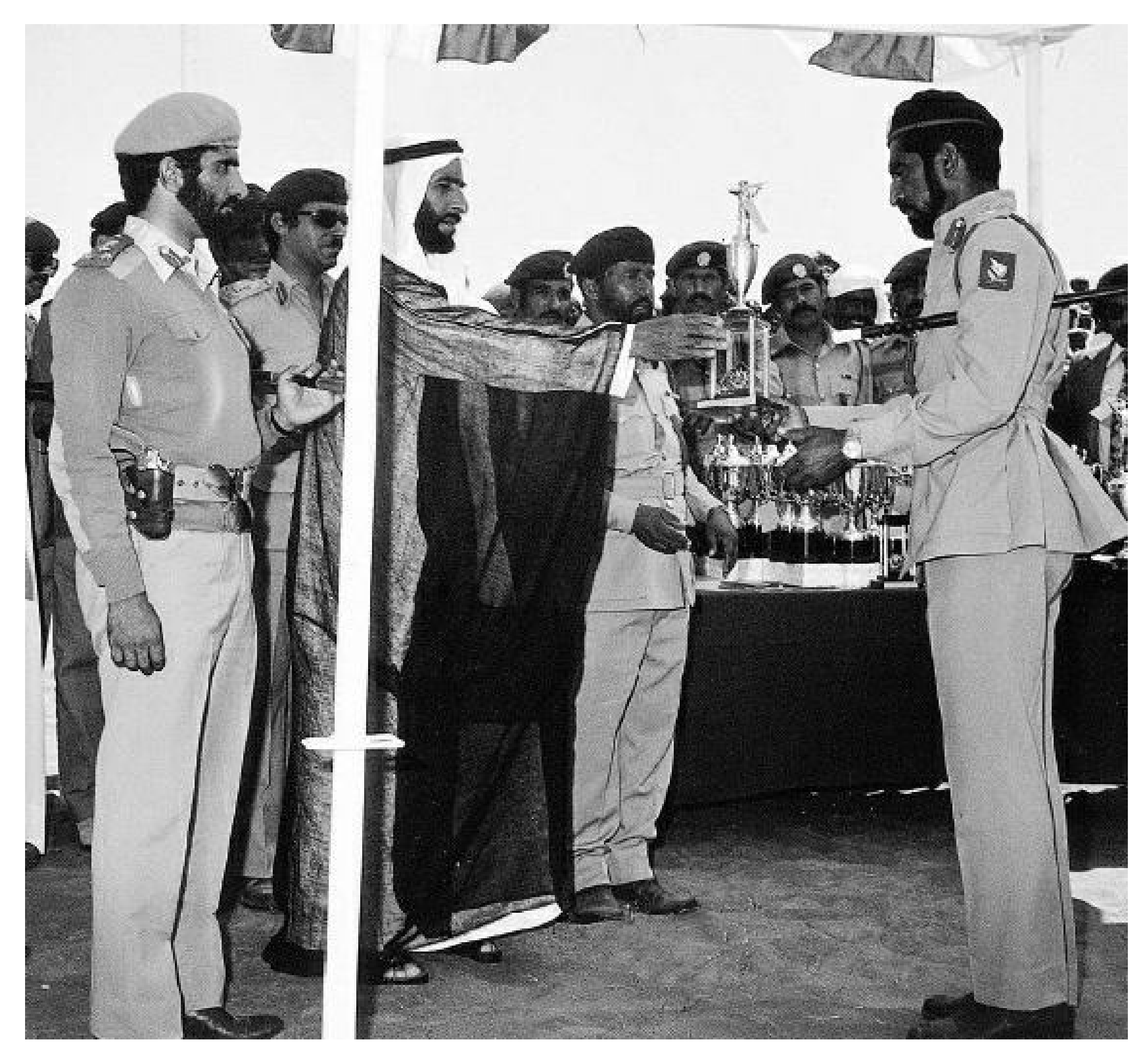
كانت هناك اجتماعات في أبوظبي حضرتُها مع وزير الخارجية السوري عبدالحليم خدام. كان يوماً مليئاً بالمباحثات حول الوضع في المنطقة.

كنتُ قلقاً عندما ركبتُ السيارة عائداً متجهاً إلى دبي، وفكرتُ فيما قيل وأنا أشعر بانخفاض درجات الحرارة في شهر أكتوبر الذي شارف على الانتهاء. أوقفتُ سيارتي على جانب الطريق عندما أتاني اتصال طارئ عبر الراديو اللاسلكي في سيارتي، رفعتُ السماعة وتلقيتُ النبأ الصادم.

كان وزير الخارجية عبدالحليم خدام في طريقه إلى قاعة الشرف بمطار أبوظبي عندما تعرّض لإطلاق نار من قاتل مأجور. الرصاصات الغادرة أخطأته وأصابت سيف بن غُباش، وزير الدولة لشؤون الخارجية بالإمارات الذي كان يرافقه. كان من الصعب عليّ التفكير أنه كان بكامل نشاطه وحيويته قبل دقائق. لقد مات وهو في قمة عطائه، وما زال لديه الكثير ليقدمه. وتساءلتُ في نفسي: كيف لأي إنسان أن يكون بهذه القسوة؛ أن يقْدم على إزهاق روحٍ بهذه البساطة؟!

ولأني أمقتُ القتل والعنف غير المبرر، فقد عاهدتُ نفسي أن أجعل من هذا البلد آمناً مطمئناً لكل من يعيش فيه. وصرتُ أنظر للعنف داخل حدودنا كأنه يمسّني شخصياً.

33
توحيد القوات.. وإنجاز المهمة



مع الشيخ زايد بن سلطان خلال تكريم إحدى دفعات القوات المسلحة

من أعظم المحطات في حياتي، ومن أكثر الأيام فخراً في مسيرتي، ومن أكثر المهام تحدّياً التي توليتها أثناء رحلتي في خدمة وطني؛ توحيد القوات المسلحة في دولة الإمارات.

كانت مهمة حساسة على المستوى الوطني، لكنها أساسية. كانت مهمةً صعبة، لكن أبناء الوطن من الجنود والضباط جعلوها قابلةً للتحقيق. كانت تسري فيهم روح الاتحاد، وكانوا يرون يوماً بعد آخر ثمرات الاتحاد، وكانوا يشاهدون أزماتٍ وحروبٍ تعصف بالمنطقة ويخافون على وطنهم من دون قوة ضاربة موحدة.

كانت الإمارات المحلية تمتلك قوات دفاع خاصة بها. لكن وكما قال أحد الفلاسفة: كل قوة ضعيفة ما لم تكن موحدة. وكان هذا الإيمان موجوداً في عمق كل إماراتي، وفي وجدان جميع الحكام، وراسخاً بعمق في نفوس كافة الضباط والجنود الذين عاهدوا الوطن على الموت من أجله.

كنتُ أقول لزملائي دائماً: الاتحاد كالشجرة، ترابه الوطن، وماؤه التضحيات التي نقدمها، وثمرته الإنسان، وجذع هذه الشجرة هي قوّاته وجيشه. ولا يمكن أن يكون الجذع ضعيفاً أو مفككاً أو متفرقاً. لا بدّ أن يكون جذعاً واحداً، قوياً، صلباً، يستطيع حمل الشجرة وحمايتها من العواصف. كنتُ أقول لهم: نجاحنا أن نكون معاً، تقدُّمنا أن نعمل معاً، البداية هي أن نكون معاً، وسيكون المستقبل صديقنا. كل شيء سيكون سهلاً إذا استطعنا أن نكون معاً. وحدنا يمكن أن نفعل القليل، معاً يمكن أن نفعل الكثير.

كان لدينا خمسة أعوام فقط لتوحيد القوات المسلحة. خلال الدورة الأولى من عمر الحكومة الاتحادية، وضعتُ خطة في الهيكلة والاستراتيجية من أجل تحقيق ذلك. اعتمدها زايد وراشد والحكام، وعملت عليها كافة وحداتنا العسكرية بكل إخلاص.

كانت خطواتنا متدرِّجة، لكنها جادة وواثقة، وتمضي في الاتجاه المرسوم لها. في العام 1974 أصدرتُ قراراً – بصفتي وزيراً للدفاع – بتغيير مسمّى قوة دفاع الاتحاد إلى "القوات المسلحة الاتحادية"، مع تغيير شعار وعلم القوة الجديدة. أبقيت على الواجبات والمهام والتنظيم ومرتبات القوة البشرية نفسها، كما أبقيتُ على نفس مواقع التمركز لقيادة القوة والسرايا ومركز التدريب. كانت خطوةً تعبّر عن الصورة النهائية التي نريدها خلال أقل من عامين. تكونت القوات من سبع سرايا مشاة، وسرية مدرعات العقرب، وسرايا الإسناد، وسرية المظلات، وسرية الأشبال، وسرية الأولاد، وكانت هذه القوات تحت إشرافي المباشر، مع بقاء قوات دفاع الإمارات المحلية كما هي.

كنتُ قد قطعتُ شوطاً كبيراً في تطوير كافة التشكيلات القتالية لدينا بالإضافة لأنظمة الإسناد الناري والإداري في قواتنا مع الالتزام بعقيدة قتالية تنطلق من مبادئ الدفاع عن النفس وحماية سيادة البلاد. كانت المتغيرات حولنا، وبخاصة المواجهات العربية مع إسرائيل، تفرض جوّاً من عدم الاستقرار الدائم في المنطقة، وتدفع دائماً نحو تشكيل قوة عربية جديدة تكون سياجاً للوطن، وسنداً للأشقاء، ورادعاً للأعداء المتربصين.

وفي 6 مايو من العام 1976، كان الحدث التاريخي الذي أحسستُ بعده بأنني وفيتُ بوعدي للشيخ زايد ولوالدي. أحسستُ أن المهمّة أُنجزت، وأن النفوس اطمأنت، وأن القوة الحقيقية لدولتنا قد تشكلت.

”

في 6 مايو من العام 1976، كان الحدث التاريخي الذي أحسستُ بعده بأنني وفيتُ بوعدي للشيخ زايد ولوالدي. أحسستُ أن المهمّة أُنجزت، وأن النفوس اطمأنت، وأن القوة الحقيقية لدولتنا قد تشكلت

“



مع الشيخ زايد بن سلطان

صدر في ذلك اليوم قرارٌ من المجلس الأعلى للاتحاد بتوحيد القوات المسلحة وذلك في منطقة أبو مريخة بأبوظبي، وبرئاسة المغفور له بإذن الله الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، حيث صدر بيان المجلس الأعلى للدفاع، والذي ينص على التالي:

"إنه انطلاقاً من سعينا المستمر لدعم الكيان الاتحادي، وتوحيد أركانه، وتعزيز استقراره وأمنه وتقدمه، وإيماناً بالمسؤولية التاريخية التي تفرض علينا العمل بروح التجرد والإيثار، وإذابة كل

الحواجز التي تعوق تفاعلنا الذاتي، وتحقيق الاندماج الكامل لمؤسسات الدولة، واستجابةً لرغبة أصحاب السمو أعضاء المجلس الأعلى للاتحاد من الانطلاق نحو تحقيق آمال وتطلعات الشعب، تم دمج القوات المسلحة تحت علم واحد وقيادة واحدة، لتكون السياج القوي الذي يحمي الوطن وتؤدي دورها القوي كقوة للعرب".

في ذلك اليوم، أصبح رئيس الدولة الشيخ زايد، طيب الله ثراه، القائد الأعلى للقوات المسلحة، وصاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة، وتمت تسميتي مرة أخرى وزيراً للدفاع. وتم تشكيل رئاسة للأركان العامة للقوات المسلحة تتكون من رئيس الأركان وثلاثة مساعدين.

كما صدر قرار من رئيس المجلس الأعلى للدفاع الشيخ زايد، رحمه الله، الذي نص على توحيد القوات المسلحة البرية والبحرية والجوية تحت قيادة مركزية واحدة تسمى "القيادة العامة للقوات المسلحة". وشمل القرار إنشاء ثلاث مناطق عسكرية هي: المنطقة العسكرية الشمالية "القوة المتحركة برأس الخيمة سابقاً"، والمنطقة العسكرية الغربية "قوة دفاع أبوظبي سابقاً"، والمنطقة العسكرية الوسطى "قوة دفاع دبي سابقاً".

كما تضمن القرار إنشاء لواء اليرموك ويضم كافة قوات جيش الاتحاد والحرس الوطني في إمارة الشارقة وحرس إمارة أم القيوين؛ وكذلك إنشاء قيادة القوات البحرية وقيادة القوات الجوية بالإضافة إلى معاهد التدريب الرئيسية مثل كلية زايد الثاني العسكرية، ومدرسة المشاة، ومدرسة المظليين، ومدرسة الدروع، ومدرسة المدفعية.

وتم توحيد العلم العسكري والشعار والزي العسكري، وأعلام القادة على مختلف مناصبهم.

تم التوحيد، وأنجزتُ المهمة التي بدأتُ العمل عليها منذ العام 1968، قبل الاتحاد بثلاثة أعوام، عندما كنا عائدين من اجتماع عرقوب السديرة الذي ضمّ الشيخ زايد والشيخ راشد، عندما قال لي الشيخ راشد: سنعلن الاتحاد، وستكون مسؤوليتك حماية الاتحاد. لم تهدأ نفسي إلا في العام 1976 عندما توحدت القوات جميعها تحت علم واحد، وشعار واحد، وقائد حكيم

واحد هو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان.

أحسست يومها أنني أديت الأمانة التي وضعت على عاتقي، وبنيتُ قوةً ضاربةً ستحمي بلدي، وساهمتُ في وضع أساسات راسخة لدولة قوية مُهابة ذات سيادة، لن يوقفها أي شيء، ولن يعرقلها أي عدو عن تحقيق أحلامها وطموحاتها في بناء معجزة تنموية تستحقها عن جدارة.

34

1979 بين
الحرب والسلام



مع والدي الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم

تمر الدول باختيارات صعبة، حالها حال الأفراد، اختيارات بين معركة التنمية أو معارك السياسة، اختيارات بين استثمار مواردها في البناء أو

حرق مواردها في المعارك، اختيارات بين السلام أو الحرب.

أتأملُ ذلك وأنا أستذكر العام 1979. كان عاماً رأيتُ فيه الاختيارات التي كانت تحدث في وطني، والاختيارات التي كانت تحدث في دول المنطقة بجانب وطني. وأرى اليوم نتائج تلك الاختيارات. بعد أكثر من أربعين عاماً تستطيع رؤية نتائج تلك الاختيارات بوضوح أكبر.

في دبي، كان العام 1979 عاماً حافلاً. وينظر الكثيرون إليه باعتباره عاماً محورياً في تاريخ دبي، كونه العام الذي شهد انطلاق ثلاثة من أكبر مشاريع الإمارة؛ أول تلك المشاريع ميناء جبل علي، والثاني مصهر الألمنيوم الذي أنشأته وتملّكته شركة دبي للألمنيوم "دوبال" بقدرة سنوية أولية وصلت إلى 135 ألف طن. أما المشروع الضخم الثالث الذي بدأ ذلك العام فكان مركز التجارة الدولي في دبي الذي يُعرف اليوم باسم "مركز دبي التجاري العالمي"، والذي كان أطول مبنى في الشرق الأوسط، وواحداً من أكبر المباني في العالم آنذاك. في ذلك العام، بدأنا نشعر بأننا في طريقنا لتحقيق قفزات كبرى، وبأن معركتنا لبناء وطننا بدأت تؤتي ثمارها، وأن العالم بدأ يعرفنا. كان العام 1979 هو العام الذي بدأنا ندرك فيه بأن أحلامنا التي لا حدود لها يمكن تحقيقها، ولا توجد أي قوة يمكن أن تقف أمامنا. كانت طموحاتنا في قمتها، وتطلعاتنا لا سماء لها.

في هذا العام أيضاً، شهدنا ثورةً في إيران وتغيير نظام الحكم فيها، واعتلاء صدام حسين سدّة الرئاسة في العراق. وشهدنا في العام نفسه نُذرَ مواجهةٍ محتملة بين العراق وإيران، كقوتين في المنطقة سيكون لهما أثرٌ كبير على مستقبلنا.

كان التوتّر في المنطقة يتصاعد؛ أهم وأكبر جارين لنا على وشك مواجهة. لم تستطع القنوات الدبلوماسية مساعدة الدولتين على تلافي الحرب، ولكنني شخصياً ومن موقعي وزيراً للدفاع لم أستطع إلا أن أستعدّ لوقوعها.

ازدادت مسؤولياتي في ذلك الوقت أيضاً، فبالإضافة إلى وزارة الدفاع كنت ممتنّاً لإشراك الشيخ زايد لي في جهوده في الوساطة وإطْلاعي على منهجيته وسياسته من خلال مرافقته أثناء السفر أو تمثيله في اللقاءات الدبلوماسية لمحاولة تلافي الحرب. ولكن في أواخر عام 1979 وبداية عام 1980، لاحظتُ أن العلاقات بين الدولتين اللتين تتمتعان بأكبر

عدد من السكان وتملكان جيشين من أقوى الجيوش في المنطقة، قد بلغت نقطةً لا رجعة عنها. وكان هذا من أكثر الأمور المحزنة في حياتي، لأنني أدركتُ أننا ندخل نفقاً لا نعلم متى قد نخرج منه.

في 4 سبتمبر من العام 1980، اتهم العراق إيران بأنها قصفت مدناً حدودية من بينها خانقين ومندلي. وفي 22 سبتمبر، بدأت الحرب العراقية الإيرانية، واستمرت ثماني سنوات مدمرة. اخترنا البقاء على الحياد. لم تكن سنوات الحرب تلك بالنسبة لنا سنوات ضائعة أو سنوات انتظار، بل أطلقنا أكبر ورشة عمل في بلدنا لتحقيق قفزات تنموية كبرى.

ولعل أحد النتائج الإيجابية لتلك الحرب أنها دفعت دول الخليج للتفكير بشكل جماعي لحماية نفسها، وتحقيق نمو اقتصادي لشعوبها.

كان تأسيس "مجلس التعاون الخليجي" كمنظومة وحدوية إقليمية سياسية واقتصادية، مطروحاً على الطاولة. وكمؤيّد شديد للفدرالية، تحمستُ جداً لهذه الفكرة، وعزمتُ على مساعدة زملائي في مجلس التعاون الخليجي بهدف تفعيل أجندتنا القائمة على الدفاع عن منطقة الخليج من خلال التعاون المشترك.

وفي 25 مايو 1981، أُعلن رسمياً عن تأسيس "مجلس التعاون لدول الخليج العربية". وفي شهر مايو، كنتُ أجلس بكل فخر وراء سمو الشيخ زايد عندما افتتح "قمة التأسيس" في أبوظبي. هذا ما كنتُ أحلم به، وهذه هي النوايا الحسنة التي ستؤثر إيجابياً على المنطقة ككل. تمنيتُ لو أن القادة في جميع البلاد العربية يفكرون بمثل هذه الصيغة من التعاون فيما بينهم لتحقيق السلام وخدمة الشعوب؛ وهو أمر يمكن تحقيقه بالتأكيد، فقد حققته مرتين في حياتي؛ في اتحاد الإمارات، وفي إنشاء مجلس التعاون الخليجي.



حضور الملكة إليزابيث افتتاح شركة دبي للألمنيوم "دوبال" | عام 1979

كنا نستطيع أن نبقى محايدين في الحرب، ولكننا أُجبرنا على حماية المنشآت النفطية في الخليج، حيث كانت مياه الخليج العربي في الثمانينات مسرحاً لما يُعرف بـ"حرب الناقلات" من خلال استهداف العراق وإيران ناقلات النفط والناقلات البحرية والتجارية لكل منهما، بهدف قطع الإمدادات العسكرية والاقتصادية للجيشين. وامتدّ الاستهداف ليشمل السفن التجارية لدول المنطقة، التي ليست طرفاً في الحرب. لم نستطع الوقوف مكتوفي الأيدي إزاء مهاجمة سفن النفط التجارية الخاصة بنا، مما دفعنا إلى نشر قواتنا المسلحة في البحر والجو. وفي أكتوبر من العام 1983 نظمنا أول تمارين مشتركة مع القوات المسلحة العُمانية والسعودية والبحرينية بالإضافة إلى الكويتية والقطرية تحت اسم قوات "درع الجزيرة".

خلال منتصف الثمانينات، تعرّض عدد من ناقلات النفط التابعة لعدد من دول المنطقة في مياه الخليج العربي للقصف، مما أدى إلى مقتل عدد كبير من الموظفين والعاملين فيها، والتأثير على الحياة البحرية في سواحلنا بسبب تسرب النفط إلى المياه. لذا، تحسبّاً للعواقب، سحبنا بعض سفننا إلى مياهنا الإقليمية. لن أنسى الجهود الحثيثة التي بذلها الشيخ زايد خلال الحرب من أجل وضع أسس لمفاوضات تفضي إلى السلام الذي تمنينا أن يتحقق. وفي ذلك الوقت أصبح عالمي كله يدور حول الأمور العسكرية والمخاوف الأمنية، وتمحور عملي حول حماية وطني وذلك بعد أن أصبحت الحرب في المنطقة جزءاً من الصراع بين القوى الكبرى، خاصة بعدما أصبحت الولايات المتحدة طرفاً في حرب الناقلات.

في يوليو 1988، أطلقت السفينة الحربية الأمريكية "يو إس إس فنسنس" صاروخين بالخطأ على طائرة مدنية، تابعة للخطوط الجوية الإيرانية، بينما كانت متجهة إلى دبي، فقُتل جميع ركابها البالغ عددهم 290 شخصاً.

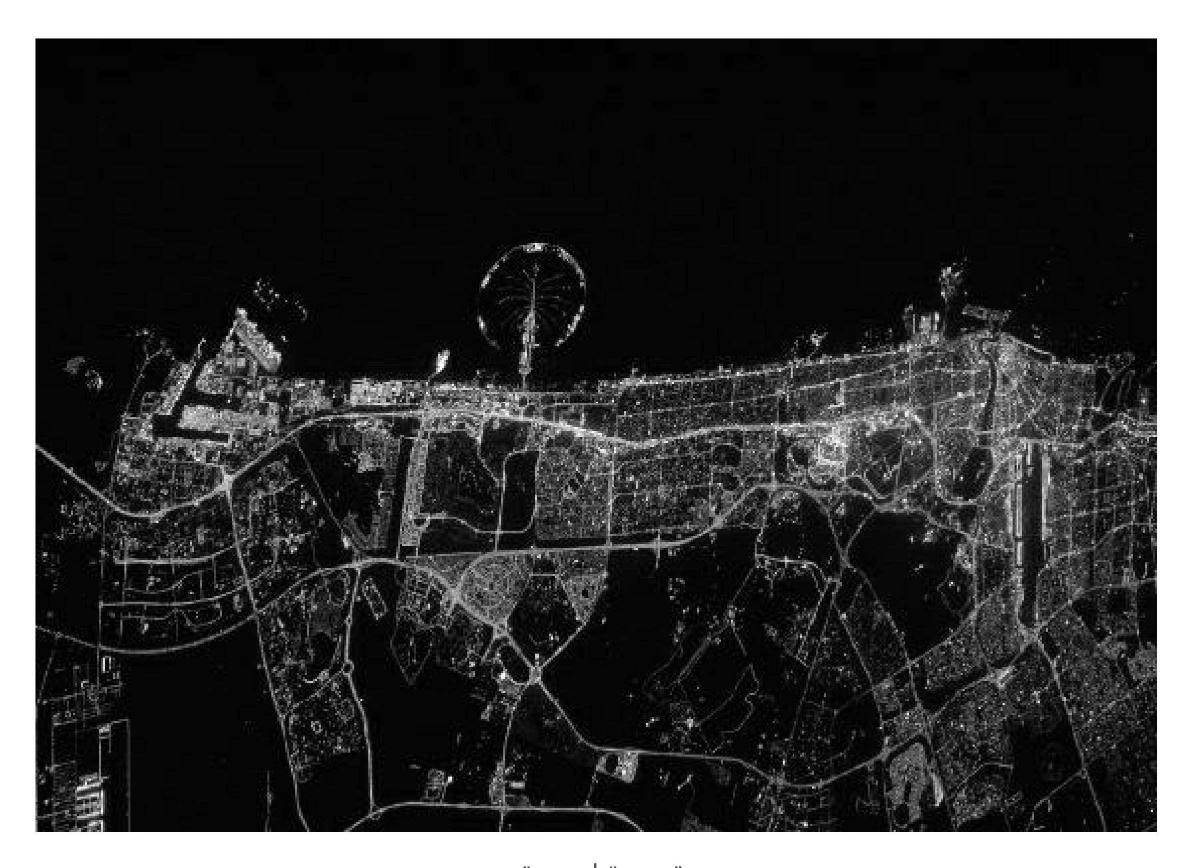
بعد أسبوعين من هذه الحادثة، أعلنت إيران رسمياً قبولها قرار مجلس الأمن الدولي رقم 598 القاضي بالوقف الفوري للحرب العراقية الإيرانية.

وهكذا توقفت الحرب. توقفت الحرب بعد أكثر من مليون قتيل، وأكثر من ترليون دولار من الخسائر. توقفت الحرب التي لم يربح فيها أحد، ولم نعلم حتى اليوم لماذا بدأت.

بالمناسبة "دوبال" اليوم هي خامس أكبر منتج عالمي للألمنيوم بعد دمجها مع شركة الإمارات للألمنيوم "إيمال"، وجبل علي أصبح يضم منطقة حرة فيها أكثر من 7000 شركة، وكررنا تجربته لندير اليوم أكثر من 78 ميناءً حول العالم. أما مركز دبي التجاري العالمي فأصبح اليوم أكبر مركز لاستضافة المعارض في المنطقة، ويجمع أكثر من ثلاثة ملايين رجل أعمال وخبير ومختص سنوياً ضمن 500 فعالية. وأصبح شارع الشيخ زايد الذي بدأ بالبرج هو الشارع الذي يضم أكبر عدد ناطحات سحاب في الشرق الأوسط.

نعم بعد أكثر من أربعين عاماً – وهي ليست كبيرة في عمر الشعوب – يتضح لك نتائج اختياراتك بين الحرب والسلام، بين المخاطرة في ميادين التنمية، والمخاطرة في ميادين السياسة.

35
الوجهة دبـي
“Destination Dubai ”



صورة جوية لمدينة دبي

تتواصل الرؤى عبر الأجيال، وتترابط العقول، وتتناقل الأفكار، ونتوارث من آبائنا صفات، وتشكلنا بيئتنا لنحمل رؤيةً معيَّنةً تجاه الحياة.

جالت في نفسي هذه الأفكار وأنا أستذكر تطور مدينتي دبي، عبر أجيال وعقود وقادة. آمن جدي الشيخ سعيد بن مكتوم بالانفتاح على العالم وبتحرير الاقتصاد وبدعوة التجار ليتخذوا من دبي محطةً لهم، يستوردون إليها ويصدرون منها. ونجح جدي في تحريك المياه الراكدة بعد الكساد

الكبير الذي أصاب دبي بانهيار تجارة اللؤلؤ في ثلاثينات القرن العشرين. ثم جاء والدي الشيخ راشد، أخذ خيطاً من فكر أبيه وانطلق بدبي لآفاق جديدة. عرف أبي من جدي أن حياة دبي الاقتصادية وميزتها الرئيسية وشريان حياتها المستمر هو في انفتاحها على العالم وربطها ما بين الشعوب، وخاصة في التجارة؛ فاقترض واستثمر في توسعة الخور، وأنشأ ميناء راشد وكان الأكبر حينها في بلادنا، ثم أذهل الجميع بإنشاء ميناء جبل علي، فبدا يومها وكأنه ليس جزءاً من واقع دبي، بل جزءاً من مستقبلها. كافح أبي لبناء مطار دبي. منعه البريطانيون في البداية، لكنه أصر حتى استطاع تحقيق حلمه. كان في أعماق نفسه ذلك الخيط الذي أخذه من جدي؛ بأن رخاء دبي في انفتاحها وارتباطها مع مدن أخرى، واستضافتها للتجار، واستقبالها الناس من كل أنحاء المعمورة.

كنتُ في العاشرة من عمري تقريباً عندما أحسستُ ذلك الإحساس؛ أننا في دبي لدينا إمكانية لنكون مدينة كبيرة للتجار والزوار. كان مجرّد إحساس، جاءني بينما كنتُ مذهولاً وأنا أقف لأول مرة في حياتي وسط مطار هيثرو في لندن، حيث ضجيج الحركة والحياة، حيث الطوابير الطويلة من الزوار والتجار الذي يدخلون ويخرجون منها، حيث الطائرات التي تقف بالعشرات لينساب منها سيلٌ من الناس للدخول إلى لندن، أو لتحمل الآلاف الذي ينطلقون لقارات العالم المختلفة حاملين معهم شيئاً من ثقافة لندن وتجارتها. كان ذلك في العام 1959، حيث كان والدي حينها في زيارة إلى العاصمة البريطانية ليحاول إقناع رئيس الوزراء آنذاك هارولد ماكميلان بالسماح لدبي أن تبني مطارها، وكنتُ يومها أحلم بأن يكون لدينا مطار.

”

عندما دخلتُ مكتبه كنتُ أعرف أنه سيسمع
شيئاً غير الذي كان يتوقعه. فردتُ أوراقي،
نظرتُ إليه وابتسمت. أرجع كرسيه للوراء،
وأخرج غليونه، وبدأ يصغي باهتمام

“

مرّت السنوات، وبنت دبي مطارها، واتجهت حياتي نحو العمل السياسي والعسكري مع بداية الاتحاد وانطلاق رحلة بناء الدولة الاتحادية. لكن بقيت في داخلي قناعة ازدادت مع الأيام؛ أن مستقبل دبي أن تكون وجهة، وهي قناعة متوارثة.

لا أنسى حين طلب أبي من شركة الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار (BOAC)، عند تدشين مطار دبي، تسيير رحلة تربط دبي مع مومباي (أو بومباي كما كانت تعرف آنذاك). رفضت الشركة ذلك بحجة عدم وجود طلب على المقاعد في هذا الخط، حسب دراستهم. كان جواب والدي: اربطوا بين دبي ومومباي وأنا أتكفل بأي مقعد شاغر. فوافقت الشركة وشغّلت الرحلة، وكان الخط ناجحاً، ثم توالت الخطوط والرحلات، حتى وصلت إلى خمسة عشر خط طيران تصلنا باثنتين وأربعين وجهةً في الشرق الأوسط وأوروبا.

في نهاية السبعينات، بدأت تلك القناعات تتشكل بطريقة أوضح في ذهني. كنتُ في حديث مسائي مع والدي عندما أخبرته بأننا لا بدَّ أن نطور طيراننا المدني بشكل أكبر، ونستثمر في المطار بشكل مختلف، ونبدأ تسويق دبي بشكل جديد. نظر والدي في عيني. رأى جدّيتي في الموضوع، قال لي: تعالَ بخطة خلال يومين.

عندما دخلتُ مكتبه بعد يومين، كنتُ أعرف أنه سيسمع شيئاً غير الذي كان يتوقعه. فردتُ أوراقي، نظرتُ إليه وابتسمت، فابتسم انتظاراً وترقباً. أرجع كرسيه للوراء، وأخرج غليونه، وبدأ يصغي باهتمام.



مشروع نخلة جميرا دبي

عرضتُ عليه مشروعي الذي أسميته "الوجهة دبي" (Destination Dubai). لم يكن المشروع تطويراً للمطار فحسب بل للمدينة كوجهة. حدثته عن تطوير المطار، وعن إطلاق سياسة الأجواء المفتوحة في دبي لتمكين أي شركة طيران من تسيير رحلة من وإلى مطار دبي، وعن إطلاق حملات لتسويق دبي، وبناء فنادق جديدة في الإمارة، وإقامة فعاليات كسباقات الخيل لجذب الناس. حدّثته عن الدخل الذي يمكن أن يعود على الإمارة من كل ذلك. لم يكن حديثاً طويلاً، لكنه كان مركزاً، ويحمل الكثير من الطموحات، طموحاتي واندفاعي وأفكاري التي تبدو مجنونة أحياناً. أنهيتُ حديثي وانتظرت جوابه.

كانت إجابته ابتسامة كبيرة وكلمة واحدة "الناموس" (وكان يقصد رضاه عن جميع ما تم عرضه). ومن ذلك اليوم، تم تعييني مسؤولاً عن كافة شؤون التجارة والتسويق السياحي وتطوير المطار في دبي.



الأبراج في منطقة دبي مارينا

> تذكرتُ وقوفي مذهولاً وأنا في العاشرة من عمري قبل أكثر من خمسين عاماً في مطار هيثرو، وقلتُ في نفسي: سبحان الله

بدأنا الرحلة ولم نتوقف حتى اليوم. أذكر مع بداية الثمانينات كان المطار يضم محلات تجارية صغيرة تبيع الطعام والتبغ ومستلزمات المسافرين. سمعنا عن مطار شانون الدولي في إيرلندا الذي طوّر أول منطقة سوق حرة في العالم. استدعينا فريقاً منهم لتطوير منطقة حرة في مطارنا. أذكر الخطة التي قدّمها في ذلك الوقت أحد شبابنا محيي الدين بن هندي للسوق الحرة في العام 1983. أحسست بأنهم حذرون في خطتهم. قلت له: ضاعف المساحة. وافتتحت السوق بعد ستة أشهر.

اليوم سوق دبي الحرة بين الأكبر عالمياً. وتمثل مبيعاتها 5% من إجمالي مبيعات الأسواق الحرة العالمية وتخدم نحو 90 مليون مسافر سنوياً.

قبل عدة أعوام، وتحديداً في العام 2014، خرجت الصحف البريطانية بعنوان عريض في صفحاتها الأولى: مطار دبي يتخطى مطار هيثرو كأكبر مطار في العالم في عدد المسافرين الدوليين.

قرأت الخبر. تذكرتُ وقوفي مذهولاً وأنا في العاشرة من عمري قبل أكثر من خمسين عاماً في مطار هيثرو، وقلتُ في نفسي: سبحان الله.. سبحان الله.

36
التعـــاون



إحدى اجتماعات دول مجلس التعاون الخليجي

كنتُ من أكثر المتفائلين بمجلس التعاون الخليجي عندما تم إنشاؤه، لأنني أعرف أن القوة ليست في الفردية بل في نبذ الفردية كما يقولون. التعاون سيجعلنا أقوى وأغنى وأعظم من أي دولة أخرى في المنطقة. كنتُ أعرف إمكانيات دول الخليج مجتمعة؛ إمكانياتنا الهائلة، ثرواتنا الضخمة، مجتمعاتنا المتقاربة، مخاوفنا المشتركة، طموحاتنا العالية،

حكوماتنا المستقرة. لا يوجد لدينا أي عذر.

على هامش أحد اجتماعات مجلس التعاون في بداية الثمانينات، وبينما كان الوزراء يتناقشون في الأزمات والتحديات وغيرها طرحت مقترحاً؛ كنتُ في منتصف الثلاثينات من عمري. كنتُ أصغر مَن في الجلسة سناً، وأكثرهم مللاً من حديث السياسة الذي لا ينتهي. قلتُ لهم: لماذا لا نحاول أن نطوِّر المنطقة، وبصورة خاصة دبي، كوجهة سياحية لجذب الناس من كافة أنحاء العالم؟

شعرتُ أن الأنظار تتَّجه نحوي. سادَ الصمتُ لبضع ثوانٍ قبل أن تخترقه ضحكةُ أحد وزراء الخارجية الأكبر سناً.

قال:ماذا سيجد السيّاح في دبي؟ من سيأتي إلى الصحراء؟ من سيأتي للحرارة والرطوبة التي في دبي؟ ضحك الباقون.

ثم أضاف على حديثه نبرة الخبرة: ثم يا شيخ محمد، ما هو الإرث الثقافي الذي سيتعرّف عليه السياح؟! ما هي المعالم التي سيزورونها؟ الرمال من ورائهم، والبحر أمامهم، والشمس فوق رؤوسهم.

لم أشأ أن أجادله بعدما أغلق ذهنه حتى عن سماع تفاصيل المقترح. ولم يزدني تعليقه إلا تحدياً وقناعةً بمشروعي وخطتي التي تدور في ذهني.

كنتُ أحسُّ بالحزن لأننا لا نستغلُّ ثرواتنا بطريقة أفضل؛ لا نثقُ بأفكار شبابنا، ولا نجرّبُ شيئاً مختلفاً غير الذي نعرفه. وددْتُ لو كان التعاون في مجالات جديدة غير السياسة والأمور العسكرية، على أهميتها القصوى لنا في ذلك الوقت.

أفكر أحياناً، لعلّ منظوماتنا التعاونية سواء الخليجية عبر مجلس التعاون أو العربية عبر الجامعة العربية بحاجة لإعادة نظر في هيكليتها وطريقة عملها. هذه المنظومات يديرها رجال سياسة، وزراء الخارجية بالدرجة الأولى، الوزراء المعنيون بالأزمات السياسية، وبالتالي ستظل تدور في نطاق السياسة على ما فيها من خلافات واختلافات.

دائما كنت أتساءل: ماذا سيكون الحال لو أدار هذه المنظومات رجال التنمية؟ ماذا لو أدارها رجال الإدارة والقيادة؟ ماذا لو أدارها المسؤولون عن الخدمات التي تقدم للشعوب، بحيث كان محور عملها هو تطوير هذه

الخدمات، وتطوير بنية تحتية جديدة لشعوبنا العربية؟ ماذا لو كانت أولوياتها الاستثمار في تحديث أسلوب الحياة للمواطنين في وطننا العربي، وتطوير قنوات الاستثمار، وبناء الشركات والشراكات الاقتصادية، والاستثمار في العلوم والأبحاث والتطوير والصناعات؟ كيف سيكون حالنا اليوم؟ عُمر الجامعة العربية اليوم مثلاً أكثر من سبعين عاماً، ماذا لو كنا بدأنا كل ذلك قبل سبعين عاماً؟ كيف سيكون الحال؟

ربما حان الوقت ليتولى رجال الإدارة والقيادة ورجال الأعمال والمال والصناعة قيادة هذه المنظمات بدلاً من وزراء الخارجية. ربما! لماذا لا نجرب؟

"كنتُ أحسُّ بالحزن لأننا لا نستغلُّ ثرواتنا بطريقة أفضل؛ لا نثقُ بأفكار شبابنا، ولا نجرّبُ شيئاً مختلفاً غير الذي نعرفه"

بعد تعليق صديقي وزير الخارجية بفترة كنت أقود سيارتي في شهر أغسطس الحار في دبي. رأيتُ عائلة أجنبية تمشي على الشاطئ في الظهيرة. عرضتُ عليهم الماء، ثم سألتهم هل تعملون في دبي؟ قالوا: نحن هنا للسياحة. جئنا من ألمانيا نبحث عن الشمس!

تعزّزت لدي تلك القناعة، وترسَّخ إيماني بأننا نمتلك ثروة سياحية اسمها الشمس والصحراء، وأهم ميزاتها الأمان والسلامة المطلقة، وأهم عوامل الجذب فيها الفنادق الجميلة والخدمات الراقية.

أطلقنا الكثير من الحملات السياحية، واجتذبنا الكثير من الزوار. وكنتُ أعرف أن المفتاح الرئيسي لترسيخ قطاع السياحة لدينا هو المطار، واجتذاب المزيد من شركات الطيران لتستخدم مطار دبي. في ذلك الوقت بلغ عدد الخطوط الجوية التي تستخدم المطار 40 شركة، ونجحت سياسة الأجواء المفتوحة التي اتبعناها في اجتذاب المزيد من

الشركات.

"ربما حان الوقت ليتولى رجال الإدارة والقيادة ورجال الأعمال والمال والصناعة قيادة هذه المنظمات بدلاً من وزراء الخارجية"

تطوير قطاع السياحة في دبي مرّ بالكثير من المراحل. كان هذا القطاع جديداً كليّاً علينا. لكنّنا تعلّمنا، واستفدنا من تجارب غيرنا، وأخذنا الكثير من المخاطر لتنميته.

وضعنا استثمارات ضخمة من أجل جذب السياح، من خلال بناء المنشآت السياحية والترفيهية، ومراكز التسوق الضخمة، والمرافق والبنى التحتية المتطورة. كان الكثير من الأصدقاء يتساءلون: لمن تبني كل هذا؟ لا توجد لديك أعداد كبيرة من السياح؟

كان ردي عليهم: سنبني، وسيأتون.

كانوا يقولون لي: المنطق العلمي يقول "الطلب قبل العرض"؛ لا بدَّ من وجود طلب لتزيد المعروض وتستثمر فيه. كنتُ أقول: هذه نظرية قد تكون صحيحة، لكننا نعرف كيف نطور بلادنا.



إحدى اجتماعات دول مجلس التعاون الخليجي

اليوم قطاع السياحة في دبي يستحوذ على ثلث عائدات السياحة الدولية في منطقة الشرق الأوسط حسب تقرير منظمة السياحة الدولية التابعة للأمم المتحدة، حيث بلغت حصة دبي من عائدات السياحة أكثر من 31%، لتصل إلى أكثر من 77 مليار درهم في عام 2017. وبلغ عدد السياح الدوليين في دبي نحو 16 مليون سائح في 2017. وسيصل عددهم حسب خطتنا إلى 20 مليون سائح سنوياً في عام 2020.

أتساءل أحياناً؛ ماذا لو أننا تعاونّا مع أشقائنا في قطاع السياحة منذ الثمانينات؟ هل كنا سننجح بشكل أكبر مما نحن عليه اليوم؟ أم كنا سنبقى في مرحلة دراسة جدوى المشاريع حتى اليوم؟!

مجرد تساؤل أرفعه إلى معالي وزراء الخارجية!

37
شركة طيران في دبي



مع ستيوارت ويلير مدير شركة إيرباص يعرض طائرة لطيران الإمارات | عام 1988

مررتُ بتجارب كثيرة في حياتي. أسّستُ شركات لم تكن لدي أي خبرة مسبقة فيها، وسبرتُ أغوار مجالات لم أطرقها من قبل، واتخذتُ قرارات لم يتخذها أحد قبلي، حسب علمي. لكنني فعلتُ كل ذلك وفق مبادئ ثابتة وراسخة ورثتها عن أجدادي، مبادئ في حكم دبي؛ مبادئ تقوم

على الانفتاح على العالم، والعدالة للجميع، وحكم القانون، والمنافسة الصحية مع الجميع، وفتح المجال للجميع ليعملوا ويبدعوا ويستثمروا؛ من حق أي مستثمر أن ينافس أي مستثمر آخر حتى لو كان الآخر هو الحاكم أو الحكومة. مبادئ ثابتة أثبتت نجاحها عبر أجيال.

أطلقنا في نهاية السبعينات سياسة الأجواء المفتوحة في مطار دبي لنستقطب المزيد من شركات الطيران. كنا واضحين؛ أي شركة في العالم يمكنها حجز أي عدد من حقوق الهبوط في مطار دبي.

كان هدفنا من سياسة "الأجواء المفتوحة" تعزيز تنافسيّتنا، وفتح قطاعات جديدة لاقتصادنا. لكن ذلك لم يكن محل رضا بعض الشركات التي كانت تتمتع بحماية في وطنها.

"شركة طيران الخليج"، وهي الشركة الجوية المدعومة من بعض دول مجلس التعاون الخليجي وتشغِّل عدداً كبيراً من الرحلات الإقليمية إلى دبي ازداد قلقها تدريجيّاً من أنها باتت توفر رحلات تغذي شركات الطيران الدولية المنافسة للمسافات الطويلة.

في عام 1983، نشأ نزاع بين شركة طيران الخليج وباكستان حول حقوق الهبوط مما دفع بالأولى إلى القيام بالضغط على عدد من مزوّدي الرحلات في الخليج للتوقّف عن دعم الخطوط الجوية الدولية الباكستانية.

زادت مشاكل شركة طيران الخليج مع مطار دبي حتى طلبت منّي الشركة بشكل صريح أن أنهي سياسة الأجواء المفتوحة لحماية حصتها من السوق. حدّدت لنا مهلةً زمنيةً من بضعة أسابيع للالتزام بطلبها، بأسلوب تحذيري؛ إذا لم نلتزم فإنها ستنسحب من مطارنا، مما يعني أننا سنخسر حوالي 70% من نشاط المطار. اعتقدت الشركة أنها في موقع تفاوضي قوي يمكّنها من إجبارنا على الالتزام بطلباتها.

بعد عقد سلسة اجتماعات لم تخلُ من التوتّر، أوضحتُ أن سياستنا للأجواء المفتوحة لن تكون موضع نقاش، وأكدتُ مراراً بأن المنافسة أمر أساسي، وهي مسألة جوهرية لأسلوب عملنا. لذا لن نحدَّ من النفاذ إلى مجالنا الجوي.

وصلنا إلى طريق مسدود، وردّت "طيران الخليج" بالحدّ فعلاً من رحلاتها الجوية إلى دبي.

أنا أكره النزاعات، لأنها ليست طريقة ذكية أو حضارية لحل المشاكل. لكن إذا لم يقبل الطرف الآخر التعامل بطريقة حضارية، فإنني أتصرّف بحزم دائماً.

استدعيتُ مدير شركة الخدمات الجوية "دناتا" في دبي موريس فلاناغان في العام 1984 إلى مكتبي لأستشيره في حلمٍ طالما راودني، إنشاء شركة طيرانٍ خاصة بنا في دبي؛ شركة طيرانٍ لا تكون حكومية بل خاصة، خلافاً لواقع الحال في جميع الدول العربية، شركة تعمل وفق أنظمة القطاع الخاص وتكون لديها الاستقلالية التامة والاستدامة المالية. كان موريس خبيراً في الطيران، وقد بدأ مسيرته المهنية في "شركة الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار" بعد أن خدم في سلاح الجوي الملكي. وكان عضواً في الإدارة العليا أيضاً للخطوط الجوية البريطانية "بريتيش إيرويز".

قال لي موريس: بالتأكيد يا صاحب السمو، يمكن إعداد دراسة عاجلة حول ذلك. طلبتُ منه الاستعجال في ذلك، ثم طلبتُ إعداد دراسة مستقلة للتأكد أكثر من جدوى الشركة. جمع موريس فريقاً من عشرة مدراء، وعاد إليّ بخطة واضحة.

وأتت الدراسة المستقلة لصالح هذا المشروع.

قدم الفريق اقتراحات عدة لتسمية خطوطنا الجوية الجديدة، بما في ذلك "طيران دبي" (Dubai Air).

فأجبتهم بلا، نسمّيها "طيران الإمارات"، وأمرتهم بوضع علم دولة الإمارات العربية المتحدة على ذيل الطائرة.

ثم سألت الفريق: كم تحتاجون لإطلاق هذه الخطوط الجوية؟

قالوا: عشرة ملايين دولار.

وكان ردّي: حسناً، لكنني لن أدفع فلساً إضافيّاً.

من اليوم الذي اتخذتُ فيه هذا القرار، كان أمامنا ستة أشهر لإطلاق الخطوط الجوية. استأجرنا طائرتين من الخطوط الجوية الباكستانية، وأعدنا تجهيزهما بالكامل بما يتوافق مع شعار الشركة الجديدة، ومعايير خدمتها الداخلية.

جاءني فريق العمل بينما كنا نستعدّ لإطلاق الشركة الجديدة وقالوا لي: هل يمكننا الحصول على حماية ضد المنافسة؟

كانت إجابتي واضحة: لا، سياسة الأجواء المفتوحة تنطبق عليكم كما تطبق على الجميع.

طلبتُ من الشيخ أحمد بن سعيد آل مكتوم، الذي يصغرني ببضع سنوات وكان قد تخرج حديثاً من الولايات المتحدة الأمريكية، أن يكون رئيس الشركة الجوية الجديدة.

عمل الشيخ أحمد بن سعيد مع الفريق بجدية في عُطل نهاية الأسبوع، وأحياناً ليلاً من أجل تأسيس شركة طيران ذات مصداقية في الوقت المحدد للإطلاق. شاركتُ في عدد من الاجتماعات وأنا أتساءل دائماً عن خططهم وأختبر أفكارهم. وكان لشركة الطيران الجديدة أربعة مسارات أولية؛ هي كراتشي وبومباي (مومباي حالياً) ودلهي والكويت. وكان علينا أن نتحرك بسرعة للاستفادة من الوقت. وبدا واضحاً بالنسبة لي أن دبي ستعتمد على أجوائها كما تعتمد على بحرها.

في 25 أكتوبر 1985، كنتُ برفقة شقيقي الشيخ مكتوم حين سافرنا على متن أول رحلة لطيران الإمارات إلى كراتشي. وكانت حماستنا كبيرة، مع أن الجميع كان مرهقاً بسبب الضغوط لتشغيل رحلات الشركة في الموعد المحدد. كنتُ أعرف أن هذه مجرد بداية رحلة طويلة وصعبة.



مع الشيخ أحمد بن سعيد وموريس فلاناغان في إحدى طائرات طيران الإمارات | عام 1992

اليوم "طيران الإمارات" لديها الكثير من الجوائز العالمية كأفضل ناقل جوي، ولديها تاريخ من الأرباح المتواصلة على مدى 30 عاماً. وبلغت عائدات المجموعة في العام 2018 نحو 28 مليار دولار، وتمتلك أكثر من 260 طائرة، وتنقل نحو 60 مليون مسافر سنوياً، ويعمل فيها أكثر من 100 ألف موظف.

أحياناً تجني بعض الشركات على نفسها بخوفها من المنافسة، فتكون النتيجة خلق منافس يخرجها من المنافسة.

38
1985.. انطلاق حلمين



ميناء جبل علي

هناك مقولة شهيرة لستيف جوبز، مؤسس شركة "أبل"، أكبر شركة في العالم من حيث القيمة السوقية. يقول جوبز: "لا تستطيع ربط الأحداث ببعضها بالنظر للأمام؛ يمكنك ربطها فقط بالنظر للوراء".

استيقظ البريطاني نيفيل ألن، الذي جاء إلى دبي عام 1958 كممثل لشركة "هالكرو للاستشارات الهندسية"، في الساعة الخامسة من

صبيحة أحد الأيام في منتصف السبعينات على رنين الهاتف. جاءه صوت على الطرف الآخر يخبره بأن حاكم دبي يريد أن يراه عند منطقة جبل علي فوراً.

انزعج نيفيل ألن من الطلب المفاجئ، فأسرع إلى حيث التلة الصغيرة ليجد الشيخ راشد بن سعيد في انتظاره. أشار الشيخ راشد بيده ناحية الساحل القريب قائلاً: أريد إنشاء الميناء الجديد هناك.

بطريقته الخاصة، شرح لألن فكرته، ثم طلب معرفة التكلفة التقديرية للمشروع، فأعطاه ألن رقماً تقريبياً، ثم قال له: متى نبدأ العمل يا صاحب السمو؟ فأجابه الشيخ راشد: فوراً!

كنا قد افتتحنا قبلها ميناء راشد والتوسعات الضخمة فيه لم تتوقف، ليكون الميناء الأكبر والأحدث في الشرق الأوسط بـ 35 رصيفاً.

واليوم على بعد 35 كيلومتراً من وسط دبي، يريد حاكم دبي إنشاء ميناء هو الأكبر عالمياً من صنع الإنسان: ميناء جبل علي. كانت التكلفة ضخمة جداً. دفعني بعض التجار للحديث معه لإثنائه عن مشروعه الجديد. لكنه كان واضحاً معي: أبني لكم مشروعاً لن تستطيعوا بناءه لاحقاً.

مرافقة راشد في أعماله ومشروعاته تعطيك بعداً جديداً في التفكير، سعة غير اعتيادية في الرؤية؛ تعطيك إحساساً بأنك يمكن أن تلتفَّ على قوانين المنطق أحياناً لتحقق ما يعجز غيرك عن تحقيقه.

بعد سنوات، توليتُ مسؤوليات التجارة والموانئ والسياحة والطيران في دبي. أصبحت الكرة في ملعبي لمواصلة الالتفاف أحياناً على قوانين المنطق، ربما لإطلاق أحلام جديدة.

كان العام 1985 مختلفاً. بدأتُ فيه حلمين منفصلين؛ الأول إطلاق "طيران الإمارات"، والثاني إطلاق منطقة حرة ملحقة بميناء لأول مرة في المنطقة؛ "المنطقة الحرة في ميناء جبل علي"، وهي منطقة تجارية وصناعية يمكن للأجانب أن يتملكوا فيها بنسبة 100%، مع الحصول على إعفاءات جمركية لبضائعهم المستوردة، والتي سيتم إعادة تصديرها عبر الميناء الضخم الذي شيده الشيخ راشد.

كان المنطق التجاري في ذلك الوقت أن دخل دبي من رسوم الجمارك هو مصدر رئيسي للميزانية، وهو ما رسخه الشيخ سعيد والشيخ راشد

من قبلي. ونحن اليوم ننشئ منطقةً معفيةً من الجمارك، ونسمح للتجار باستيراد ما يريدون عبر دبي دون رسوم جمركية.

أرسلتُ فريقي لعدد من الدول لدراسة الموضوع من كل الجوانب. وكانت النتائج إيجابية. أطلقنا المنطقة الحرة. وفي اليوم الأول، كانت هناك 300 شركة تسجل رغبتها في الانضمام للمنطقة الحرة. كنت فخوراً بفريق العمل الذي يقوده سلطان بن سليم. كانت حماسته تشبه حماسة دبي وكان المشروع أحد أنجح مشاريع دبي.

يمكن أن تلتفَّ على قوانين المنطق أحياناً لتحقق ما يعجز غيرك عن تحقيقه

في حدث منفصل في العام 1991، أمرتُ بدمج إدارة مينائي جبل علي وميناء راشد تحت ما عُرف بـ"سلطة موانئ دبي" لتكوين إدارة أقوى وخبرة أفضل. تشكّلت لدينا عبر السنوات خبرة أكبر. استطعنا التعاقد لإنشاء موانئ خارج حدود الدولة. وتوسّعت شركة "موانئ دبي الدولية" التي تدير موانئنا الخارجية، فدمجناها مع "سلطة موانئ دبي" لتكوين شركة "موانئ دبي العالمية".

كبرت الأحلام، كبرت شركة "طيران الإمارات"، ومعها كبر مطار دبي ليتعامل مع نحو 90 مليون مسافر سنوياً. كبرت "موانئ دبي العالمية" لتستطيع مناولة 90 مليون حاوية سنوياً. لا أدري ما العلاقة بين الرقمين. ربما يمكن تفسير تشابه الرقمين بالنظر إلى الوراء كما يقول ستيف جوبز. ربما إطلاقهما في نفس العام له علاقة؟ ربما وقوفي قبل 45 عاماً مع أبي على تلة مقابل جبل علي ليخطط للميناء له علاقة. أنا وأبي في 45 عاماً مرتين؛ هي 90، لا أدري. ولا أؤمن كثيراً بهذه الأشياء.

في 2010، أطلقتُ حلماً أكبر، اسمه "دبي ورلد سنترال"، يربط بين حلمين قديمين؛ يربط بين خطوطنا الجوية وخطوطنا البحرية، وهو عبارة عن مدينة لوجستية متكاملة ستستضيف عند الانتهاء منها مليون

نسمة. وتحتضن مطار آل مكتوم الدولي الذي سيكون الأكبر دولياً وسيخدم 160 مليون مسافر سنوياً. ترتبط المدينة الجديدة مع منطقة جبل علي التي تضم أكثر من 7000 شركة، وتبلغ حجم تجارتها أكثر من 87 مليار دولار سنوياً. أنشأنا ممراً لوجستياً ضخماً للربط بين الميناء والمطار، بحيث إن أي شحنة بحرية يمكن أن تكون في الجو خلال ساعات فقط.


موانئ دبي
موانئ دبي
موانئ دبي
موانئ دبي
موانئ دبي

"قدر دبي أن تربط العالم، عبر دمج خطوطها الجوية مع البحرية. ربما قدرنا أن نكون مطار العالم وميناءه الرئيسي"

خطوطنا البحرية تربطنا مع حوالي 200 مدينة حول العالم، وجبل علي يربطنا لوحده مع 140 مدينة حول العالم، بالإضافة إلى 78 ميناءً إضافياً نديرها تربطنا مع بقية مدن العالم. ربما قدر دبي أن تربط العالم، عبر دمج خطوطها الجوية مع البحرية. ربما قدرنا أن نكون مطار العالم وميناءه الرئيسي.

عندما أتذكر هذه الأحداث كلها عبر خمسين عاماً يسهل ربطها بعضها ببعض. نعم بالنظر للوراء نستطيع ربط الأحداث كما يقول جوبز، وأنا أقول: بالنظر للأمام تستطيع صناعة هذه الأحداث.

39
بيروت



قوات الردع العربية تدخل بيروت في محاولة لإيقاف الحرب الأهلية

يا ست الدنيا يا بيروت...

مَنْ باعَ أساوركِ المشغولة بالياقوت؟
مَنْ صادرَ خاتمكِ السحريَّ،
وقصَّ ضفائركِ الذهبية؟
مَنْ ذبح الفرحَ النائمَ في عينيْك الخضراوين؟
مَنْ شَطّبَ وجهكِ بالسكين،
وألقى ماءَ النارِ على شفتيكِ الرائعتين
مَنْ سَمَّمَ ماءَ البحرِ، ورشَّ الحقدَ على الشطآنِ الوردية؟

كلماتٌ لنزار قباني تعكسُ الكثير ممّا تحويه قلوبنا للغالية بيروت، وللجميلة لبنان. ذكرياتي الأولى مع بيروت كانت من بدايات حياتي وأنا صغير؛ وأنا القادم من صحراء دبي، من بيوتها الطينية، من شوارعها الترابية، من أسواقها المبنيّة من سعف النخيل. سافرتُ مع إخوتي إلى بيروت. كان لا بدَّ من المرور بها للوصول إلى لندن. أذهلتني صغيراً، وعشقتُها يافعاً، وحزنتُ عليها كبيراً.

كانت شوارعها النظيفة، وحاراتها الجميلة، وأسواقها الحديثة في بداية الستينات مصدر إلهام لي؛ وحلم تردّد في ذهني أن تكون دبي كبيروت يوماً ما.

حيوية شعبها، ولطافة حديثهم، وحسن معشرهم تأسرك.

دفء شوارعها، وجمال شواطئها، وسحر أسواقها تذهلك.

من يزور بيروت لا ينساها، ومن يعاشر أهلها لا يملك إلا العودة إليها.

لكن للأسف، لبنان تم تفتيته وتقسيمه على مقاسات طائفية ومذهبية، فلم تعُد بيروت هي بيروت، وأصبح لبنان غير لبنان، أو كما قال نزار أيضاً:
أين بيروتُ التي تختالُ بالقبَّعة الزرقاء مثل الملكة؟
أين بيروت التي كانت على أوراقنا..
ترقصُ مثل السمكة..
ذبحوها..
ذبحوها..
وهي تستقبل ضوء الفجر مثل الياسمينة..
من هو الرابح من قتل مدينة؟
ضيّعوا بيروتَ، يا سيدتي
ضيّعوا أنفسهم إذ ضيّعوها..
سقطت كالخاتم السحري في الماء.. ولم يلتقطوها..

طاردوها مثل عصفور ربيعيّ إلى أن قتلوها..

لي زيارات كثيرة لبيروت، ومحبة وعلاقات جميلة. لكن كوزير للدفاع في دولة الإمارات لي معها محطتان كبيرتان في حياتي.

الأولى بعد 13 أبريل 1975، عندما انطلقت أول رصاصة لتعلن بدء الحرب الأهلية التي استمرت أكثر من 15 عاماً، وحصدت نحو 150 ألف قتيل، وأكثر من 300 ألف جريح، وتكبّدت خسائر اقتصادية فاقت أكثر من 25 مليار دولار.

لم يمرّ سوى أشهر على بدء الحرب حتى كان إطلاق النار قد انتشر على نطاق واسع في أرجاء بيروت، وبدأت الأهداف المدنية تتعرض للقصف بشكل متكرر. وهكذا انقسمت المدينة إلى معاقل طائفية ومذهبية. وهذه كانت بداية النهاية.

❞
كانت شوارعها النظيفة، وحاراتها الجميلة، وأسواقها الحديثة مصدر إلهام لي؛ وحلم تردّد في ذهني أن تكون دبي كبيروت يوماً ما
❝

لم تنجح كل الجهود الحثيثة التي بذلها الشيخ زايد لجمع الأطراف على طاولة واحدة. كنت أساعده مع والدي في المفاوضات، لكننا بدأنا نشعر باليأس بسبب فشلها المستمر، ثم بدأ تدخلٌ عربيٌّ شامل للحيلولة دون تعرض هذا البلد الجميل إلى الدمار.

في يونيو 1976، شهدت الحرب الأهلية اللبنانية منعطفاً جوهرياً من خلال التدخل السوري. وقد تسببت معاقل الحركة الوطنية اللبنانية بخسائر جمة في صفوف القوات السورية.

راقبتُ بهدوءٍ مؤتمر القمة العربية الذي عُقد في الرياض، ثم المؤتمر الذي تلاه في القاهرة في أكتوبر 1976، لوقف إطلاق النار وإنهاء الاقتتال

في كافة الأراضي اللبنانية. وعلى الرغم من القرارات والتعهدات الصادرة عن القمتين، عرفتُ أن ما طُرح عبارة عن حلول مؤقتة، وأن الأسباب الجذرية للمشكلة ما زالت مستعرة تحت السطح.

كنتيجة لمؤتمري الرياض والقاهرة، تم تشكيل "قوات الردع العربية"، التي شاركت دولة الإمارات فيها، للعمل على وقف النار وحقن الدماء وتحقيق السلام في البلاد.

لقد كانت تلك أياماً ثقيلة الوطء عليّ، فقد فعلتُ كل شيء لإعداد رجالي، وحفظتُ ملامح وجوههم وكل ما يتعلّق بعائلاتهم وآمالهم وأحلامهم. شعرتُ أنني أرسلهم إلى الخطر، وهذا عبءٌ أثقل كاهلي. وكنتُ في الوقت نفسه أشحذ هممهم وطاقاتهم وقواهم. أقول لهم: سنذهب من أجل السلام وليس من أجل الحرب، من أجل إنقاذ شعب صديق وشقيق وليس من أجل خدمة مصالح طوائف أو جماعات.

ومع نهاية عام 1976 أطلقنا 30 ألف رجل بقوة مشتركة، وبهذه الطريقة استطعت أن أرى الصورة من زواياها المختلفة دائماً.

لا أستطيع التعبير عن مدى فظاعة الحرب، ومن خبرتي الشخصية في القتال أعرف أنها ليست الحلّ لأي شيء.

لقد قتُل عشرات الآلاف، وتعرّض مئات الآلاف لإصابات وتشوّهات، وبقوا يذكّروننا بالحزن والخوف والكراهية التي ستتناقلها الأجيال. إنها خسارة كبيرة وفظيعة لوطننا العربي أن تكون إحدى أجمل مدنه ضحيةً لحرب أهلية تستمر لأكثر من 15 عاماً.

محطتي الثانية مع المحبوبة بيروت كانت أفظع للأسف، وكانت في العام 1982.

في العام 1982 اجتاح الجيش الإسرائيلي لبنان الذي أصبحت أراضيه ساحة قتال ما بين منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا وإسرائيل. وعلى الرغم من أن الاجتياح الإسرائيلي الذي بدأ في يونيو بقيادة وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك أرييل شارون كان متوقعاً، إلّا أن فظاعته لم تكن متوقعة أبداً، بخاصة أنه استمرّ طويلاً.

بعد أكثر من شهرين من المقاومة المتفرقة والقتال، تم التوصل إلى قرار وقف إطلاق النار. وانسحبت منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت

متّجهة إلى تونس، تحت إشراف قوة متعددة الجنسيات، وحصلت القيادة الفلسطينية على ضمانات بشأن أمن المدنيين في المخيمات. تواصل إخلاء عناصر منظمة التحرير الفلسطينية عبر الميناء على مدى أسبوعين، وكان الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات آخر المغادرين، حيث رافقته قوات فرنسية إلى الميناء. وبعد أيام، وتحديداً في 9 سبتمبر 1982، غادرت القوة المتعددة الجنسيات بيروت. وأعلن شارون في اليوم التالي أن هناك "2000 إرهابي" ما زالوا موجودين داخل مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في بيروت. في 15 سبتمبر، بعد يوم من مغادرة المقاتلين الفلسطينيين، احتلّ الجيش الإسرائيلي بيروت الغربية محكماً الخناق على مخيمَي صبرا وشاتيلا اللذين يقطنهما مدنيون لبنانيون وفلسطينيون.



في طائرة نقل عسكرية إماراتية لنقل مواد إغاثة للشعب اللبناني | عام 1978

كانت مذبحة صبرا وشاتيلا مأساة فظيعة استمرت أربعين ساعة بين

يومَي 16 و18 سبتمبر 1982؛ إذ قامت ميليشيات الكتائب بغطاء من الجيش الإسرائيلي بعمليات قتل واغتصاب وتعذيب راح ضحيتها عددٌ كبير من المدنيين العزّل غالبيتهم من الأطفال والنساء وكبار السن.

لم أتقبّل في حياتي فكرة القتل وإزهاق الأرواح، ولم أفهم أبداً لماذا يحدث هذا في عالمنا. بقيتُ على تواصل مع جميع الفرقاء في المنطقة، وكنت أعرف أن مجزرةً ستحدث، وعندما ظهرت مشاهد الضحايا، بخاصة من الأطفال والنساء، في نشرات الأخبار، اكتشفتُ أن جهودنا لم تؤدِّ إلى نتيجة.

توليتُ قيادة المبادرة الإماراتية بنفسي لتنفيذ أوامر القائد الأعلى الشيخ زايد؛ إذ تم تزويد طائرات "سي 130" بأطنان من المساعدات الإنسانية، وذلك ضمن واحدة من أكبر العمليات التي نُظمت في الخليج.

وما زالت تلك المشاهد ماثلةً في ذاكرتي، مخلّفةً جرحاً كبيراً في نفسي.

يكون الجرح أكبر دائماً عندما تكون لك ذكرى طيبة مع هذا المكان؛ عندما يقارن عقلك بين المدينة الجميلة بيروت قبل وبعد الحرب؛ عندما يقارن قلبك بين لطافة وحيوية أهل بيروت من قبل، وبين ما يراه من مشاهد قتل فظيعة تحدث في هذه المدينة الجميلة.

"
يكون الجرح أكبر دائماً عندما تكون لك ذكرى طيبة مع هذا المكان؛ عندما يقارن قلبك بين لطافة وحيوية أهل بيروت وبين ما يراه من مشاهد قتل فظيعة تحدث في هذه المدينة الجميلة
"

للأسف ما زال لبنان إلى يومنا هذا ورقةً يحاول الكثيرون اللعب بها، وما

زال شباب لبنان يدفعون ضريبة الصراعات التي تدور في المنطقة، وما زالت الساحة اللبنانية ساحةً لتصفية الكثير من الحسابات والصراعات التي لا تنتهي.

عندما يرجع لبنان بيتاً واحداً كما كان، سيكون بحق بيتاً لكل العرب.

آه.. يا بيروت!
يا صاحبة القلبِ الذهبْ
سامحينا..
إن جَعلناكِ وقوداً وحطَبْ
للخلافاتِ التي تنهشُ من لحمِ العربْ

رحم الله نزار، وأعان الله لبنان.

40
غزو الشقيق



القوات الإماراتية خلال مشاركتها في تحرير دولة الكويت | عام 1991

من أكثر الصدمات التي واجهتها في حياتي العسكرية الاجتياح العراقي لدولة الكويت. والكويت لم تكن بالنسبة لنا في الإمارات وفي دبي دولة أخرى. الكويت كانت في الحقيقة جزءاً من حياتنا. كانت جزءاً من حياة أغلب مواطنينا؛ من طفولتهم، من دراستهم في مدارسها، من علاجهم في عياداتها، حتى من حياتهم الاقتصادية.

لا يعرف الكثيرون أن "سوق مرشد"، أحد أكثر الأسواق الشعبية شهرة، في دبي سُمّي على اسم رجل أعمال كويتي فاضل هو مرشد العصيمي؛ وأن التعليم النظامي دخل دبي عن طريق مدرسين من الكويت؛ وأن مشروع والدي الأكبر في منتصف الخمسينات لتوسعة الخور تم تمويله جزئياً بقرض مالي من الكويت؛ وأن أول محطة تلفزيون بدبي كانت تلفزيون الكويت الذي كان يُبثُّ من دبي في العام 1969؛ وأن مستشفى الكويت الذي تأسس في العام 1966 من أكبر المستشفيات التي خدمت مواطنينا، حتى اليوم. القائمة طويلة، والأفضال كثيرة، والأخوّة بيننا وبين أهل الكويت عميقة وأكبر من أن يفهمها الكثيرون، أو يزايدعليها المتربصون.

شكل غزو الكويت في 2 أغسطس من العام 1990 صدمة. أذكر أنني تأكدتُ ثلاث مرات من الضابط الذي نقل لي الخبر. نقلتُ النبأ لأخي الأكبر الشيخ مكتوم، ثم أمرتُ بإعلان حالة الطوارئ لجميع القوات الأمنية والعسكرية. تحدثت مع الشيخ زايد، فوجدته غاضباً وحزيناً في الوقت نفسه. كيف يمكن لصدام أن يفعل ذلك؟ وما هي خطوته التالية؟

لم نكن نتوقع أبداً أن يتجرأ صدام على غزو دولة شقيقة جارة ذات سيادة وقفت تاريخياً إلى جانبه. كان قرار صدّام باجتياح الكويت صدمة للجميع، كما كان نقطة تحول غيرت المنطقة بأسرها.

تصدّرت منطقتنا عناوين الصحف العالمية. بدأت العديد من الشركات العالمية تضع خططاً للانسحاب من المنطقة. وكما هو الحال في مثل هذه الأحداث، اندلعت موجة من الذعر عندما انتشر الخبر، فبدأ المستثمرون الدوليّون يطالبون بسحب أموالهم من مصارفنا للخروج من منطقة الشرق الأوسط في أسرع وقت ممكن. اتصل بي مسؤولون من المطار يطلبون توجيهاتي بخصوص السيولة النقدية التي كانت تعبر المطار خارج البلاد، ويسألونني ما إذا كان عليهم إيقاف ذلك.

كانت إجابتي: لا أريد أن يتمّ توقيف أيّ شخص في المطار لإخراجه المال من الدولة، فليرحلوا إذا أرادوا، وبلِّغوا مسؤولي الجمارك بذلك.

أجابوا: لكنّ مصارفنا ستنهار.



القوات الإماراتية خلال مشاركتها في تحرير دولة الكويت | عام 1991

> كانت الكويت جزءاً من حياة أغلب مواطنينا.. من طفولتهم، من دراستهم في مدارسها، من علاجهم في عياداتها، حتى من حياتهم الاقتصادية

فقلت: هذه هي التعليمات لكم. لا تمنعوا أحداً من إخراج أمواله.

بعد أسابيع قليلة على ذلك، رأينا الأشخاص أنفسهم يعودون مع أموالهم إلى دبي. لو حاولنا إيقافهم، لضاعفنا مخاوفهم وجعلناهم يعتقدون أنّ

مصارفنا غير قادرة على الإيفاء بمستحقاتهم. كنا قادرين على إثبات أن الأمور لم تتغير في دبي.

استقبلنا في بلادنا عشرات الآلاف من أبناء الكويت الشقيقة. فتحنا لهم الفنادق والبنايات السكنية، والكثير من مواطنينا فتحوا لهم البيوت.

أصبحت مرافئنا مرسىً لسفن الحلفاء مع بدء عمليات "عاصفة الصحراء"، وهي العملية العسكرية التي شنتها قوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة في 16 يناير 1991 لتحرير الكويت من القوات العراقية. أنشأنا المطارات العسكرية وجهزنا المرافئ والمستودعات للجيوش. واستقبل ميناء جبل علي من سفن التحالف أكثر من أيّ ميناء آخر في المنطقة لأنه الأكبر والأكثر تجهيزاً.

> انتهى غزو الكويت بانسحاب مهين للقوات العراقية، لكن ذلك لم يكن النهاية، بل البداية لحقبة جديدة في المنطقة عنوانها انهيار دولها الكبرى

أما قواتنا العسكرية فقد ساهمت بفعالية في دعم قوى التحالف من أجل تحرير الكويت، وسافرت شخصيّاً إلى مركز عمليات عاصفة الصحراء عدة مرات. وكان من أولويّاتي عند التعامل مع الجنرال نورمان شوارزكوف، قائد قوات التحالف الدولي، الذي كان يقود أكثر من 900 ألف جندي من قوّات التحالف، أن أجد طريقة للحدّ من حجم الخسائر لدى المدنيين. فلم يرغب شعب الكويت أو شعب العراق في الاجتياح، بل كان عملاً أرعن، وكنت حريصاً على ألا يدفع الشعب ثمن هذه الحماقة.

أُجبر صدّام على الانسحاب بعد عملية عسكرية ناجحة، وكانت القوات الإماراتية لها شرف أن تكون من أوائل القوات التي دخلت الكويت من أجل التحرير. للكويت أفضال، ولو طالت الحرب لبذلنا لها من أرواحنا

وأبنائنا ما تحتاجه حتى التحرير.



القوات الإماراتية خلال مشاركتها في تحرير دولة الكويت | عام 1991

من أكثر المواقف الرجولية التي أذكرها مع حرب تحرير الكويت إعلان قواتنا المسلحة رغبتها في متطوعين من شباب الوطن. كان اندفاع المواطنين على مراكز التجنيد مذهلاً ومفرحاً ومبشراً بروح وطنية عالية تحتاجها الدول في أوقات الأزمات لتجاوزها، وفي أوقات السلم للبناء.

انتهى غزو الكويت بانسحاب مهين للقوات العراقية، لكن تلك لم تكن النهاية، بل البداية لحقبة جديدة في المنطقة عنوانها انهيار دولها الكبرى، وتفكك جيوشها العظمى. لقد كان غزو الكويت الغلطة التاريخية الكبرى التي غيرت وجه المنطقة للأبد.

41

لا أحد يربح
في الحرب



الشيخ زايد بن سلطان مع صدام حسين | عام 1982

ما زلتُ أذكر عندما رحلت الحرب المنهِكة ما بين العراق وإيران والتي خلّفت وراءها أكثرَ من مليون قتيل. وعندما ترحل حربٌ من مكان فهي لا ترحل سريعة كما جاءت، بل يظلّ ثقلها باقياً لسنوات؛ هكذا رأيت العراق.

في تلك الفترة، كان الرئيس العراقي صدام حسين في قمّة مجده وكبريائه. وما زلتُ أذكر ذلك الموقف الذي حدث بيني وبينه؛ حيث صرّح للشيخ زايد بشعوره وتحفظاته تجاهي: إنه يميل للغرب، ولا يعامل العرب معاملة جيدة.

طلب مني الشيخ زايد بعدها مقابلة صدام، على عادته رحمه الله في عدم ترك أي أمور عالقة يمكن أن تؤثر على مصالحنا.

التقيت مع صدام في أحد الاجتماعات وابتدأ الحديث فيما بيننا بنوع من المجاملة، ثم جاءت الجملة الأهم من صدام: لدي تقرير يفيد بأنك كنتَ تدعم إيران بطرق مختلفة، ووضع تقريراً أمامي.

أجبته: إنني لا أحتاج للتقرير وها أنا ذا معك، إذا كنتَ تقصدُ شحناتٍ من الأسلحة فأتحدّى أي شخص أن يثبتَ ذلك، أما إذا كنتَ تقصدُ تلك الشحنات من المواد الغذائية فنعم؛ ولن تحتاج لتلك التقارير لأن سفننا تذهب إلى هناك وإلى العراق أيضاً، ولا يمكنني أن أوقف شيئاً إنسانياً يتجه نحو الشعوب.

ظهرت علامات المفاجأة على وجهه، لأن كلامي كان جريئاً. كان معتاداً على سماع ما يود سماعه، وربما كان ردّي مفاجئاً له لأنه اعتقد أنني أضعف من تلك الصورة الذهنية التي رسمها عني. بعد تلك المواجهة أصبحنا صديقيْن.

"
التقيت مع صدام وابتدأ الحديث بنوع من المجاملة، ثم جاءت الجملة الأهم من صدام: لدي تقرير يفيد بأنك كنتِ تدعم إيران بطرق مختلفة
"

جاء غزو العراق للكويت، وانهارت جسور التواصل. لكن في عالم

السياسة لا بدّ أن تبقي على شعرة معاوية دائماً لأوقات الأزمات.

بعد تحرير الكويت في فبراير 1991، كان الخليج جريحاً بكفّتيه؛ المنتصر والمهزوم. الكل كان يدفن أوجاعه ويرمِّم ما تهدّم منه.

تعب العراق من الحروب، أما الرئيس العراقي صدام حسين المنسحب المهزوم فلم يكن ينام بكلتا عينيه.

في عام 2003، عاد الأمريكيون إلى الشرق الأوسط. أرادوا بناء نموذج يتماشى مع رؤيتهم وخاصة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، التي غيرت نظرتهم للمنطقة وغيّرت أولوياتهم.

كنتُ أعرف أن غزو العراق كان ضمن أهداف الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن. حاولنا إقناعه بألا يجتاح العراق، طلبتُ منه أن يستثمر جهوده وأمواله في مساعدة الشعب العراقي ببناء المدارس والمستشفيات وتعبيد الطرق، لكنني عرفتُ أنه عزم على قرار استخدام القوة.

طلبتُ من الأمريكيين أن يمنحونا فرصةً للتصرُّف، ثم سألتهم: ما الذي تريدونه من صدام؟ أحسست بأن المنطقة مقبلة على حرب وكنت على استعداد لفعل أي شيء من أجل أن تتجنّب الشعوب الحرب مرة أخرى. قالوا بأنهم يريدون دخول فرق التفتيش للبحث عن أسلحة الدمار الشامل.

كنتُ أدرك أن عواقب الحرب على المنطقة ككل، وعلى العراق بشكل أخص، ستكون مدمرة، حاولت أن أقنعهم بأن يتولى التفاوض قادة منا؛ إنّنا عرب نتشابه في بعض عاداتنا وخصائصنا، ونفهم كيف يفكر صدام وأمثال صدام.

عزمتُ الذهاب إلى صدام بنفسي. ركبتُ الطائرة من دبي للبحرين ومن هناك ركبتُ البحر باتجاه البصرة. تقابلنا في أحد الأمكنة التي كان يلجأ إليها، ثم بدأنا حديثاً صريحاً وواضحاً. تحدثنا في كل الأشياء التي أتفق معه فيها، وتلك التي أختلف معه فيها وهي أكثر. ذكّرتُه بشبح الحرب وأنا أعرف أنني أعظ رجلاً أفنى شطراً كبيراً من حياته في الحروب. كان من الواضح أنّه لا يمكن أن يربح الحرب ضدّ الأمريكيّين، وإن لم يفعل شيئاً لتجنّب الهجوم القادم، فسوف يخسر العراق كلّ شيء. حاولتُ أن أستخدم المنطق والعقلانية في حديثي معه.

همستُ له: لو اقتضى الأمر رحيلك عن الحكم من أجل العراق ارحل، ودبي مدينتك الثانية أهلاً بك فيها دائماً.

نظر إليّ ثم قال: لكنني يا شيخ محمد أتحدّث عن إنقاذ العراق وليس نفسي. كبر في نفسي بعد كلامه ذاك.

"بعد الغزو لم يبقَ العراق كما كان، ولم تبقَ المنطقة كما كانت. كنتُ أحذِّر الأمريكيين من الغزو، وأقول لهم: لا تفتحوا الصندوق المغلق"

امتدّت هذه الجلسة، التي اتسمت بالصراحة والتوتّر، نحو خمس ساعات، غادر أثناءها صدام أربع مرات، كاسراً البروتوكول؛ وفي كل مرة كان يعود، يطلب القهوة العربية، التي ما زلت أذكر طعمها، قبل أن نواصل النقاش. لقد ولّد رعباً لدى كل من حضر معنا الاجتماع، من بينهم عبد حمود، السكرتير الشخصي للرئيس العراقي. وفي كل مرة كان يخرج كنتُ أدعو الله أن نجتاز هذه المحنة. لم يكن صدام يجلس في المكان الواحد فترة طويلة. كان يخاف القصف، وكان يعرف أنه الشخصية المستهدفة التي ينتظرها قنّاصون كثر.

انتهى الاجتماع، ثم صحبني للسيارة حتى فتح لي بابها وودّعني، وهذا أمر لم يكن معتاداً منه حسبما سمعت. سافرتُ إلى عمّان ومن هناك بالطائرة إلى وطني.

في القمة العربية التي عُقدت في شرم الشيخ مطلع مارس 2003 مباشرة قبل غزو العراق، عرض الشيخ زايد على صدام اللجوء إلى أبوظبي في محاولة أخيرة لتجنُّب الطوفان القادم. كان الوقت متأخراً، وكانت الولايات المتحدة قد اتخذت قراراها ببدء الغزو.

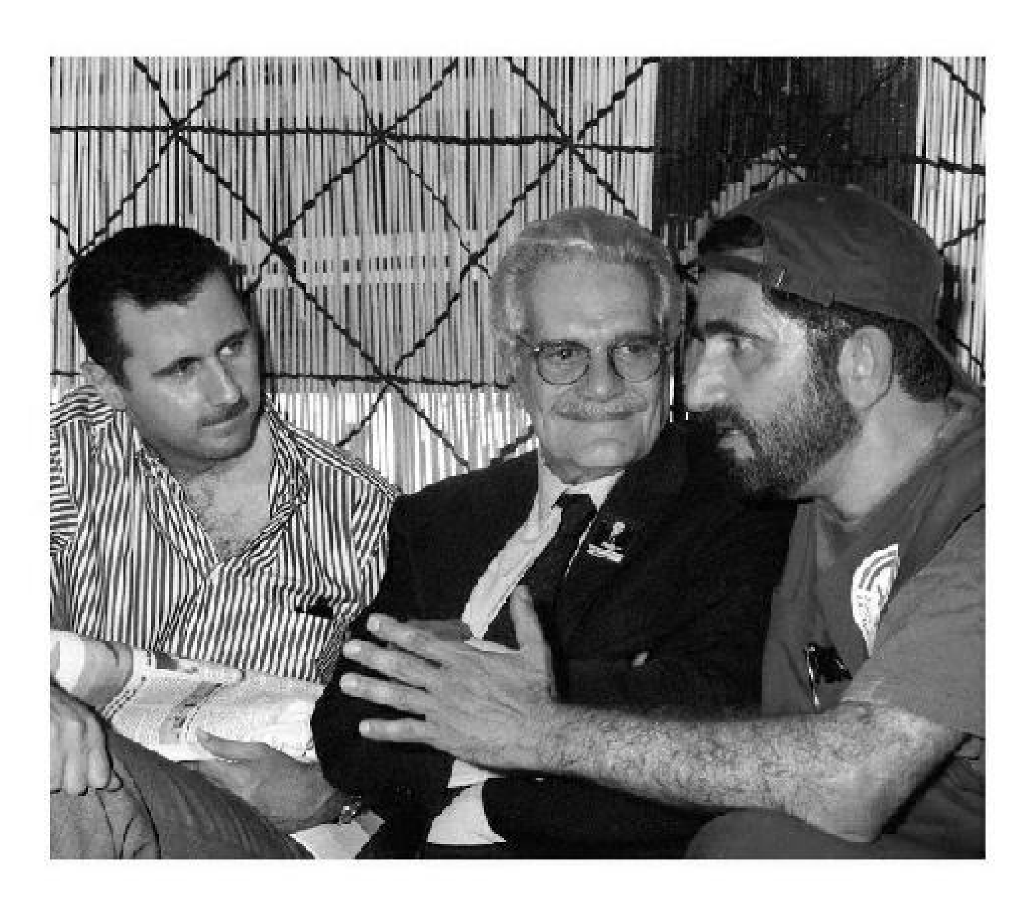
حضرت أمريكا تصحبها بريطانيا بتلك الجيوش الجرارة، ثم نزف العراق مرة أخرى.

أخطأ صدّام في حساباته، فقد ظنّ أنّ زرع الخوف والذعر واستخدام السيف كانت الطريقة الأفضل في إدارة الأمور. ولأنّ جميع من حوله كان يخاف منه، لم يجرؤ أحد قط على مصارحته بقدرات جيشه الحقيقية. فقد كانوا يفضّلون أن يجعلوه يصدق أنه يملك القدرة لمحاربة الأمريكيّين. لا يمكن للمرء أن يحكم بسلاح الخوف لمدّة طويلة، وقد دفع صدّام ثمن تلك القناعة. ولكنّ ما هو أسوء، أنّ شعبه دفع ثمناً باهظاً أيضاً، مراراً وتكراراً. لم نصدّق أنّه يملك أسلحة دمار شامل، كما كان يزعم الحلفاء. حتّى الجنرال كولن باول، الذي كان يشغل منصب وزير الخارجية الأمريكي في ذلك الحين، عبّر في وقت لاحق عن أسفه حيال الدمار الذي ألحقه الأمريكيون لدى اجتياح العراق، مقرّاً بأن المفتشين لم يعثروا على أثر لأسلحة الدمار الشامل المزعومة. واعترف باول أن تبرير الحرب على العراق شكّل نقطةً سوداء في حياته، ووصمة عار في مسيرته السياسية.

بعد الغزو لم يبقَ العراق كما كان، ولم تبقَ المنطقة كما كانت. كنتُ أحذِّر الأمريكيين من الغزو، وأقول لهم: لا تفتحوا الصندوق المغلق، ففيه من المفاجآت الشيء الكثير.

خسر العراق الكثير من أبنائه، والعقود من تنميته. وخسر الأمريكيون أكثر من تريليون دولار وآلاف القتلى، كما خسرت المنطقة عقوداً من التنمية، والسلم المجتمعي، وخرجت من العراق جماعات بثّت الإرهاب في كافة أرجاء العالم. لم يربح أحد من الحرب، تماماً كما يخبرنا التاريخ مراراً وتكراراً، لا أحد يربح في الحرب.

42
بشار.. سوريا



مع بشار الأسد وعمر الشريف في تدمر، سوريا | عام 1999

والماء يبدأ من دمشق.. فحيثما
أسندت رأسك جدول ينساب
والدهر يبدأ من دمشق.. وعندها
تبقى اللغات وتحفظ الأنساب

منذ نشأتي وحتى كبرت، كانت سوريا بالنسبة لي إحدى أهم دول المنطقة؛ سوريا الحضارة، سوريا العروبة، سوريا الطبيعة والجمال

والتاريخ والثقافة.

يُقال إن عمر الحضارة في سوريا أكثر من ثمانية آلاف عام، وأن أربعين حضارةً قامت على أرضها، وأن بداية تحضُّر البشرية كان من سوريا عبر اكتشاف الأبجدية والزراعة. سوريا لها في قلب كل عربي الكثير من المشاعر؛ سواء مشاعر الحبّ لحضارتها ولشعبها، أو مشاعر الحزن على ما حلّ بها من خراب ودمار.

أقول هذا الكلام وأنا أتذكر نهاية التسعينات حينما زار بشار الأسد دبي. وقتها كان والده حافظ الأسد في سدّة الحكم، وربما كان في أيامه الأخيرة، ومسألة تولي بشار السلطة كانت مسألة وقت. رغبت بالحصول على وقت أكثر معه بعيداً عن أعين الرقابة والرجال المحيطين به. كان بصحبته ضمن الوفد المرافق له صديقه مناف طلاس، ابن وزير الدفاع السوري يومها مصطفى طلاس.

طلبتُ من أحد المرافقين الذهاب مع وفد بشار في السيارة، بينما اصطحبته بسيارتي، التي كنت أقودها بنفسي. تبعنا الموكب، وفي مرحلة من مراحل الطريق داخل المدينة أعطيتُ الأوامر للموكب أن ينعطفوا يميناً، وفي ذات الوقت انعطفت يساراً من دون سابق إنذار.

في مرآة السيارة رأيت الموكب وقد نفّذوا ما طلبته منهم، وما هي إلا لحظات حتى رأيت السيارات تتوقف بسرعة. حينها خرج منها رجال أمن بشار، وركضوا بسرعة باتجاهنا، إذ لم يستطيعوا أن يستديروا بسياراتهم نظراً للزحام الذي أغلق عليهم الطريق، وسرعان ما غابت سيارتي عن أعينهم وتوارينا عن الأنظار. كانت لحظةً سينمائيةً كما يقولون.



مع بشار الأسد في دبي | عام 1999

”

الشعب السوري الذي استطاع بناء أربعين
حضارة على أرضه قادر على بناء حضارة جديدة

“

سألني بشار وهو جالس على المقعد المجاور "ما الذي يجري؟"
أخبرته بأنني أحببت أن أريه دبي بعيداً عن الرسميّات، ليرى الجانب الحقيقي للمدينة.

توجهنا إلى أحد المجمعات التجارية الكبرى، والتي عادة ما تستقبل المتسوقين من كافة أنحاء العالم.

نزلنا وبدأنا جولتنا داخل المجمع.

لم يزعجنا أحد، تحدثنا عن مستقبل التكنولوجيا ودورها في التنمية، حيث كان بشار رئيساً للجمعية العلمية السورية للمعلوماتية. كان حماسه شديداً لاستثمار التكنولوجيا في خدمة بلده، وأكد لي أنه سيجري بعض التغييرات في سوريا. لقد أعجبته التجربة، وترسخّت علاقة طيبة لي معه.

بعد بضع سنوات، زار دبي مرة أخرى ولكن هذه المرة بصفته الرئيس بشار الأسد. سألني: كيف تدير حكومة دبي مدينتها؟ كانت لديه رغبة كبيرة في تطوير الإدارة والحكومة في سوريا.

حدثتُه كثيراً عن دبي، وانفتاحها، وتبنيها فكراً حكومياً يقترب من فكر القطاع الخاص، حيث تُدار الحكومة عندنا بعقلية القطاع الخاص، سواء من ناحية الخدمات والتميز فيها، أو لجهة إنفاق الأموال بطريقة فيها الكثير من الكفاءة، أو من خلال تطوير الكوادر وبناء القيادات. أخبرتُه أننا نتمنّى بناء نموذج للعالم العربي، ولكننا نتعلّم ونستفيد أيضاً من كافة التجارب العربية والعالمية الأخرى.

أذكر أنني أخذته إلى كلية دبي للإدارة الحكومية، وهي كلية أسسناها لتدريب كوادرنا وفق أفضل الأنظمة الإدارية في هذا المجال بالتعاون مع معاهد أخرى، ونستقبل فيها أيضاً بين فترة وأخرى مجموعات من المسؤولين في الحكومات العربية لتدريبهم على النظم المتقدمة في الإدارة الحكومية.

أبدى الرئيس بشار إعجابه بكل ذلك. وفي نهاية الزيارة، أبدى إعجابه الشديد بتجربة دبي، مؤكداً لي أنه يعتزم تكرارها في سوريا.

حاول الرئيس بشار الأسد في بداية حكمه تحقيق بعض الانفتاح في الاقتصاد السوري، حيث فتح المجال للبنوك الأجنبية، وسمح لمواطنيه

بفتح حسابات بعملات أجنبية، كما دعا المستثمرين الأجانب للاستثمار في سوريا. وأذكر بأنني أرسلتُ وفداً لاستطلاع فرص الاستثمار العقاري هناك في سوريا، وعادوا لي بأفكار طيبة.

عاش بشار بعد ذلك عالماً آخر، وهو يشاهد بلده يغرق في مسلسل الدماء والدمار الذي اجتاح سوريا، وأتى على الأخضر واليابس، وعصف بتاريخ عمره آلاف السنين.

قرأتُ قبل فترة تقريراً للأمم المتحدة عن خسائر الحرب في سوريا؛ أكثر من 400 ألف قتيل، معظمهم من المدنيين، وخمسة ملايين لاجئ خارج البلاد، وستة ملايين نازح في الداخل، ونحو 400 مليار دولار خسائر في البنية التحتية.

ما زلت أتمنى لسوريا أن تستعيد تاريخها وحضارتها.

ما زال لدي أمل ويقين بأن الشعب السوري الذي استطاع بناء أربعين حضارةً على أرضه قادر على بناء حضارة جديدة.

هذه قناعتي.

43
رحـيل راشـد

سأَلوني لِمَ لَمْ أَرْثِ أَبي؟
ورِثاءُ الأَبِ دَيْنٌ أَيُّ دَيْنْ

أَيُّها اللُّوّامُ ما أَظلمَكم!
أينَ لي العقلُ الذي يسعف أينْ؟



حضور الشيخ زايد بن سلطان جنازة والدي الشيخ راشد بن سعيد | عام 1990

من أصعب اللحظات أن تستذكر لحظات وداع من تُحب؛ وداع من كان سبباً في وجودك، سبباً في حياتك، سبباً في نجاحك، سبباً في وجود وطنك الذي تنعم فيه بالخير.

آخر مناسبة ظهر فيها الشيخ راشد بصورة علنية كان في حفل الاستقبال الذي أقامه على شرف ضيفته رئيسة وزراء الهند آنذاك أنديرا غاندي. كان ذلك في شهر مايو من عام 1981.

بدت عليه بعد ذلك علامات التعب والإرهاق. والشيخ راشد لمن يعرفه كان قوي البنية، حاضر الذهن، لا يغلبه التعب، ولا يستسلم للإرهاق. لا ينام إلا ساعة أو أقل في الظهيرة، ونحو خمس ساعات في الليل.

كانت حياته عملاً ونشاطاً وحركة دائمة؛ يفاوض ويناقش ويتابع. كان رجل سياسة واقتصاد ومال وأعمال، رجل حكمة، ومهندس بناء؛ يستقبل في مجلسه القريب والبعيد، المواطن والوافد، الفقير والغني.

كان كثير الاستماع، قليل الكلام، عظيم التواضع حتى لا يكاد يعرفه الغريب أنه الحاكم. أذكر أنه في العام 1966، جاء المهندسون من شركة النفط إلى مكتبه في الجمارك يريدون مقابلة الحاكم ليبشروه باكتشاف نفطي جديد، وكان له مكتبٌ خشبي صغير تعلوه الكثير من الأوراق والملفّات. جلسوا يحدّثونه عن الاكتشاف الكبير ويشرحون له أهميته. ثم بعد وقت سألوه متى يأتي الشيخ راشد الحاكم ليقابلوه ويخبروه بأنفسهم. قال لهم: أنا راشد. لم يصدقوا في البداية، حتى أكد لهم ذلك، فضحكوا، وضحك معهم.

زاد إرهاق الشيخ راشد في مايو 1981، وبدا التعب واضحاً عليه. اقترحنا عليه الانتقال لاستراحته في منطقة حتا الجبلية لتجديد نشاطه، والابتعاد قليلاً عن الناس. استحسن الفكرة، لكن بعد فترة بسيطة لم يرُق له المقام هناك بعيداً عن ضوضاء دبي وحركتها الدائمة، حركتها التي صنعها بنفسه عبر مشاريعه التي لا تتوقف، فعاد إلى دبي. وفي طريق العودة تدهورت حالته الصحية فجأة، فنقلناه إلى قصره بزعبيل.

”
من أصعب اللحظات أن تستذكر لحظات وداع من تُحب؛ وداع من كان سبباً في وجودك، سبباً في حياتك، سبباً في وجود وطنك
“

انتشر خبر مرض الشيخ راشد بسرعة بين المواطنين، فكثرت الاتصالات المشفقة والمحبّة، وزاد قلق الناس على والد دبي الحديثة ومهندسها، والرجل الذي أسّس مع زايد الدولة التي ينعم فيها الناس بالخير والرخاء بعد التعب والشقاء. وما هي إلا أيام حتى استعاد الشيخ راشد صحته وبدأ بتلقّي المكالمات من أخيه الشيخ زايد والحكام الراغبين في الاطمئنان على صحته.

اقترحنا على الشيخ راشد بعدها الذهاب إلى لندن لإجراء الفحوصات وتلقي العلاج. وفي 20 يونيو 1981 وصل إلى لندن. وبعد ساعات من وصوله، زارته رئيسة الوزراء وقتها "مارغريت ثاتشر" التي اطمأنت على حالته الصحية. وكانت الملكة إليزابيث اتصلت بنا أكثر من مرة قبل ذلك للاطمئنان على صحته أيضاً.



أثناء صلاة الجنازة على روح فقيد الوطن الشيخ راشد بن سعيد | عام 1990

تماثل الشيخ راشد للشفاء بسرعة مما أثار دهشة الأطباء. وكان متحفِّزاً

للعودة إلى دبي، متطلعاً للمزيد من العطاء وللمزيد من العمل.

على الرغم من تحسُّن صحة والدي، إلا أن رحيل والدتي في العام 1983 أثر عليه بشدة. وكان الحزن رفيقه بعدها؛ حزن دائم في عينيه لا يعرفه إلا من كان يعرف طبيعة العلاقة التي كانت تجمعهما عبر أكثر من أربعين عاماً.

كانت وفاة الشيخة لطيفة السبب الأبرز في تراجع صحته بعد ذلك، كأن روحين انفصلتا عن بعضهما. أخذت مع رحيلها شيئاً منه، وأبقت له أشياء كثيرة منها. كانت أخواتي الشيخات يسهرن يومياً عند فراشه حتى الثالثة ظهراً، ثم بعد ذلك كان يستقبل بعض المقربين منه.

في العام 1990، أتمّ الثامنة والسبعين من العمر. ورغم مظاهر الوهن التي بدت عليه، إلا أنه كان حاضر الذهن، قوي الفكر؛ تغلُب على كلامه الحكمة، وعلى نظراته عمق الفكرة. وكان أكثر ما يسعده في أيامه الأخيرة الجلوس في إحدى شرفات قصر زعبيل، ليطل منها على دبي؛ يرى مدينته الناهضة التي بناها بعرقه، وهندسها بفكره، وضحى من أجلها بأيامه ولياليه.

في العاشرة من مساء الأحد السابع من أكتوبر 1990، أسلم راشد الروح لباريها، ورحل عن الدنيا بهدوء وسلام. تصدّعت برحيله الكثير من القلوب، وسالت الكثير من الدموع. لم يصدق الكثيرون أن راشد، الذي كان أباً لهم عبر أكثر من ثلاثة عقود، قد رحل. وأصعب رحيل هو رحيل الوالد.



مع أخويْ الشيخ مكتوم والشيخ حمدان بن راشد في عزاء والدي الشيخ راشد بن سعيد | عام 1990

صباح يوم الإثنين انطلقت جنازة فقيد الوطن الشيخ راشد، طيب الله ثراه. كان أخي الشيخ حمدان يقود المركبة التي حملت الجثمان، فيما كان الوالد الشيخ زايد في المركبة الثانية بين أسطول من السيارات المحمَّلة بقلوب يعتصرها الكثير من الألم.

حين وصلنا المقبرة، حملتُ أنا وأخي الشيخ حمدان جثمانه الطاهر لنسجيه في مثواه الأخير، وسط الآلاف من أبناء دبي وأبناء الإمارات الذين شاركوا في جنازته، وبكوه مستذكرين صفحات عظيمة من كتاب إنجازاته ومآثره.

رأيت الكثيرين ممن بكوا راشد؛ أوروبيين وآسيويين وأفارقة وأمريكيين، ممن جاءوا إلى دبي فانتموا إليها، وأصبحوا جزءاً منها، وانضموا إلى تجربة راشد الإنسانية العظيمة التي صهرت جميع من في دبي دون تمييز بين جنس أو عرق أو لون أو دين تحت مظلة واحدة، فعاشوا فيها مطمئنين على أنفسهم وأموالهم، وبنوا فيها مستقبلهم ومستقبل أبنائهم.

في نيويورك وقفت الجمعية العامة للأمم المتحدة دقيقة صمت حداداً على راشد، وتناقلت وكالات الأنباء خبر وفاته بكثير من الإشادة بتجربته في بناء معجزة تنموية في دبي.

عندما شاهدتُ الدموع في عيون العمّال البسطاء، أدركتُ أنّ تجربة الشيخ راشد لامست قلوب الجميع، وبأن تواجده وجولاته الصباحية لم تكن فقط على المشاريع، بل حتى مع البسطاء، وأن بصمته التي تركها في كل حجر وزاوية في دبي التي أشرف على بنائها بنفسه ستبقى في ذاكرة بلده وشعبه للأبد.

44

أريد دبي في أفريقيا



مع معمر القذافي | عام 2010

كثيرون هم القادة الذين مرّوا بدبي وتمنّوا أن تكون بلدانهم مثل دبي. كثيرون هم المسؤولون الذين أرادوا تبني نموذج دبي للتنمية. تواصل معي الكثيرون، واجتمعتُ مع الكثيرين ممن تمنّوا تكرار تجربة دبي في بلدانهم. لكن أغلبهم كان حديثهم في إطار التمنيات، أو الأمنيات إن صحَّ التعبير.

هناك فرق كبير جداً بين أن تتمنّى شيئاً وبين أن تعمل لتحقيق أمنياتك

وأحلامك. هناك مساحة شاسعة بين التمنّيات وبين الواقع، مساحة تحتاج أن تملأها بالكثير من الإصرار والعزيمة والمتابعة، مساحة تحتاج لخطط ومال ورجال، مساحة تحتاج لعمل مستمر.

أبدأ يومي في دبي في السادسة صباحاً. أعرف جميع مشاريعي. أتابع كل خططي. نبني مع المشاريع رجالاً وقادة لينهضوا بها وليتابعوا مسيرتها ويوصلوها للعالمية. نعطي كل يوم صلاحيات لشباب وفتيات نسعى لتمكينهم من قيادة بلدهم، والمساهمة فيه. لا نتهاون مع الفساد، لا نتهاون في سيادة القانون، لا نتهاون في تنفيذ خططنا التي أطلقناها. هكذا نبني دبي اليوم، وتجربتنا مفتوحة لأي شعب وأي حكومة لاستنساخها بالكامل.

يسألونني أحياناً: ألا تخاف من المنافسة؟ وجوابي دائماً: لو كان عالمنا العربي يضم عشر مدن مثل دبي فنحن بخير. عندما تكون دبي في منطقة ناهضة نامية، سيتضاعف نموها ونهضتها. دبي بحاجة لمدن شقيقة قوية تضع يدها بيد دبي لتحقيق معجزات عالمية جديدة؛ هكذا ننظر للمنافسة. فإذا تحسَّن اقتصاد المنطقة، وارتفع دخل الفرد فيها، وزاد عدد المتعلمين والموهوبين فيها، فستكون دبي أفضل بعشرات المرات.

أذكر هذا الكلام وأنا أستذكر اتصالاً من الزعيم الليبي الراحل معمر القذافي الذي تواصل معي ذات يوم. قال لي إنه يريد بناء دبي جديدة في ليبيا، تكون عاصمةً اقتصاديةً للقارة الأفريقية.

بعد غزو الولايات المتحدة للعراق في العام 2003، بحثاً عن أسلحة الدمار الشامل التي ادّعت أن صدام حسين يملكها، خرج الرئيس الليبي معمر القذافي أمام العالم في بادرة قال فيها إن ليبيا لديها برنامج نووي وتطالب بإزالة جميع المواد ومعدات البرامج التي قد تؤدي إلى تطوير الأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل، فاتحين مستقبلنا للازدهار العلمي والتطور التقني، مادين أيدينا كأصدقاء للزعماء الآخرين.

وكان من ضمن من مدَّ يده لهم هو أنا، طالباً مني العون لبناء دبي جديدة في ليبيا، وذلك تأكيداً لرغبته في الانفتاح على العالم.

قمتُ بإرسال محمد القرقاوي، رئيس مكتبي التنفيذي آنذاك، إلى ليبيا؛ وبعد وصوله بيومين قام رجال القذافي باصطحابه إلى مقر إقامة الرئيس الليبي في باب العزيزية بطرابلس. وبعد انتظار، أدخلوه غرفةً كبيرةً وجد

القذافي فيها جالساً على مكتب يتصفّح الإنترنت بطريقة تنبئ عن قلّة خبرة ونوع من الاستعراض.

ابتدأ القذافي حديثه قائلاً: أنا معجب جداً بما صنعه الشيخ محمد بدبي، وأريد أن أفعل الشيء نفسه بليبيا، وأطلب منكم الاستثمار في ليبيا، وأطلب أيضاً خبرتكم في تحقيق هذا الحلم الجديد للشعب الليبي.

طلب تحويل طرابلس، وبالأخص مطار معيتيقة، إلى عاصمة حضارية لأفريقيا. أعطى انطباعاً بأنه لم يكن عالماً بالتاريخ ولا بالأحداث، وأنه محاط بفريق يخفي عنه الحقائق إما عن خوف أو عن رغبة، وإن كنتُ أرجّح الاحتمال الأول. كان حديثه طويلاً بلا معنى، قال: إنه لم يكن معجباً بأي دولة ولا بأي رئيس. كان يطرح رأيه بتعصُّب لا يمكنك أن تناقشه فيه. لم يكن حديثه حديث زعيم.

> "الشعب الليبي يضم علماء ومواهب ورجال أعمال وبناةً وباحثين وأطباء ومهندسين؛ هم فقط يحتاجون للبيئة المواتية لإطلاق إمكانياتهم"

وصلني تقرير محمد القرقاوي، وعندها قررتُ الذهاب بنفسي. توجهتُ بالطائرة إلى طرابلس؛ مدينة جميلة رابضة في قلب التاريخ. وكعادتي عندما أزور المدن أفضِّل أن أتجول فيها بمفردي أو مع فريق صغير جداً لأكتشفها بشكل أفضل بعيداً عن الحراسات والبروتوكولات التي تخفي عنك الواقع وتجعلك بعيداً عن رؤية المدينة بلا مساحيق.

في اليوم الأول ذهبنا إلى المدينة القديمة. إنها مدينة تشعرك بالحزن. كيف لبلد بهذه الثروة أن يكون هكذا؟ مجاري على الطرقات، نفايات مرمية هنا وهناك؛ حتى دبي في الخمسينات عندما كانت الموارد محدودة والمياه شحيحة والناس بلا كهرباء لم تكن بهذا البؤس أبداً.

بعدها قمتُ بزيارة القذافي في خيمته بمدينة سرت، وكما في المرة السابقة تولى الحديث طيلة الوقت. وفي المساء من ذلك اليوم توجّهنا إلى إحدى ساحات طرابلس المكتظة بالحضور. لكن المفاجأة التي كانت تنتظرنا أن أحدهم أخبر الجماهير بأننا هناك، عندها أحاطوا بالسيارة بشكل هستيري مرحبين بعواطف حارّة جداً، وبدأت السيارة تفقد اتزانها بفعل اندفاعهم. وما هي إلا لحظات حتى بدأتُ أشعر بارتفاع السيارة التي تقلنا عن الأرض. شعرنا بالقلق من هذا الاندفاع حتى لو كان للترحيب أو بفعل العاطفة الجياشة. لم أستطع الحديث معهم بفعل الأصوات العالية، عندها تدخل الحرس وأبعدوا الجماهير بطريقة عنيفة. لم أكن أرغب أبداً أن يتم إبعادهم بتلك الطريقة.

بعد ذلك، أراد القذافي أن يريني منطقة الجبل الأخضر في شمال شرق طرابلس حيث توجد بعض الآثار الإغريقية. ركبنا طائرة مع سيف الإسلام القذافي، ابن القائد، وعبد الله السنوسي الذي كان رئيس الأمن الداخلي واستخبارات الجيش وقريب القذافي أيضاً، ومعروف عن السنوسي أنه كان رجلاً عنيفاً متجهم الوجه.

أقلعت الطائرة، وعندما استوت في الجو التفت السنوسي نحونا وقال بأنها المرة الأولى التي يركب فيها الطائرة منذ سنوات. سألته: ولماذا؟ أجاب: لطالما كنت مستهدفاً، وأخاف أن تُستهدف الطائرة التي أستقلها. خيّم السكون علينا ونحن نفكر بتبعات كلامه، هل أراد أن تكون أول تجربة له معنا؟

تحدّث سيف الإسلام، وبدا أنه مطَّلعاً ومتطلِّعاً أكثر من والده. تحدث قائلاً: لطالما فكرتُ بنوع الاقتصاد الذي انتهجه والدي، فهو لم يكن اشتراكياً ولا شيوعياً ولا حتى رأسمالياً، ثم تابع: لقد تحدثتُ إليه عن أهمية أن تعود الأرض للشعب وأن ننفتح على العالم بشكل أكبر.

انتهت الزيارة وظل الشعب الليبي في قلوبنا. تمنّينا مساعدته، لكن لم تكن الأمور على ما يرام. انسحبنا من المحادثات حول المشروع الجديد بعد فترة بعدما أدركنا أننا ندور في حلقة مفرغة، وأن الأجواء ملبَّدة بغيوم الفساد، وأننا سنكون بروباغاندا في منظومته الدعائية.

لم يكن القذافي يريد التغيير، كان يتمنى التغيير. التغيير لا يحتاج خطابات، بل إنجازات. التغيير لا يمكن أن يحدث مع حجم الفساد الذي رأيناه أثناء محادثات فريقي معهم. التغيير بحاجة لبيئة حقيقية، الشعب

وحده يستطيع التغيير للأفضل فقط، دون أن يأتي محمد بن راشد إلى ليبيا؛ فقط اصنع له البيئة المناسبة وسيبني بلدك. الشعب الليبي يضم علماء ومواهب ورجال أعمال وبناةً وباحثين وأطباء ومهندسين؛ هم فقط يحتاجون للبيئة المواتية لإطلاق إمكانياتهم وإحداث التغيير الإيجابي.

ضربت مثالاً لأحد القادة في إحدى المرات عن دور الحكومات. سألتُه: ما دور شرطي المرور الواقف في منتصف تقاطع مزدحم؟ أجابني: تسهيل حركة السيارات القادمة من كافة الاتجاهات والتأكد من عدم وقوع حوادث.

قلتُ له: ما رأيك إذا منع حركة الناس في جميع الاتجاهات إلا لأصدقائه وأقربائه فقط؟ قال لي: هو فاشل وفاسد، ولا يؤدي دوره.

قلت له: الحكومات هي شرطي المرور، ودورها تسهيل حركة الحياة أمام الناس المندفعين لبناء مستقبلهم وأوطانهم.

وللأسف ابتليت منطقتنا بالكثير من شرطة المرور الفاشلين.

45
رحيل زايد

الناس صنفان موتى في حياتهم
وآخرون ببطن الأرض أحياء



جنازة فقيد الوطن الشيخ زايد بن سلطان

الناس نوعان: زائدٌ على الحياة، وزائدٌ فيها، وزايد بن سلطان من النوع الثاني؛ زاد إلى حياته حياةَ شعب، وأضاف لمسيرته إحياءَ أمّة، ونفع بحكمته وحنكته ملايين البشر، هذا هو الخلود الحقيقي.

علّمنا زايد كيف يمكن أن يبقى الإنسان حياً في القلوب والعقول، علّمنا زايد كيف يمكن أن يبقى الإنسان عالياً في الحياة وفي الممات.

صحبتُ زايد كثيراً، وتعلّمتُ منه الكثير. تعلَّمتُ منه البحثَ عن مساحات الاتفاق لا الاختلاف، البحث عن المستقبل لا عن الماضي، البحث عن أسبابٍ تُوحِّدُنا وتجمعُنا وتقوّينا وترفعُنا؛ هكذا كان زايد في سعيه لجمع شمل الإمارات، ولولا حكمته ربما لم تكن الإمارات هي الإمارات.

زايد هو أول حاكم للإمارات، أول مؤسِّس، أول من سنَّ قوانينها وتشريعاتها، أول من وضع حجر الأساس لبنائها. زايد هو الأول في كل شيء، والأول دائماً له محبَّة مختلفة، ومكانة مختلفة، ومنازل في القلوب أي منازل.

حكم زايد العين منذ العام 1946 عندما كان عمره 28 عاماً فقط. أحبته القبائل، واجتمع حوله الرجال، وبدأ مسيرته من قلب الصحراء. حفر الآبارَ بيده مع البدو، وشقَّ الأفلاجَ معهم بنفسه، ولم تقف ندرة الماء والمال عائقاً أمامه. أنشأ لهم أول مدرسة، وأول سوق، وأول مشفى، وأول شبكة طرق حديثة. هو الأول دائماً. أحبَّه الناس هناك لأنه كان يأكل معهم على الأرض، ويحاورهم ويشاورهم ويعمل بيده معهم. من بساطة العين انطلق زايد في مسيرته من غير تكبُّر أو غطرسة مصطنعة، فنجح في ترسيخ حكمه وحكمته عبر أكثر من نصف قرن وهبها لبلده.

صحبتُ زايد كثيراً. تعلَّمتُ منه البحثَ عن
مساحات الاتفاق لا الاختلاف، البحث عن
المستقبل لا عن الماضي، البحث عن أسباب
تُوحِّدُنا وتجمعُنا وتقوّينا وترفعُنا هي الإمارات

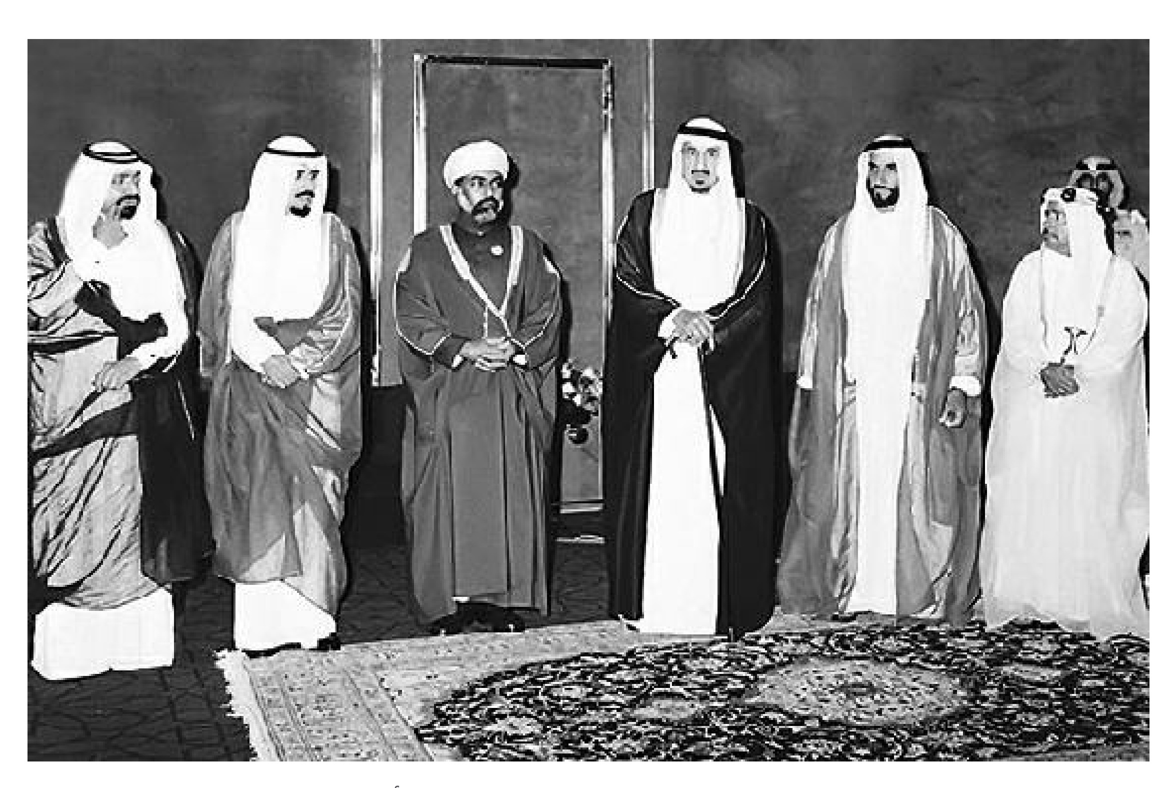
في العام 1953، وقبل أن يحكم أبوظبي بنحو 13 عاماً، سافر الشيخ زايد في جولة شملت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وسويسرا ومصر

والعراق والهند وغيرها؛ فرجع من رحلته بقناعة، وبحلم، وبعزم؛ قناعة أن شعبه يستحق أن يعيش مثل تلك الشعوب، وحُلم بأن يبني دولة تكون مثل تلك الدول، وعَزْم بألا يتوقّف عن حلمه حتى تتوقف أنفاسه.

وبدأ رحمه الله حلمه، واستمرّ دون كلل، حتى توقفت أنفاسه في العام 2004، وما زالت إنجازاته باقيةً تتنفّسُ بيننا ما بقيت هذه الدولة.

صحبتُ زايد في الكثير من اللقاءات والاجتماعات والأزمات أيضاً. إن كان لي أن أصفه بكلمة فهي "الحكمة"، والحكمة كنز عظيم يؤتيه الله من يشاء من عباده؛ "وَمَن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتيَ خيراً كثيراً".

كانت له حكمةٌ في التصرُّف بالأموال التي تحت يديه، أموال النفط. هناك الكثير من الدول النفطية في العالم، لكن القليل منها فقط يملك الحكمة، حكمة زايد. سخَّر زايد الأموال لبناء تنمية مستدامة لشعبه، وصُنْع دولة من لا شيء، وبناء إنسان قادر على إكمال حلم زايد. بل سبق زمانه بحكمته المالية في تأسيس صندوق سيادي ليحتفظ بجزء كبير من تلك الأموال ويستثمرها لأجيال لم تأت بعد. كان يفكر، رحمه الله، بأحفاده وأحفاد أحفاده من أجيال الإمارات، حتى أصبح الصندوق السيادي الذي أسّسه اليوم أحد أكبر صناديق الثروة السيادية في العالم.



قادة دول مجلس التعاون الخليجي المؤسسون في أبو ظبي | عام 1981

زايد كانت لديه حكمة في إدارة الاتحاد. كسب قلوب حكام الإمارات الست منذ البداية، وامتلك قلوب المواطنين، كل المواطنين. وأخمد كافة الخلافات مع الجيران بشكل كامل ونهائي، ثم تفرغ لمشاريع التنمية والعمران والبناء، واندفع فيها بكل قوة. كانت بساطته تأسر الشباب، وكان كرمه يأسر القلوب، وكانت مشاريعه تأسر العقول دهشة. إنها الحكمة التي أعطاها الله لزايد، "وَمَن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتيَ خيراً كثيراً".

”

ما مات مَن بنى أوطاناً، ما مات مَن خلّف قادةً ورجالاً، ما مات مِن فعل معروفاً، وما مات مَن صنع أجيالاً

“

أحبَّت الشعوب العربية الشيخ زايد، رحمه الله، أيضاً بسبب حكمته. سعى زايد بقوة من أجل بناء مجلس التعاون الخليجي مع أخيه الشيخ جابر الصباح، واستضاف في العاصمة أبوظبي أولى اجتماعاته في مايو 1981. تدخل بين سلطنة عمان واليمن الجنوبي في خلافات نشأت بينهما في ثمانينات القرن الماضي واستطاع حلها، ودعا لقمة عربية لإنهاء حرب لبنان في الفترة نفسها، وتوسّط بين مصر وليبيا لحل الخلافات. كان أول من دعا لإعادة مصر لجامعة الدول العربية بعد الخلاف حول اتفاقية السلام التي وقعتها مع إسرائيل. كان أول من دعا للمصالحة بين العراق والكويت بعد الغزو الغاشم للكويت، وحاول تجنيب العراق الغزو الأمريكي عبر عرضه على الرئيس العراقي الخروج واستضافته في أبوظبي. كما ساهم مع الأمم المتحدة في حفظ الأمن في الصومال الجريح من خلال مشاركة قوة إماراتية في القوة الدولية المتعددة الجنسيات في مطلع العام 1993؛ وغيرها الكثير الكثير من القرارات والمواقف التي تبرز سعي زايد للبحث عن مساحات الاتفاق، وإطفاء نيران الخلافات، والجمع بين الإخوة، ونبذ الفرقة؛ مواقف تبرز حكمة هذا الرجل، "وَمَن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتيَ خيراً كثيراً".

لعلّ أكثر ما جعل الناس تحبّ زايد هو حبّه للإنسان، حبّه لخير الإنسان

أينما كان، وشهادتنا في عمل زايد الإنساني شهادة مجروحة، لأنه علّمنا معنى العطاء دون انتظار مقابل. وتعلّمتُ منه بشكل شخصي العطاء في السرّ؛ المعلن من تبرعات وعطايا زايد أقلّ مما أعرفه شخصياً. كان، رحمه الله، صاحب قلب كبير وعمل مخلص.

لعلّ ذلك أحد أسباب محبَّة الناس له، لعلّ الله أحبَّه ووضع محبَّته بين الناس. لذلك لا أستغرب أن تكون ذكرى زايد من الأشياء الثمينة التي كلما ذكرتُها زادت بريقاً، وكلما مرّ عليها الزمن زادت قيمة.

رحل زايد بهدوء في الثاني من نوفمبر من العام 2004. لعل رحيله بهدوء هو الذي يجعل شعب الإمارات ما زال يعيش مع زايد كل يوم، يعيش مع أقواله، يعيش مع تسجيلاته، يعيش مع حكمته ويستذكرها ويتخذها منهاجاً له في مسيرته.

حتى في رحيله، ترك لنا زايد حكمةً عظيمة؛ ما مات مَن بنى أوطاناً، ما مات مَن خلّف قادةً ورجالاً، ما مات مَن فعل معروفاً، وما مات مَن صنع أجيالاً.

هم أحياء عند ربهم يرزقون، وفي قلوب الناس باقون.. باقون.

في جنة الخلد يا زايد الخير.

46
أعظم حصان 1



مع دبي ملينيوم بعد فوزه بإحدى السباقات في دوفيل، فرنسا | عام 1999

سألني أحد الأصدقاء الغربيين مرة سؤالاً، وكنّا على مأدبة عشاء بعد أحد سباقات الخيل في بريطانيا: أنتَ من أكبر ملّاك الخيل في العالم، ماذا يعني لك امتلاك خيل عظيمة؟

فاجأني السؤال، ليس لأني لا أعرف إجابته، ولكن لأن الإجابة لا يمكن اختصارها في كلمات سريعة. فالخيل عند العربي لها علاقة بالشرف

والمكانة والمنزلة ورفعة القدر. وعلاقة العرب بالخيل قديمة يصل عمرها إلى أكثر من تسعة آلاف عام، حين تم استئناس أول خيل في تاريخ البشرية في شبه الجزيرة العربية. اكتشف العرب أنها خير صديق للفارس فسموها فرساً. رأوا فيها ذكاءً ووفاءً وصبراً، فاقتربوا منها واقتربت منهم، وأخذت اسمها منهم "الحصان العربي"، الذي يُعرف بولائه وسرعته وذكائه. والعربي يعامل حصانه مثل عياله، ويتفقّده ليل نهار، ويتحدث إليه، ويسمع منه، فيبادله الحصان مشاعرَ الوفاء والحماية والرعاية وعدم التخلي عنه وقت الحرب.

في تاريخنا العربي القديم اندلعت حرب استمرت أربعين عاماً بسبب خيل؛ "حرب داحس والغبراء" بين قبيلتي بني عبس وذبيان، بسبب اللجوء للغش في سباق الخيل. لستُ أفاخر بتلك الحرب أبداً، فدم البشر أغلى وأشرف، لكن للدلالة على مكانة الخيل في نفس العربي.

حكى لي والدي قصة "كحيلة"، عن شيخ قبيلة امتلك فرساً ليست كالخيول، اسمها كحيلة؛ فرس جمعت بين الجمال والسرعة والقوة.

في السرعة هي كما قال الشاعر:

مِـكَـرٍّ مِـفَـرٍّ مُـقْـبِـلٍ مُـدْبِـرٍ مَـعـاً
كَـجُلْـمُوْدِ صَـخْرٍ حَطَّهُ السَّـيْلُ مِنْ عَلِ

وفي الجمال كما قال آخر:

يكاد لولا اسم الله يصْحبُهُ
تأكلُه عيوننا وتشرَبُهُ

وبسبب علو اسمها، ورفعة نسبها، أصبحت "كحيلة" حديث القبائل، وموضع تنافس الجميع للحصول عليها. إلا أن شيخ القبيلة كان يرفض باستمرار بيعها أو التنازل عنها. حاول شيخ قبيلة آخر بشتى الوسائل الحصول عليها. أغراه بالمال والكنوز، وبالنسب والحسب، وبالتحالف معه لترسيخ قوته. وكان الرفض حليفه الدائم، فدبَّر حيلةً، وعزم على الحصول عليها ولو بالسرقة.

أرسل أحد فرسانه متنكراً ومدّعياً الفقر والحاجة إلى شيخ القبيلة صاحب "كحيلة"، راجياً منه أن يكون ضمن خدمه وعمّاله أو أحد الرعاة

عنده، فوافق الشيخ النبيل. وبدأ ذلك الفارس في عمله في رعاية الجمال التي يمتلكها شيخ القبيلة.

بدأ ذلك الراعي في عمله، وفي جمع المعلومات حول كحيلة، وتقرَّب من بنت صاحب القبيلة ليعرف أكثر عن كحيلة. وبالفعل، علم أن كحيلة تخرج يومياً بعد الظهر لترعى في أحد السهول القريبة لتعود قبل المساء مع مروضها.

ترصَّد ذلك الفارس لكحيلة، وباشر في مراقبة تحركاتها، وبدأ يتابع غدوها ورواحها كل يوم. وكان لجامه في يده دوماً، منتظراً الوقت المناسب للانقضاض عليها وسرقتها.

وفي غفلة من مروِّض كحيلة، انقضّ الفارس عليها، وألجمها بلجامه، وانطلق بها في أقصى سرعة.

انتشر الخبر بسرعة، ونزل النبأ على شيخ القبيلة وابنه كالصاعقة، فانطلقا نحو الإسطبل وركب كل منهما حصاناً، وأسرعا خلفه حتى لحقا به لأنه غريب ولا يعرف دروبَ الصحراء التي يسكنونها. كان ابن شيخ القبيلة يركب حصاناً اسمه "بليق"، لكنه غير معروف وغير ذي نسب. شاهدهما اللص، فاندفع بكحيلة إلى أرض رملية عميقة دون أن يدرك ذلك. ركضت كحيلة ولكن بصعوبة، وكان برق يركض على أرض مستوية صلبة، فاستطاع الاقتراب منها.

بدت علامات الضيق الشديد والحزن على شيخ القبيلة، ثم صرخ بأعلى صوته على اللص: خذها يساراً إلى الأرض المستوية، خذها يساراً إلى الأرض القاسية. وبالفعل أخذها إلى الأرض المستوية، فانطلقت كالريح لا يلحق بها أحد.

التفت الابن غاضباً نحو أبيه سائلاً: لماذا أرشدته للأرض المستوية؟ فأجابه: تُسبى كحيلة ولا يردها بليق.

هكذا كان حبّ العرب لخيولهم. ضحى الشيخ بها حفاظاً على سمعتها واسمها ومكانتها بين القبائل.

كان عندي حصان أحببته كما أحبَّ ذلك الشيخ "كحيلة". كان أعظم حصان امتلكته في حياتي. كان اسمه صغيراً "يزار"، وجرت العادة أن نعطي المهر اسماً وهو صغير حتى نرى قدراته، ثم نغير الاسم بعد أن

يثبت جدارته.

لكن منذ أن وقعت عيني عليه مهراً صغيراً، عرفت أن فيه حصاناً عظيماً.

والخيل العظيمة لها علامات.

العينان فقط تخبرانك الكثير. انظر إلى ما تنظر إليه الخيول! بعضها تجفل وتحرك ذيلها لمجرد رؤية أي شيء غريب يمرّ من أمامها، وهناك خيول تبقى في مكانها وتحدّق في الأشياء الغريبة بشيء من الفضول والتحدي. تخبرك نظرات الحصان ما إذا كان قائداً أو تابعاً.

العيون الواسعة عند الخيل هي كالوجه البشوش الصريح عند البشر، وتعبر بوضوح عن الصدق والإخلاص. ولا يقتصر الأمر على حجم العيون، بل أيضاً بريقها ولمعانها وعمقها وكأنها محيطات لا تنتهي.

والعيون الصغيرة واللئيمة لا تعني بالضرورة بأن الحصان غير موهوب أو يفتقر للقدرة، ولكنها تعني بكل تأكيد أنه غير مستعد أو غير راغب بتسخير تلك الموهبة والقدرات.

أما العيون الضاحكة أو الناطقة فتدلّ على مدى سهولة الاعتناء بالحصان وتربيته. وهناك خيول قادرة على النظر في عيون خصومها والتلاعب بهم وضعضعتهم بعد تقييمهم، بل وتحدي مدربيها إذا لم يفهموا قدرات الحصان الاستثنائية.

ووجه الحصان يخبرك بالكثير أيضاً عنه، فالأذنان المتباعدتان دليل على عظمة هذا الحصان، لأن بنية الجمجمة تعتمد على موضع الأذنين، وما يفصل بين هاتين الأذنين هو جبهة غنية واسعة. وهذه السمة تخبرك بحجم دماغ الحصان. لكن امتلاكها لا يعني بالضرورة السرعة العالية؛ فهي ليست علامة على السرعة، وإنما علامة على أن الحصان قادر على فهم ما يُطلب منه، وبالتالي التفاعل بشكل صحيح في المواقف التي تتطلب سرعة.

”

كان يتمتع بجلد ناعم ولامع تظهر من تحته

مئات الأوردة، وبالذات وريد القلب الذي بدا واضحاً، كبيراً وواسعاً، وكأنه انعكاس للحياة والطاقة التي تنبض في عروقه

"

أما فتحتا الأنف فهما علامة على الحصان الرياضي. عندما تكون الفتحتان كبيرتين وواسعتين، فذلك يعني أن الحصان سيحصل على كمية كبيرة من الأكسجين، والفتحتان الكبيرتان للأنف تعنيان وجود رئتين كبيرتين لتخزين الأكسجين عند التنفس.

والفم الواسع أيضاً من علامات قوة الحصان وسرعته، وهي علامة على أن المكان الذي توجد فيه القصبة الهوائية كبير، وأن القصبة الهوائية نفسها كبيرة.

ويجب أن يتدفق الفك نحو الرقبة من خلال قاعدة واسعة، ولكن تدلي الرقبة وتدفّقها في الجسم يجب أن يكون مثالياً وفي المنحنى الصحيح.

ولعلّ أهم سمة تساعد في الحكم على الخيول هي مشيتها. تملك الخيول نسباً محددة وخاصة ترسم ملامح مشيتها، وعندما ترغبُ بتقييم هذه النسب والحصان يقف أمامك فيجب أن تكون المشية متناسبة معها.

كان هناك حصان واحد، واحد فقط امتلكته في حياتي، وكان مثالياً بكل خصائصه ومقاييسه. كان يملك أذنين جميلتين متباعدتين بأطراف دقيقة كنهاية أقلام الريشة. أما جبهته، فكانت واسعة مستدقّة على عظم رقيق على شكل هرم معكوس.

وبدت العضلات فوق حاجبيه أيضاً على شكل هرم تغطيان عينين جميلتين تفيضان باللون الأزرق. وأما الأنف، فكان مميزاً بفتحتين كبيرتين لتمرير أكبر كمية من الهواء.

وكانت رقبته الطويلة تسمو بشموخ وعنفوان. وتميزت المنطقة السفلى لجسمه بحجمها الضخم الذي كان أكبر بضعفي الحجم المتعارف عليه لأي حصان آخر.

كان يتمتع بجلد ناعم ولامع تظهر من تحته مئات الأوردة، وبالذات وريد القلب الذي بدا واضحاً، كبيراً وواسعاً، وكأنه انعكاس للحياة والطاقة التي تنبض في عروقه، ليخبرنا عن قلبه الكبير.

أما منطقة الصدر، فكانت واسعة، والظهر مدعوم ببنية عظمية صلبة تحتضنها مجموعة من العضلات.

وأجمل ما في ذيله أنه لم يكن مرتفعاً، ولم يكن منخفضاً، بل كان في موقع مثالي وكأنه التكملة المثالية لعموده الفقري. وكان من المستحيل تجاهل عرض فخذه أو وقفته أو مشيته.

كان يتمتع بعينين واسعتين تفيضان بالعظمة والشموخ من دون أن يتسلل إليهما أي لمحة من الخوف. كانت عيناه قويتين وقاسيتين، ولكنهما لطيفتان وناعمتان في الوقت نفسه. كان ضخماً ومغواراً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، يرهب من يركبه دون خبرة. كان كالكرة الملتهبة تفيض بالحيوية والطاقة بشكل دائم.

كنتُ أزوره في إسطبلاتي في منطقة القوز بدبي، وأجلس هناك وأنظر إلى هذا المخلوق بإعجاب. كان يضع رأسه تحت ذراعي ويخرج لسانه لأسحبه، ولأعطيه بعضاً من الجزر الذي أخبئه معي دائماً، وكان يستمتع كثيراً إذا مسحت على رقبته.

كنتُ أجلس بالقرب منه، يحدِّقُ كلٌّ منا في وجه الآخر. كنتُ أجلس على صندوق الأعلاف الذي كان ارتفاعه يصل إلى مستوى صدره. عندما كان يسير نحوي نكون بالارتفاع نفسه. كان يرفع قائمته الخلفية ويريحها ثم يريح رأسه أمامي، وكأنه عصفور يسترخي ويرتاح بوجودك، إنها أقصى درجات الثقة عند الحيوان.

يا لها من متعة تلك التي كنتُ أشعر بها عندما يشاركني حصان عظيم وعملاق لحظات كهذه وبهذا الشكل.

كنتُ أكتفي بالجلوس هناك، والنظر إليه بإعجاب وحب لساعات.

نعم، هو الحصان الأعظم الذي امتلكته:

"دبي ملينيوم"..

يتبع...

47
أعظم حصان 2



دبي ملينيوم

مِـــنْ عَـلـَّـمْ الخيلْ أنْ بإسـمي تـنـاديـني
وأنِّــــي إذا جـيـتْ مِ الــبـِـعـدْ إتِّـلـَقَّـاني

تــفـرَحْ بـقـربـي وتـمـازحـني وتـحَـيِّيني
وَإنْ غــبـتْ عـنـهـا عــلـىَ نــارْ إتِّـرَيَّـاني

تَـــدْركْ وجــودي وتَـعْـرفـني وتَـغـلـيني
وتـبِـشْ لــي وبَــسْ قـاصـرْها إتّـِحـفَّاني

وتـحـسْ بــي وبـشعورْ تـشَـمَّمْ إيـديني
يـاكنَّها فـي الـمشاعرْ نـفسْ الأنسـاني

إنْ جـيـتـها بــعـدْ غـيـبِـهْ لـــي تـحَـيِّيني
ويــضـجْ الإسـطـبـلْ بـالـتَّرحيبْ حـيَّـاني

يـاكـنَّـها تــقـولْ لــي يــا مـنـوَةْ الـعـيني
طـوَّلـتْ غـيـبتكْ والـلِّـي يـحـبْ ولـهاني

ولـلـخـيلْ أنــســابْ وأوطـــانْ وبـلاديـني
وفـي الـخيلْ أسـرارْ محفوظهْ بكتماني

بدا لي بأنه أفضل من الحقيقة منذ صغره. كانت مشيته مختلفةً، تمنحه فرادةً وتميزاً عن سواه. كان يركض قافزاً بوثباتٍ طويلةٍ وبأسلوبٍ مثير للإعجاب، حتى قبل أن يكتمل نضجه ونموه. كان يقوم بحركات التفافية تثير إعجابَ كل من ينظر إليه. كانت مشيته تكفيني لأعرف أنه هو دون أن أراه. كانت له هيبة، بوقفته الشامخة ولونه البني الداكن. أسميناه "يازار" صغيراً، ثم "دبي ملينيوم" كبيراً، أسطورة السباقات الذي ملك قلبي.

أرسلته إلى نيوماركت ببريطانيا عندما كان عمره حولين لأختبره في السباقات على الأراضي المعشبة. أمضى الربيع هناك، ومع بداية أكتوبر، بدأ يشارك بالسباقات. كان مبهراً منذ البداية. شارك في سباقات تجريبية في "دونكاستر" وفي "جوودوود" وفاز بها جميعاً وهي سباقات تحضيرية للديربي الإنجليزي، ثم شارك في سباق الملكة إليزابيث الثانية "ستيكس" في أسكوت وفاز بها، كما فاز في سباقات في فرنسا وأمريكا بسهولة على الكثير من خيول السباق المعروفة.

كان "دبي ملينيوم" حصاناً يحبّ الفوز، ولكن على طريقته. كان يسابق بالطريقة التي يراها هو مناسبة دون الاستماع كثيراً لمن يمتطيه. كان مختلفاً، ينطلق منذ البداية بأقصى سرعة، ويستمر متفوقاً حتى النهاية. لم يكن يحبُّ الفوز بفارق بسيط أبداً. كان يحبُّ التباهي. كان يكسر

عزيمة منافسيه بقوة منذ البداية، بل كان يلغي وجودهم ويحطّ من قيمتهم بشدّة لدرجة تقعدهم عن الجري كالسابق مرة أخرى. لم يكن ينافس بطريقة الندّ للندّ، إنما كان يعشق الانفراد دائماً، كأنه يطلب من الأحصنة الأخرى اللحاق به، وكان ذلك يحطِّم قلوبها!

لكن الحصان العظيم لا تليق به إلا سباقات عظيمة. وبعد جولاته وصولاته على المضامير في أوروبا وأمريكا، قرّرتُ أن أشركه في أعظم سباق عالمي؛ "كأس دبي العالمي للخيول لعام 2000" لأنه يستحق أن يكون بطلاً لكافة المضامير، مضامير العشب ومضامير الوحل؛ هو بطل استثنائي، ويستحقُّ أن يكون بطل العالم.

كأس دبي العالمي للخيول هو الحدث العالمي المرتقب دائماً، يترقبه عشاق الخيل من كافة أنحاء العالم. وضعتُ رهاناتي كلها على "دبي ملينيوم"، وأشرفتُ بنفسي على نقله لدبي، وتابعتُ كافة الاستعدادات اللوجستية لأعظم حدث عالمي في سباقات الخيل. وبدأ التوتر يزداد مع اقتراب الحدث، حتى جاءت الليلة التي تسبق اليوم الموعود.

> أسميناه 'يازار' صغيراً، ثم 'دبي ملينيوم' كبيراً، أسطورة السباقات الذي ملك قلبي

استقبلتُ خيّالنا فرانكي ديتوري. تناقشنا، وأعطيتُه بعض التعليمات الهامة في التعامل مع الحصان. وبعد أن غادر فرانكي المجلس، بدأتُ أتمشّى. كان الجميع قد خلدوا للنوم؛ غبطتهم على ذلك، لم يكن باستطاعتي أن أجد الطمأنينة والسلام في داخلي لأغمض عينيّ. خرجتُ لأستنشق بعض الهواء النقيّ، وقدتُ سيارتي وحدي متَّجهاً إلى مكاني المفضّل؛ الإسطبل الذي يقيم فيه "دبي ملينيوم" في القوز.

بدت الخيول الأخرى منشغلةً بتهيئة مضاجعها للنوم، أو تناوُل ما تبقى من طعامها. فور توقُّف سيارتي أمام الإسطبل، ظهر رأس من فوق باب الإسطبل، وسمعتُ صهيلاً ناعماً كأنه يرحّبُ بقدومي وأنا أقف، ومن

حولي هواء دبي الليلي العليل.

تحركتُ باتجاه الباب في الظلمة من دون أن أتوقف لإضاءة الإسطبل؛ فقد كان صهيل "دبي ملينيوم" وهو يناديني يقودني في الاتجاه الصحيح، وبدا أنه يحبّ زياراتي الليلية تلك. هرول الحراس الليليون مسرعين باتجاه الإسطبل عندما سمعوا صوت قائمتيه المضطربتين، واللتين توقفتا عن إصدار الضجيج حال رؤيته لخَيالي وهو يتجه رويداً رويداً نحوه. كنت زائراً معهوداً، خاصة في ذلك الوقت من الليل.

أمسكتُ بمزلاج الباب وزلقتُه جانباً، وهممتُ بالدخول فتراجع "دبي ملينيوم" إلى الخلف ببطء ليفسح لي المجال للدخول. وضعتُ يدي بهدوء على أنفه، ثم اتجهتُ لأغوص في كومة القش التي كانت بجانبه. جلستُ على القش وظهري ملاصق للحائط.

أخفض رأسه بكل هدوء واقترب ليبحث عن طعامه المفضّل الذي أحضره معي دائماً وأضعه في جيبي.



نظرتُ إلى الأعلى، حيث يقف الحصان الضخم شامخاً كالبرج، وتساءلتُ في نفسي: كيف يمكنك أن تكون بهذا اللطف يا "ملينيوم"؟ توقف فجأة ونظر إليّ عندما سمع صوتي، ثم عاود العبث في جيبي. لقد كان يعلم مثلي تماماً أن هذه ليلة السباق الكبير، فقد قام بهذا الروتين مراراً وتكراراً؛ الضمادات التي توضع على قدميه، عدد المرات التي قمنا فيها بسحب الدم منه للتأكد من لياقته، مراقبتنا المستمرة له خلال فترات ما بعد الظهر لدى خروجه من الإسطبل والتي كان ينتبه لها ويعرفها. كان يعرف بذكاء كبير أن هناك سباقاً كبيراً في انتظاره. لكنه لم يكن يأبه كثيراً، أو يهتم كثيراً، وكأنه يقول بأنه أكبر من ذلك.

مددتُ يدي إلى جيبي وأعطيته الجزرة التي يبحث عنها. كانت أذناه تتحركان للأمام والخلف وهو يستمع لنبرات صوتي. "يا صديقي، لقد انتظرتُ قدومك كل حياتي"، توقفتُ عن الكلام قليلاً بينما لم يقم هو بأيّ حركة، وهنا استطردتُ قائلاً: غداً هو اليوم المنشود، هذا السباق يعني لي أكثر من أيّ سباق مضى، ربما أنتَ مهتمٌّ بسباقات أخرى في أوروبا وأرجاء العالم، لكن هذا هو وطني، وأريدك أن تَجري هنا، الآن، غداً يا صديقي، لأجلي ولأجل دبي ولأجل الإمارات.

بدا لي أنه تفهّم ما طلبتُه منه، فقد خطا خطوةً إلى الأمام ووضع أنفه قريباً من وجهي، للحظاتٍ بدت لي وكأنها دقيقة كاملة، ثم أخذ نَفَساً عميقاً وتنهّد. وضعتُ يدي على خطمه وأنا أهمّ بالوقوف، فقد انتهت زيارتي لهذا الكائن الملكي. اتجهتُ نحو الباب وفتحتُه، وقبل أن أخرج أدرتُ وجهي إليه وابتسمت، وبدوره أدار وجهه إلى النافذة وأراح ساقه الخلفية.

"

كانت سرعته تزداد كأنه يسابق الريح. خفق قلبي بسرعة وأنا أسمع صوت قوائمه تضرب كالصاعقة على أرض السباق

"

أشرقت شمس 25 مارس 2000 في كأس دبي العالمي للخيول. يوم طال انتظاره. بعد عدد من الاجتماعات الصباحية السريعة، قمتُ بجولة تفقّدية بعد الظهيرة للكشف على النقاط الأمنية الخاصة بالسباقات. تحققتُ من مسارات الطائرات العمودية وسيارات الإسعاف، وذهبتُ إلى مكتب الشرطة وراجعتُ معهم إجراءات الطوارئ. كان واجبي تأمين السلامة أيضاً للشيخ مكتوم، حاكم دبي، ولعشرات الآلاف ممن يحضرون السابق.

كان الوقت يمر بطيئاً، ومع كل دقيقة كان يزداد ترقّبي. كانت الساعة تقترب من الخامسة بعد الظهر. الآن يستعد "دبي ملينيوم" للانطلاق من إسطبله في القوز باتجاه مضمار سباق "ند الشبا". قدتُ سيارتي إلى هناك، وراقبتُه وهو يدخل إلى شاحنة النقل بحذر ليتم إقفال الأبواب خلفه. بدا لي هادئاً وواثقاً. تبعتُ الشاحنة حتى اطمأن قلبي لوصوله سالماً إلى إسطبله في مضمار السباق.

بعدها أطلقت تنهيدة. الآن أصبح الأمر برمّته منوطاً بالفرس.

حانت اللحظة الحاسمة، واكتظّ المضمار الذي بدا كلؤلؤة مضيئة في أرض دبي بعشرات الآلاف من المتابعين والمتحمسين. كان الكثيرون يترقبون مشاركة "دبي ملينيوم" في كأس دبي العالمي للخيول لأول مرة. جاءني فرانكي لأخذ التعليمات النهائية. قلتُ له باختصار: لا تقاتل الحصان، إذا أراد الانطلاق، لا تردعه ولا تقاوم اندفاعه، حاول التماشي مع طاقته.

كان التوتر السمة الغالبة على الجميع، ومن مكاني كنت أستطيع أن أرى "دبي ملينيوم" يمشي في الحلقة كأنه أسد؛ جلده يلمع وعيناه تضيئان، وشعرتُ في تلك اللحظة أنه مستعدّ. كان كالمقاتل الذي يستعجل بدء المعركة.

أحسستُ بأنفاسي تنحبس وأنا أشاهد الخيول تتجهَّز لأخذ مواقعها في أماكن الانطلاق المخصصة. استمعتُ إلى المعلّق وهو يتحدّث عن عملية تجهيز الخيول للسباق حتى آخر حصان، ثم سمعتُ الصرخة المعهودة التي تخرجها الجماهير لدى فتح بوابات السباق واندفاع الخيول كالسيل في المضمار.

انطلق "دبي ملينيوم" بشكل جيد من بوابته، وبدأت الجياد تطيع خيّاليها بالتهدئة بعد الانطلاقة السريعة. لكن "ملينيوم" بدا منزعجاً من ذلك.

رأيتُ فرانكي وهو يحاول التخفيف من هجوم "ملينيوم" الضاري، إلا أن "ملينيوم" لم يكترث لذلك، وقد بدت محاولات فرانكي يائسة للتخفيف من سرعته. كان يحاول الجلوس في أبعد نقطة على ظهر الفرس في الخلف والاتكاء بكل وزنه على فم الفرس للتخفيف من اندفاعه. لكن "ملينيوم" واصل انطلاقه كالصاعقة ليصبح في المقدمة غير عابئ بمحاولات التخفيف من سرعته.

بدأتُ أسمع تعليقات الناس من حولي عن السرعة المذهلة التي انطلق بها "ملينيوم"، فقد كان يجري كأن النار تشتعل في جسده. بدأوا بشتم فرانكي ولومه على الخسارة التي سيتسبّب بها للحصان، وارتفعت أصواتهم وهم يرددون: ماذا يظن نفسه فاعلًا؟

كنت أرى "ملينيوم" يتصرف كأن المضمار لعبته، لكنني تساءلت في نفسي: ماذا يمكن لانطلاقة صاروخية كهذه أن تعني للسباق؟! كلما تقدّمنا في السباق، راودني هذا السؤال من جديد؛ ماذا كان يفعل؟! لماذا كان فرانكي يمتطي الحصان بهذه السرعة؟!

بهذه السرعة الجنونية، لن يتمكّن الحصان من مواصلة السباق، وبكل تأكيد ستلحقه الجياد الأخرى وتسبقه. وكان مرافقو أخي الشيخ مكتوم يصيحون بأعلى صوتهم: هذا الخيّال الغبي سيكون السبب في خسارتنا للسباق! لن يتمكن أيّ حصان – مهما كانت قدراته – من الحفاظ على هذه السرعة حتى نهاية السباق!

سمع مكتوم هذه التعليقات وأدار برأسه نحوي ونظر إليّ نظرة خاطفة قبل أن يعود لمتابعة هذا العرض المذهل، فقد كان مثلي تماماً، مؤمناً بقدرات "ملينيوم".

على الرغم من أن أداء "ملينيوم" كان ينافي المنطق والعقل، إلا أنني كنتُ متيقّناً أنه سيفوز. لقد كان يعي تماماً ما الذي يفعله، لأنه حصان ليس كبقية الخيول.

هذا الحصان ذكي جداً لدرجة أنني عندما جلستُ معه في الإسطبل الليلة السابقة، وأخبرته بمدى أهمية هذا السباق بالنسبة إلي، كان كأنه يهزّ رأسه موافقاً. أكاد أجزم أن هذا الفرس يفهم ما نقوله. أما حين لا يوافق على ما أقول، فكان يقوم برفع رأسه فتتحرك خصلة شعره الأمامية في الهواء. هو حصاني وصديقي الأقرب إلى قلبي وأنا أعرفه.



مع دبي ملينيوم بعد فوزه بكأس دبي العالمي للخيول | عام 2000

كانت سرعته تزداد كأنه يسابق الريح. خفق قلبي بسرعة وأنا أسمع صوت قوائمه تضرب كالصاعقة على أرض السباق. عندما وصل "ملينيوم" إلى المسار المستقيم من السباق، اجتازه خلال وقت قصير جداً، ذهل الجمهور وبدأوا بترقب ما سيحدث بعد ذلك.

حافظ "ملينيوم" على سرعته من دون تعب، اعتقد الجميع أن دقائق قليلة تفصله عن التعب أو التباطؤ أو الانهيار أو حتى الموت خلال جريه باتجاه خط النهاية، وهنا تكون اللحظة الحاسمة عندما تجري بقية الخيول للحاق به. وبالنسبة لي، ستكون لحظةً حرجة ومؤلمة تلك إن تعب فيها "ملينيوم" وتباطأ. لكن "ملينيوم" غيّر طريقة ركضه. بدأ بالتسارع؛ كان يسابق الريح، وكانت أذناه منتصبتين. واصل الجريَ كأنه يهرب، وعندها وثب الجمهور مشدوهاً لرؤية هذا الحصان يهجم كالصاعقة باتجاه خط النهاية، ووقف فرانكي ورفع يديه عالياً.

واصل "ملينيوم" الجري بأقصى سرعة، حتى إن الحصان "بيهرنز" كان متخلّفاً عنه بست مسافات، وتلته بقية الخيول بالمقدار نفسه. حطّم "ملينيوم" الرقم القياسي. هاج الجمهور وماج من الإثارة والتشويق، فقد

كان ما حدث أمراً نادراً وفريداً واستثنائياً في سباقات الخيل!

في تلك اللحظة، ألقيتُ بطاقة السباق في الهواء، وقفزتُ من الفرحة. عانقتُ أخوي، وكانت مشاعر الفرحة لا توصف. لقد امتلكنا أعظم حصان، لم يخيّب ظني أبداً. كانت هتافات الجمهور وحماستهم عالية ومؤثرة ومختلفة. كان فوزاً لدبي وللإمارات وللعرب جميعاً امتلاك الحصان الأعظم عالمياً. كان المشهد مثل حلم يتحقق أمامي.

بعد هذا الفوز الساحق، كانت الجماهير مفعمة بالحماسة والإثارة. ربّتُّ على حصاننا الفحل بكل فخر، واعداً إياه بأن أشكره بما يليق بفوزه لاحقاً، فأنا ما زلتُ أقوم بعملي حتى تلك اللحظة، وكان أهم أولوياتي توفير الأمن والسلامة للشيخ مكتوم من جهة، ولجماهيرنا السعيدة بهذا الفوز من جهة أخرى، وعلى الرغم من الحماسة التي كانت في داخلي، فقد كانت عيناي تجولان في كل مكان من حولنا. ففي مثل هذه المواقف، يسهل أن يقترب أحدهم من القائمتين الخلفيتين لـ"دبي ملينيوم" ويصيبه بأذى، أو يمكن – لا سمح الله – أن يتأذى أحد من الجماهير الغفيرة التي اندفعت دفعة واحدة إلى مضمار السباق.

لم يتوقّف هاتفي النقّال عن الرنين في ذلك اليوم، ولم أتمكن من الردّ على العديد من المكالمات. وبعد تبادل التهاني والاحتفال مع أفراد عائلتي من أخواتي وبناتي وزوجتي، عدتُ إلى سيارتي لأقودها باتجاه الفيلا الصغيرة التي تجمّع فيها أصدقائي. وما إن وضعتُ قدمي على الأرض عندما فتحتُ باب الفيلا، وإذ برجل يهجم علي ويضع ذراعيه حول رقبتي؛ لقد كان خيّالنا فرانكي، الذي قابلني بوابلٍ من الأسئلة بحماسة: لقد فُزنا يا سيدي، يا سيدي، لقد فزنا، أين كُنت يا سيدي؟ أين كنت؟ لقد فزنا يا سيدي!

"

'دبي ملينيوم' أبى أن يهبط كالآخرين. كانت نهايته حزينه، تماماً كبقية الأبطال عبر التاريخ، تحبهم الجماهير، وتعشقهم الحشود، ولا يرضون بالرحيل بطريقة عادية

❝

تلك الليلة، عندما هدأ الجميع وانتهت الاحتفالات، رجعتُ إلى القوز ومشيتُ باتجاه الإسطبل. "شكراً لك يا صديقي"، قلت له. "لا تعلم كم يعني هذا الفوز بالنسبة لي يا ملينيوم"، هزّ رأسه موافقاً وماضغاً بفكيه. بدا لي أنه أمال رأسه كأنه يرحّب بقدومي، وضعتُ يدي في جيبي وأخرجتُ منها جزرة ووضعتها في فمه. وبعد أن أكلها، وضع أنفه تحت ذراعي بالطريقة التي يقوم بها عادة ليستمع إلى صوتي وأنا أحدثه.

لقد كان "دبي ملينيوم" مختلفاً عن بقية الخيول. كان على الخيّال أن يترك له حرية التصرف، وألّا يقوم بشيء، بل يدعه يجري في السباق كما يحلو له. لقد كانت سرعته الطبيعية أكبر بكثير من سرعة الخيول الأخرى ومن دون بذل جهد إضافي، لم تكن الخيول قادرة على مجاراته في تلك السرعة. كان فرانكي يقول دائماً إنه يخشى امتطاء "ملينيوم"، ليس لأنه حصان خطير، بل لأنه قوي. فهو كالكركدن، والتحكُّم به كان بمثابة وضع لجام على هذا الكركدن، فإذا رغب بالجري لن يمكنك إيقافه. وكان فرانكي يقول إنه لم يرَ في حياته حصاناً بهذه القوة، ولم تكن هذه قوة بلا عقل، فقد كان "ملينيوم" يعلم تماماً ما الذي يقوم به، كان يعلم أنّ عليه الركض من هذه النقطة إلى تلك وبأقصى سرعته، ولن يتمكن أحد أن يوقفه أو يكبح جماحه. لقد كانت قوته فريدة من نوعها، قوة لن تتكرر أبداً.

ذاع صيت "ملينيوم" مع انتشار موسم السباقات، وبدأنا بإعداد برنامج للمشاركة في العديد من السباقات، فاز فيها كلها إلا واحد فقط. لم يكن "دبي ملينيوم" بطلاً لسباقات المضامير المعشبة فقط بل حتى الموحلة. كان بطل المضامير أينما حل.

لكن سنَّة هذا الكون ألا يستمر البطل بطلاً للأبد. سنَّة الحياة أنَّ بعد الارتفاع نزولاً، وبعد الصعود هبوطاً. لكن "دبي ملينيوم" أبى أن يهبط كالآخرين. كانت نهايته حزينة، تماماً كبقية الأبطال عبر التاريخ؛ تحبُّهم الجماهير، وتعشقهم الحشود، ولا يرضون بالرحيل بطريقة عادية، بل بطريقة تخلدهم في نفوس وقلوب عشاقهم.

في 22 أبريل 2001، أصيب "دبي ملينيوم" بوعكة صحية، وفي اليوم التالي خضع لعملية جراحية بسبب تعرّضه لنوبة مغص، وعلى إثر

العملية حدثت مضاعفات. وفي 24 أبريل، تمّ تشخيصه بـ"داء العشب" الحاد.

هذه الجملة هي آخر ما ترغب بسماعه، فهذا المرض هو بمثابة حكم الإعدام!

حفنة من العشب كانت كفيلة بالقضاء عليه. يصيب "داء العشب" الأعصاب التي تتحكم بالجهاز الهضمي للخيول، فلا يستطيع جسده المقاومة.

يوم الأربعاء 25 أبريل، سافرتُ من دبي إلى نيوماركت للبحث فيما يمكننا فعله، إلا أن حالته تدهورت بعد أيام، وأُجريت له عملية ثالثة يوم الأحد 29 أبريل. وعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلتُها مع فريق من أفضل الأطباء فقد كان واضحاً أنه ما من حلّ لمشكلته.

اضطررتُ لاتخاذ أقسى قرار يمكن أن يتخذه مالك خيل، أقسى قرار يمكن أن يأخذه محبٌّ وصديقٌ للخيل مثلي، أقسى قرار يمكن أن تأخذه وأنت تعرف أنك تملك أعظم حصان في العالم.. قرار مؤلم بإنهاء حياته ووضع حدّ لمعاناته الشديدة.

بعد العملية الثالثة، أعطيتُ أوامري بأن يتركوه ليموت في هدوء. لم يفق "دبي ملينيوم" من غيبوبته تلك بعد العملية.

وما زلتُ لم أفق من أجمل حلم عشته مع أجمل صديق وأعظم حصان في العالم.

48

رئيساً للوزراء
حاكماً لدبي



منذ العام 1968، كنت جزءاً من منظومة الحكم في دبي. ومنذ 2 ديسمبر 1971، كنتُ جزءاً أيضاً من حكومة دولة الإمارات وزيراً للدفاع. رافقتُ زايد اتحادياً، وعلّمني راشد بن سعيد الكثير محلياً. وضعتُ كل جهدي في

خدمة بلدي وقادتي ووطني عبر السنين. لم أنافس على كرسي، ولم أتطلع لرئاسة، ورفضتُ ولاية العهد أربع مرات. كنتُ عبر سنوات خدمتي السابقة طموحاً من غير طمع في منصب، متطلعاً للأفضل لبلدي دون هضم حق غيري، ساعياً لسعادة شعبي وسعادة أسرتي بما تحتِّمه عليَّ المسؤولية في الأسرتين أمام ربي.

حتى جاء الرابع من يناير من العام 2006 من غير موعد، رحل أخي الشيخ مكتوم رحمه الله إثر نوبة قلبية مفاجئة، فأصبحتُ حاكماً لدبي، وانتخبني حكام الإمارات لأصبح نائباً لرئيس دولة الإمارات ورئيساً لمجلس الوزراء. كان وقع وألم رحيل الشيخ مكتوم شديداً على نفسي، لأنه رحل بعد 14 شهراً فقط من رحيل الوالد الشيخ زايد، رحمه الله.

عندما يرحلون تحسّ بأن مسؤوليتك أكبر أمام الله والوطن والتاريخ، تشعر بأن الأمانة التي تركوها لك أعظم من أن تتهاون فيها لثانية واحدة. عندما يرحلون تبدأ التفكير بطريقة جديدة، وعلى مستوى مختلف، وتبدأ حياتك بالتغير تبعاً لذلك.

أذكر بعد انتخابي، خلوت بنفسي. صليت لله ركعتين، دعوته كثيراً أن يعينني ويلهمني الصواب. بدأتُ فوراً بترتيب أفكاري وأولوياتي، استذكرتُ كافة الأفكار التي طالما راودتني لتغيير شكل الحكومة، وضعتُ قائمةً بفريق عملي الجديد، وضعتُ تصوراً سريعاً لنظام عملي وحياتي الجديد، أوازن فيه بين دوري الوطني كرئيس للحكومة ودوري كحاكم لدبي، وانطلقتُ على بركة الله نحو ميدان الحياة.

"

عندما يرحلون تحس بأن مسؤوليتك أكبر أمام الله والوطن والتاريخ، تشعر بأن الأمانة التي تركوها لك أعظم من أن تتهاون فيها لثانية واحدة

"

شكلتُ مجلس الوزراء الجديد. أخذتُ قراراً بإلغاء كافة اللجان السابقة؛ لا أؤمن باللجان كثيراً، أؤمن بفرق العمل. أسستُ مكتباً جديداً لرئاسة الوزراء، وطلبتُ من كافة الوزراء الجدد استراتيجيةً وخطةَ عملٍ واضحة للسنوات القادمة. وضعتُ نظاماً لمتابعة خطط الوزارات يتضمن 3000 مؤشر عمل. سددتُ كافة الديون الحكومية المتراكمة. أحسستُ بأنّ العمل بدأ ينتظم، وبأن العجلة ستبدأ في الدوران، فطلبتُ من جميع الوزراء عقد خلوة في الصحراء لمناقشة الأفكار الكبرى. لم يكن هدفي أن تدور العجلة فقط، كنتُ أريد أن تتسارع الحكومة حتى تقلع نحو السماء.

وضعنا الكثير من التصورات للمستقبل، وبعد استلامي رئاسة الحكومة بعام واحد تقريباً عقدتُ فعاليةً كبرى دعوتُ فيها رئيس الدولة صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، حفظه الله، وجميع الحكام وأولياء العهود والوزراء والمسؤولين، وأعلنتُ عن استراتيجية حكومة الإمارات ورؤيتها القادمة. ولاقت الاستراتيجية رضا الرئيس وبقية الحكام.

كان الهدف أن تكون الإمارات الأولى عالمياً في محاور العمل الحكومي مع نهاية العام 2021، اليوبيل الذهبي لإنشاء الدولة.

كنتُ أعلن بشكل شهري تقريباً عن منظومة جديدة للعمل الحكومي، ومؤشرات جديدة وأهداف جديدة، وكنتُ دقيقاً في متابعة التنفيذ عبر فريق عمل متفرغ لذلك. جاءني بعض الوزراء يشتكون من شدة الضغوط، ومن تزايد الأعباء، وكثرة الأهداف، وتغير الأنظمة. طلبتُ منهم الانتظار والتحمُّل، حتى أعلنتُ تشكيلاً جديداً لمجلس الوزراء أدخلنا فيه دماء شابة أكثر، وطاقات جديدة لمواكبة طموحنا وتطلعاتنا، وشكرنا وزراءنا السابقين.

كنتُ أجري تغييراً وزارياً كل عامين تقريباً للتأكد بأن فريق عملي الأقرب لي مستعدٌّ، ومواكبٌ، وقادرٌ على الوصول إلى سقف جديد كل مرة.

جمعتُ وزرائي في إحدى المرات، وطلبتُ منهم أن تختار كل وزارة مؤشراً أو اثنين في التقارير الدولية شرط أن تحقق فيه المركز الأول عالمياً قبل العام 2021. فاجأهم الطلب. بعضهم طلب أن يكون ضمن العشرة الأوائل، وقدم الكثير من المبررات التي تبدو منطقية. رفضتُ مبرراتهم لأنني كنتُ أريد كسر السقف الزجاجي الذي وضعوه فوق رؤوسهم. لسنا أقلَّ من غيرنا، وليس أصحاب المراكز الأولى بأعلى كفاءة أو ذكاء أو قدرات منا. قبلوا التحدي.

اليوم حكومة الإمارات، وقبل الموعد المحدَّد، الأولى عالمياً في أكثر من 50 مؤشراً دولياً، والأولى إقليمياً في أكثر من 100 مؤشر تنموي، والأعلى كفاءةً في العالم حسب التقارير الدولية، والأعلى ثقةً أيضاً بين شعبها مقارنة ببقية الحكومات.

كان زايد، رحمه الله، يردِّد مقولةً كنت أحبها؛ كان يقول: "الإنسان يفنى والمال يفنى ويبقى الوطن، وتبقى الأعمال التي قدمناها من أجل الوطن".

في الكثير من الأحيان، أتمنى لو كان زايد موجوداً اليوم ليرى أين وصل بلده الذي بناه من الصفر، أتمنى أن يعرف أننا ما زلنا على العهد باقون، ما زلنا نواصل مسيرته، نمضي على نهجه، وقيمه ومبادئه التي غرسها فينا. أتمنى أن يفرح بنا، ويفرح معنا.

حققنا بحمد الله الكثير من المنجزات بروح الفريق الواحد، وبقناعة تامة بأننا نستطيع. عوّدتُ فريق عملي وعوّدتُ جميع من يعمل معي في الحكومة بأن لا وجود لكلمة مستحيل في قاموس أبناء الإمارات.

لدي قناعة بأن أكبر عائق أمام تحدي المستحيل هي العقول التي تؤمن بوجوده، وأكبر إنجاز يمكن أن تحققه في بناء الإنسان هي بناء ثقافة اللامستحيل لديه. أكبر هدية يمكن أن تمنحها للأجيال القادمة هي غرس الشجاعة في نفوسهم لسبر أغوار لم يسبقهم إليها أحد. والوصول لقمم لم يفكر بها أحد.

لدي قناعة بذلك. استثمرتُ جهداً كبيراً في أحد المشاريع لكسر السقف الزجاجي الذي قد يضعه البعض فوق رؤوسهم. أردتُ رفعَ السقف، بل وحتى إلغاءه أمام الأجيال الجديدة. أعلنتُ بأننا نحن أبناء الإمارات سنرسل أول مسبار فضائي لكوكب المريخ مع حلول يوبيلنا الذهبي في العام 2021. سيقطع مسبارنا 225 مليون كيلومتر قبل الوصول للكوكب الأحمر، لكننا سنصل، وسنكون ضمن تسع أمم في العالم فقط تستطيع تحقيق هذا الإنجاز، أمم سبقتنا بمئات السنين في مسيرة التنمية، ونريد أن نسبقهم اليوم بشجاعتنا وسرعتنا وإرادتنا التي لا يقف أمامها أحد.

أحدث المشروعُ أثرَه، وسرت في مجتمعنا روحٌ جديدة، وطاقةٌ جديدة، وطموحاتٌ جديدة. وأصبح الشبابُ يتطلعون للفضاء، وأصبح الناسُ في مجالسهم يعيّرون المقصِّر بأن غيره وصل للفضاء وهو ما زال يحبو على

الأرض.

تحقّق هدفي بتغيير ثقافة المستحيل في مجتمعنا.

تأثرتُ كثيراً عندما قال لي أحد الأصدقاء بعد إعلان المشروع: لو كان زايد معنا، لفرح بنا وفرح معنا.



أثناء اجتماع لمجلس الوزراء في متحف اللوفر | عام 2017

49
البحث
عن الإنسان



خلال حفل تكريم الفائزين بمبادرة صناع الأمل في دورتها الثانية | عام 2018

رحلات القنص والصيد من الهوايات المحبَّبة إلى نفسي، والتي أخرج بها من أجواء العمل لأكسر روتيني، وأجدد أفكاري، وأشحن طاقتي.

في إحدى رحلات القنص في إحدى دول أفريقيا قبل عدة سنوات مررنا

بمدينة صغيرة. كنتُ قد شيدتُ فيها مدرسةً لأهل المنطقة. زرتُ المدرسة بشكل مفاجئ لأجد أنّ عدد الطلاب قليل جداً مقارنة بحجم المدرسة الكبير؛ عدد لا يتجاوز العشرات في مدرسة يمكن أن تضم الآلاف. سألت عن السبب، أخبروني بأن السبب الرئيسي لعدم انتظام الطلاب في المدرسة هو الجوع!

أذهلتني الإجابة. أخذت مني عدة ثوان لأستوعبها. نحن نبني المدارس حتى نتخلص من الجوع. التعليم هو سلاحنا، لكن هذا السلاح معطَّل تماماً بسبب الجوع.

أخبروني أن الطلاب يذهبون للمزارع للبحث عن طعامهم يوماً بيوم، أو يبقون في البيوت إذا كان جوعهم شديداً وليست لديهم طاقة.

كم في هذا العالم من محرومين!

أمرتُ بتجهيز مطبخ ضخم ضمن المدرسة، ووفرتُ لهم أفضلَ المعدّات مع طاقمٍ متكامل لخدمتهم. وبعد عام عدتُ لهم، لأجد المدرسة يرتادها الآلافُ من الطلاب وفق مناوبات صباحية ومسائية. أحسستُ بالسعادة.

نعم، أحسستُ بالسعادة. العطاء راحة وسعادة وطمأنينة. نحن أحوج للعطاء من المحتاج. تعطي فيعطيك ربُّك، تتواضع فيرفعك، ترحم الناس فيحبّك ويسعدك.

لا أعتمدُ على جهودي الشخصية في العمل الإنساني بل على الجهود المؤسسية لأنها أبقى وأدوم وأعظم أثراً

بطبيعة الحال، لا أعتمدُ على جهودي الشخصية في العمل الإنساني بل على الجهود المؤسسية لأنها أبقى وأدوم وأعظم أثراً. أسّستُ الكثير من المشاريع الإنسانية التي تقوم عليها فرق عمل مخلصة؛ أنشأتُ

مؤسسة دبي للعطاء قبل سنوات لتهتم بالتعليم في الدول الفقيرة، استفاد من خدماتها أكثر من 18 مليون طالب وطالبة؛ ولدينا مؤسسة خيرية استفاد منها أكثر من مليوني أسرة، ولدينا مدينة عالمية للخدمات الإنسانية تنظم وتدعم عمليات الإغاثة للكوارث الطبيعية والبشرية إلى نحو ربع دول العالم؛ لدينا مؤسسة معرفية؛ وأخرى تقنية تعلِّم مئات الآلاف لغة البرمجة؛ لدينا وقف بحوالي مليار درهم للمشاريع والأبحاث الطبية؛ ومؤسسة متخصصة لمعالجة المكفوفين استفاد منها الملايين؛ لدينا معهد للتسامح؛ ومؤتمرات للثقافة والإعلام وجوائز للفنون وللغة العربية وغيرها. كل ذلك تحت مظلة مبادرات محمد بن راشد آل مكتوم العالمية التي تضم أكثر من 30 مؤسسة ومبادرة استفاد منها أكثر من 130 مليون إنسان.

لا أحبُّ المباهاة، ولا أقول ذلك من أجل السمعة، فالله وحده يعلم النيات؛ ولكن أقول ذلك لتشجيع غيري من الميسورين والمشغولين. أقول لهم إن الانشغالات الكثيرة والمتعددة لا يجب أن توقفنا عن البحث عن الإنسان في داخل كل منا. أقول لهم إنني لم أسمع في حياتي عن شخص افتقر بسبب العطاء، أو توقفت أعماله بسبب عمل الخير، أو قلّت إنجازاته بسبب البذل للغير. كل واحد منا يمكن أن يقدّم شيئاً. كل شخص فيه بذرة خير، فيه إنسان رحيم كريم. أقول لهم بأن أي إنسان يرفع ألم إنسان آخر فإنه يغرسُ زهرةً في بستان، ويشعل شمعةً في الظلام، وينقذ روحاً هي غالية عند الرحمن.

في العام 2016، أطلقتُ مسابقةً لأثبت للجميع بأن أي شخص مهما قلّ ماله أو منصبه يمكن أن يكون إنساناً عظيماً في العطاء؛ أي شخص عادي يمكن أن يسبق بأعماله الإنسانية آلافاً من رجال الأعمال من أصحاب الملايين، لأن العظمة تنبع من القلب، والرحمة جزء من الروح، ولا علاقة للعطاء بكثرة المال. أسميتُ المسابقة "صناع الأمل"، ودعوتُ فيها كل من عمل عملاً إنسانياً أن يخبرنا به، أو أن يرشِّح من يعرفه لإلقاء الضوء عليه وتكريمه أمام الملايين في العالم العربي. وصلتنا الآلاف من المشاركات، آلاف شموع الأمل المضيئة في منطقتنا، والذين لا يعرف عنهم أحد.

أحدهم يبني داراً للأيتام في بلد هدّتها الحروب بجهوده الذاتية، وأخرى تترك بلدها الخليجي الغني وتهاجر إلى بلد فقير لسنوات طويلة لتنقذ مئات الآلاف من الناس، وطبيب جمع معه 3000 طبيب عبر وسائل التواصل الاجتماعي للقيام بعمليات قلب للأطفال في الدول الفقيرة،

وشاب يجمع المشردين في الشوارع من كبار السن ويقاوم الظروف من أجل توفير مأوى ورعاية طبية لهم بجهوده الشخصية المتواضعة جداً، وشابة تنقذ اللاجئين في عرض البحر، وسيدة بلغت السبعين لم توقفها سنها عن السفر والعمل من أجل الفقراء، وغيرهم الكثير. أذكر منهم فارس من السودان؛ تفاجأ في بعض قرى السودان بقلة روّاد المدارس، أيضاً بسبب الجوع. لم يلُم فارس أحداً، ولم يلعن الظلام، ولم يذرف دمعة حزن ويعاود حياته الطبيعية. بل رجع إلى بيته، وبمساعدة والدته جهز سندويشات لطلبة المدارسة، وفي الغد مثلها، ثم بدأت نساء الحي في مساعدته، ثم سمع عنه الكثير من المتطوعين وبدأوا أيضاً في مساعدته، حتى بلغ إجمالي السندويشات التي وزعها خلال عشر سنوات أكثر من 40 مليون ساندويشة، كل ذلك بجهود تطوعية بدأها بنفس طيبة، ونيّة طيبة، وإمكانيات بسيطة جداً. وكلُّنا فيه فارس.

عندما سألوني لماذا أطلقت "صناع الأمل"، قلت لهم: نبحث عن الإنسان في داخل كل إنسان. هذه النماذج تحرِّك الإنسانَ البسيط ليكون استثنائياً، وتحرِّك الإنسانَ المقتدر ليحسَّ بتقصيره، وتحرِّك الجميعَ للتفكير بشكل إيجابي في تحديات مجتمعهم بدل إلقاء اللوم وانتظار أن تحلّ الحكومات كافة مشاكلنا.

قبل عدة أعوام، أعلنّا في دولة الإمارات عاماً للقراءة، نشجِّع أطفالنا على القراءة لأنها تفتح العقول، وتوسع الآفاق، وتبني شخصية حضارية ومثقفة.

قرأتُ بعدها في الصحف عن مدى تدنّي نسبة القراءة في عالمنا العربي. طلبتُ مقترحات، فوصلني مقترح بعمل مسابقة اسمها "تحدي القراءة العربي" لطلاب المدارس، يقرأ فيها كل طالب 50 كتاباً كل عام، ونكرِّم المتفوقين منهم. وضع الفريق هدفاً بمئة ألف طالب سنوياً يدخل معناَ المسابقة. قلتُ لهم هدف العام الأول هو مليون طالب. انطلق تحدي القراءة ليشارك في عامه الأول 3,5 ملايين طالب. وفي عامه الثاني تخطّى العدد 7 ملايين طالب، وفي عامه الثالث شارك في التحدي 10,5 ملايين طالب من 44 دولة حول العام، قرأ كل منهم 50 كتاباً خلال عامهم الدراسي. إنجاز عظيم، لكنه ليس بجهودي. جميع وزارات التربية في الدول العربية وغيرها من الدول المشاركة هم الذين تحمَّسوا للفكرة، وآمنوا بها، وتطوعوا من أجلها، ودفعوا بأبناء بلدانهم للمشاركة فيها. أكثر من 10 ملايين طالب تابعهم 87 ألف مشرف، كلهم متطوعون لأنهم آمنوا بفكرة.



خلال حفل تكريم الفائزين بمبادرة تحدي القراءة العربي في دورته الثالثة | عام 2018

لا تحتاج للكثير من المال كي تحدث تأثيراً، تحتاج فقط إلى قلب حيّ يتلمَّس مواضع الخلل، ويعمل بإخلاص، كي تستأنف هذه المنطقة حضارتها. لو أن كلَّ واحد منا أعطى عُشر ما يأخذه ما بقي بيننا فقير أو مريض أو جاهل.

دائما أقول لفريقي بأن الله هو الرحمن الرحيم، وأن روحنا هي نفخة من الله، وأكثرنا رحمة بالناس أقربنا لله الذي وسعت رحمته كل شيء.

50
الوصايا العشر

قبل عدة أشهر، تحدثتُ في عدة تغريدات عبر منصة "تويتر" عن جزء من أزمة العالم العربي، وأن أزمتنا أزمة إدارة وليست أزمة سياسة، وأننا بحاجة لإداريين أكثر من السياسيين يستطيعون إصلاح جزء من الخلل التنموي في المنطقة.

وصلتني هذا الرسالة عبر موقع تويتر: صاحب السمو، لو اخترتَ أن تكتب 10 وصايا في الإدارة الحكومية لمسؤول في عالمنا العربي.. ما هي هذه الوصايا العشر؟ أحببتُ السؤال، وأعتقد أنني أستطيع أن أقول شيئاً في هذا المجال.

أولاً وقبل كل شيء، أقول إنّ حياتنا هي رحلة تعلُّم، رحلة لا تنتهي، وكلما تعلَّمنا أكثر عرفنا مقدار ما نجهل، وهو أكبر ممّا نتصور. لذلك، التوقُّف عن التعلُّم هو توقُّف عن التقدُّم في الحياة.

يمكن أن أختصر الوصايا العشر لأي مسؤول في مجال الإدارة الحكومية حسب خبرتي المتواضعة كالتالي:

الوصية الأولى: اخْدم الناس! الغاية من الإدارة الحكومية هي خدمة الناس، الغاية من الوظيفة الحكومية هي خدمة المجتمع، الغاية من الإجراءات والأنظمة والقوانين هي خدمة البشر؛ لا تنسَ ذلك. لا تمجِّد الإجراءات، ولا تقدِّس القوانين، ولا تعتقد أن الأنظمة أهم من البشر؛ هي لخدمتهم وراحتهم وتسهيل حياتهم، هي قابلة للتغيير في أي وقت من أجلهم. الكثيرون يفقدون البوصلة، ويعتقدون أن دورهم الحفاظ على الأنظمة المعمول بها، وتطبيق نصوص القوانين التي تم تشريعها، وإنفاذ الإجراءات التي تم اعتمادها، وهذا الاعتقاد أساس الكثير من مشكلاتنا الإدارية. لو أن القانونيين، والمشرّعين، والوزراء، والمدراء، ومن يستقبل المتعاملين، ومن يصمِّم الخدمات، ومن يقدّمها، ومن يضع الموازنات، ومن ينفذ المشاريع، لو أن هؤلاء حافظوا على البوصلة والتزموا بمبدأ "خدمة الناس"، لتغيَّرت نظرتهم وأولوياتهم وقراراتهم وخططهم، ولحدثت

ثورةٌ إدارية في عالمنا العربي.

الوصية الثانية: لا تعبد الكرسي! الوظيفة والمنصب والمسؤولية كلها مؤقتة، ستذهب عنها سريعاً، أو ستذهب عنك. رصيدك الحقيقي هو عملك وإنجازك، وكلما أنجزت أكثر ارتفع منصبك، وعلا اسمك، وأحبَّك الناس، وجزاك الله خيراً في الدنيا والآخرة. إذا أحببتَ الكرسي، لن تملك الشجاعة لاتخاذ قرارات ترفعك وتوصلُك للكرسي الذي يليه. إذا أحببتَ الكرسي، قدَّمته على قيمك ومبادئك والغاية التي جئتَ من أجلها، وهي خدمة الناس. اجْعَله آخر همَّك، وستملك عندها طاقةً كبيرةً وأفقاً واسعاً لتغيير واقع مؤسستك ومجتمعك ووطنك. انظر لمصلحة وطنك البعيدة وليس لرِجْل كرسيَّك عند قدمك.

الوصية الثالثة: ضع خطَّتك! عندما لا تخطِّط فأنت تخطِّط لفشلك. الكثير من المسؤولين يعيشون وظيفتهم يوماً بيوم، لا ينظرون لأبعد من أسبوع أو شهر، وهذا أحد أكبر تحدياتنا الإدارية. دور القائد الأساسي هو معرفة الاتجاه، وإرشاد فريقه نحوه، وتحفيزهم باستمرار للوصول إليه. إذا أخفقتَ في وضع خطة، فأنت تسير بغير هدى، ولا يهمّ أين تصل، لأنك لن تصل إلى شيء ذي قيمة.

الوصية الرابعة: راقب نفسك! راقب الأداء في مؤسستك، واجعل لك رقيباً داخلياً في المؤسسة، وخارجياً محايداً. لا بدّ من مؤشرات تضمن من خلالها بأنك تمضي في الاتجاه الصحيح لتحقيق الخطة. لا تغش نفسك ووطنك بوضع مؤشرات ضعيفة ورقابة ضعيفة. لا يمكن إنجاز أي مشروع دون مؤشرات حقيقية وصريحة تلزم بها نفسك وفريق عملك.

الوصية الخامسة: اصنع فريق عملك! لا تحلِّق وحيداً، لا تغرِّد وحيداً، لا تصفِّق وحيداً. اصنع فريقاً يحملون أهدافك لآفاق جديدة، تنازل عن صلاحياتك لهم، أرشِدْهم وعلِّمْهم ومكِّنْهم، ارفع السقفَ أمامهم، أخرِج الماردَ الذي بداخلهم، كافِئْهم وأبْرِز إنجازاتهم. استرخ واستمتع بالنتيجة، لأن الفريق العظيم سيحملك إلى أماكن عظيمة، والفريق الضعيف ستحمله فوق ظهرك حتى يكسره.

الوصية السادسة: ابتكر أو انسحب! الحكومات التي لا تبتكر تشيخ وتهرم وتخرج من السباق ومن السياق. الأفكار تجدِّد الدماء، وتسبق بها المنافسين، وتقلِّل بها التكاليف، وتعيد من خلالها اكتشاف نفسك. الاقتصاد الجديد قائم على الأفكار، والعالم الجديد يبحث عن مواهب

تحمل أفكاراً جديدة. لا تتوقف عن البحث عن أفكار عظيمة عند فريقك، عند مراجعيك، عند عموم الناس. لا يوجد شيء أقوى من فكرة عظيمة.

الوصية السابعة: تواصل وتفاءل! تواصل مع جمهورك باستمرار، مع مجتمعك، مع الإعلام من حولك. ابن سمعتك وصورتك، وأخبِر العالمَ عن طموحاتك وقدراتك. بعض الحكومات تعتقد بأن التواصل الإعلامي وظيفة تكميلية، وأحياناً مزعجة. أقول لهم بأنها أساسية ورئيسية. من خلال الإعلام تبني صورتك، وترسِّخ الشفافية في حكومتك، ويعرف الناس أين تمضي بمؤسستك. من خلال الإعلام تحصل على مساندة الجمهور لك، لأنهم يعرفون أين تذهب، ويعذرونك إن أخطأت لأنهم خبروك وألفوك في خدمتهم. أعلِن عن أهدافك في الإعلام لأنهم سيحاسبونك وهذا في صالحك، لأنك ستبذل الغالي والنفيس في تحقيق ما أعلنت عنه والتزمت به أمام الناس. تواصل دائماً ولا تختبئ، فالإعلام صديق وليس عدواً، صديق للمخلص المنجز، وعدوّ للمتكاسل والفاسد.

> لا تمجِّد الإجراءات، ولا تقدِّس القوانين، ولا تعتقد أن الأنظمة أهم من البشر. الغاية من الإجراءات والأنظمة والقوانين هي خدمة البشر

الوصية الثامنة: لا تكن من غير منافس! التنافسية مبدأ مهم في سلوكنا نحن البشر. نافس نفسك أو غيرك. الشركات تنجح عندما تتنافس في بيئة مفتوحة. نافِس غيرك من الدوائر والمؤسسات في الدول المختلفة، نافِس للحصول على مراكز أولى محلياً أو عالمياً، اجْعَل بيئة العمل بيئةً تنافسيةً أيضاً، نافِس ماضيك لتكون أفضل منه، نافِس أهدافك لتحقِّق أعلى منها، نافِس دولاً لتكون أعظم منها. التنافسية أسلوب حياة في الحكومات، من غيرها تتراجع الهمم، وتنطفئ الحماسة وتفتر العزائم.

> وظيفتنا أجمل ما في حياتنا، بل هي الحياة.
> وظيفتنا عظيمة، نغيِّر من خلالها حياة
> الملايين نحو الأفضل

الوصية التاسعة: اصنع قادة! اصنع قادة تصنع مستقبلاً. القائد الحقيقي هو من يصنع قادة، والمؤسسة الحقيقية هي التي تخرج قادة، وضمان استمرارية التفوق مرهون بجهود المؤسسة في صنع قيادات؛ قيادات تفتح آفاقاً أكثر، وتحمل طاقاتٍ أكبر، وتنقل المؤسسات لقمم جديدة. صنع القيادات سرٌّ لا يفهمه إلا رجال تغلَّبوا على تضخِّم الأنا والذات، وفهموا أن أعظم إنجاز يصنعونه هو بناء البشر وليس الحجر.

الوصية العاشرة: انطلق لبناء الحياة! نحن محظوظون لأننا نعمل في الحكومات. وظيفتنا ليست وظيفة عادية، وظيفتنا أجمل ما في حياتنا، بل هي الحياة. وظيفتنا عظيمة، نغيِّر من خلالها حياة الملايين نحو الأفضل. لا تستهِن بدورك أو عملك أو جهدك، فأنت تعمل في مجال صنع الحياة، وتصميم المستقبل، وبناء الأوطان.

وفقني الله وإياكم لخدمة البلاد والعباد.

وما زالت القصة في بدايتها..

أخوكم محمد بن راشد آل مكتوم



أكتبُ ما يُسعفني به ازدحامُ الأوقات بالواجبات، وما تُسعفني به الذاكرةُ من سنوات وذكريات. أكتبُ سيرةً غير مكتملة، لعلها تكون بدايةً لكتابة جزءٍ من تاريخ دولتنا، تُخلّده للأجيال القادمة.

سيقولون بعد زمن طويل: هنا كانوا، هنا عملوا، هنا أنجزوا. هنا ولدوا، وهنا تربّوا. هنا أحبّوا، وأحبّهم الناس. هنا أطلقوا ذلك المشروع، وهنا احتفلوا بإتمامه. من هنا بدأوا، وهناك وصلوا في سنوات معدودات.

ولا نريدُ من الأجيال الجديدة إلا أن يقولوا فينا خيراً؛ فالله في عليائه يعلمُ نيّتنا في صنع الخير لشعبنا وأمّتنا. والله يعلمُ أنّنا عملنا، واجتهدنا بما استطعنا.

نفتّشُ دائماً عن الإنسان في الإنسان، ونبنيه. ونزرعُ الخيرَ دائماً للناس، كلّ الناس، وننفعهم. لا توقفنا أزمات، ولا تُبطئنا عقبات. ولا نلتفتُ لمشكّك، ولا نستمعُ لمتردّد.

هذه طريقتُنا في بناء بلادنا، كما سترون من خلال هذه المحطّات. في هذه المحطات كلماتٌ بسيطة، أودعتها قليلاً من حكمة، وكثيراً من محبّة، لعلّها تفيد، أو تلهم، أو تعلّم، أو تسهمُ في بناء الإنسان ورفعة الأوطان.

محمد بن راشد آل مكتوم

50 قصة

في خمسين عاماً



قصتي

محمد بن راشد آل مكتوم